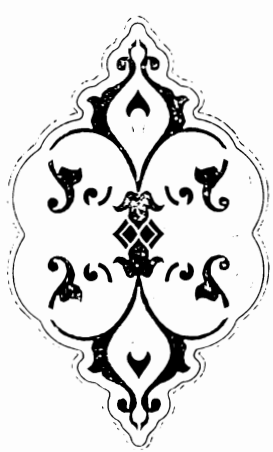
أصالة النص القرآني

وحيًا، ورسمًا، ولغةً، وقراءةً

تأليف

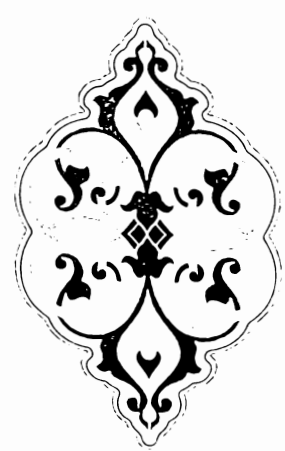
الدكتور غانم قدوري الحمد

دار النعمة للدراسات القرآنية



أَصَالَةُ النَّصِّ القُرْآنِيِّ

وَحْيًا، وَرَسْمًا، وَلُغَةً، وَقِرَاءَةً



إبـــــداع وتألق 2022

الموضوع : دراسات قرآنية.

العنوان : أصالة النص القرآني وحياً، ورسماً، ولغةً وقراءة.

تأليف : الدكتور غانم قدوري الحمد.

عدد الصفحات : 312 .

قياس الكتاب : 17×24 .

التنفيذ والإخراج الطباعي : دار المصحف الشريف .

حُقُوق الطَّبْع مَحْفُوظَة

الطبعة الثانية

١٤٤٤ هـ - ٢٠٢٣ م

معاً للنشر الكتاب الهادف

جَمِيعُ إِصْدَارَاتِنَا مُتَوَفِّرَةٌ إِلكترونيًّا عَلَى :

تطبيق كتابي الهادف

My Purposeful Book

يمكنكم تحميل التطبيق من متاجر التطبيقات

App Store Google Play

معاً لنشر الكتاب الهادف

دار الغوثاني للدراسات القرآنية

www.gwthani.com

+90 541 898 36 88 إسطنبول - تركيا / Turkey

+963 944 453 638 دمشق - سورية / SYRIA

+961 78 920 707 بيروت - لبنان / LEBANON

اعرف أكثر عن الكتاب

ISBN 978-9933-605-76-6

أصالة النص القرآني

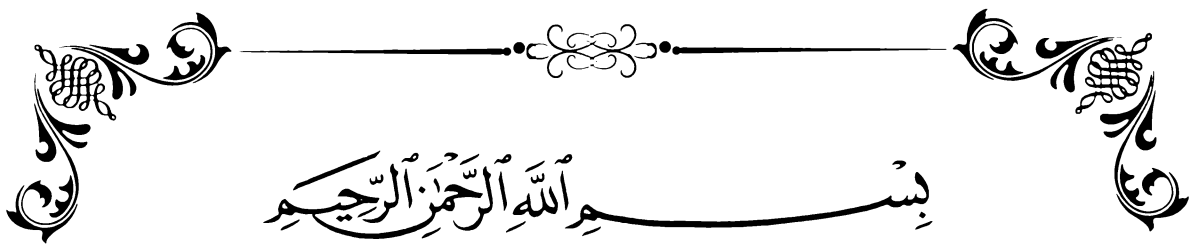
وحيًا، ورسمًا، ولغةً، وقراءةً

تأليف

الدكتور غانم قدوري الحمد

دار الغوثاني للدراسات القرآنية


بسم الله الرحمن الرحيم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَة

الحمدُ للهَ رَبِّ العالمينَ، والصلاةُ والسلامُ على سيدنا مُحَمَّدٍ، وعلى آلهِ وصحابته أجمعين، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدِّينِ، أَمَّا بَعْدُ:

فقد كان ثَمَّةَ سؤالٌ يَخْطُرُ ببالي منذ وقت مبكر، وصار يَكْبُرُ كلَّما تقدَّم بي العمر، وأنا أستمع إلى القرآن الكريم أو أتلوه، وتَخَرَّجْتُ من الكلية، ولم أَجِدْ له في دراستي لعلوم القرآن في الكلية الجواب الشافي أو الكافي، وذلك السؤال هو: هل هذا المصحف الذي نعرفه اليوم ونقرأ فيه هو عين المصحف الذي كَتَبَهُ الصحابة رضي الله عنهم، وكيف ٱنتقل إلينا خلال القرون الماضية، وهل وصل إلينا سالمًا من التحريف أو الزيادة أو النقصان؟ وكان الخَجَلُ أو الحَرَجُ يمنعني من أنْ أُصَرِّحَ بذلك السؤال إلى أساتذتي أو مَن هو أكبر مني!

وصار البحث عن جوابٍ لذلك السؤال يُؤَرِّقُنِي بعد أنْ سَجَّلْتُ رسالتي للماجستير في كلية دار العلوم بجامعة القاهرة عن (الرسم المصحفي: دراسة لغوية تاريخية)، وٱنتابني قلق شديد حين بدأتُ أَقرأ في مصحف جامع عمرو ابن العاص المحفوظ في دار الكتب المصرية، في ربيع سنة ١٩٧٥م، وهو مصحف قديم بالخط الكوفي، ومكتوب على الرق، ويُقَدَّرُ أنه من مصاحف

القرن الهجري الأول، وهو إن لم يكن من المصاحف العثمانية الخمسة، فإنه قد يكون منقولاً عن واحدٍ منها، ومصدر القلق في أثناء القراءة في هذا المصحف أَنْ أجد فيه كلمة خلاف ما في مصاحفنا المتداولة في هذا العصر، فأزدادُ حَيْرَةً بسبب ذلك، لكني مَضَيْتُ أقرأ في المصحف كلمة كلمة، وأنا أُمْسِكُ بيدي المصحف الأميري المطبوع في القاهرة سنة ١٣٤٢هـ، وٱنْتَهَيْتُ من قراءة المصحف، ولم أجد فيه ما يخالف مصاحفنا، فارتاحت نفسي لهذه النتيجة، ووجدتُ من خلالها الطريق إلى الإجابة عن ذلك السؤال القديم، لأن ذلك يعني أن المصحف الذي نقرأ فيه اليوم هو عين المصحف الذي كتبه الصحابة، وتناقلته الأمة عبر القرون.

ومرت السنوات، وٱشْتَغَلْتُ بتدريس مادة (علوم القرآن) في الجامعة، وكَتَبْتُ عددًا من البحوث، وحَقَّقْتُ عددًا من كتب علوم القرآن، منها ما يتعلق برسم المصحف، ومنها ما يتعلق بتلاوة القرآن وقراءاته، ومنها ما يتعلق بلغة القرآن، وكان ذلك يُعَزِّزُ في نفسي تلك الإجابة التي حَصَلْتُ عليها من خلال القراءة في مصحف جامع عمرو بن العاص، ثم أُتِيحَتْ لي في السنوات الأخيرة القراءة في عدد من المصاحف المخطوطة التي ترجع إلى عصور مختلفة، بعد أن يَسَّرَتْ ثورة التصوير الرقمي الاطلاع على تلك المصاحف، وهي مصورة بجودة عالية، وكانت حصيلة ذلك كله تأكيد حقيقةٍ خُلَاصَتُهَا: (أصالة النص القرآني: وحيًا، ورسمًا، ولغة، وقراءة).

وكتبتُ هذا الكتاب لبيان هذه الحقيقة، التي سَعَيْتُ سنواتٍ في البحث عنها، وتدرجت في الوصول إليها، حتى تكون واضحة في نفوس المؤمنين،

وتكون واضحة لغيرهم أيضًا ممن يبحثون عن الحقيقة، فالقرآن خطاب إلهي للبشرية كلها، فيه سعادتها الدنيوية والأخروية، ومن يثير الشبهات حول أصالة النص القرآني فإنه يترتب على صنيعه أن يُحْجَبَ ذلك الخير عن البشرية، التي هي أحوج ما تكون إليه، بعد أن أتعبتها قِيَمُ الحضارة المادية، والفلسفات الوضعية، ومن الواجب على العقلاء من بَنِي البشر التعاون على إيصال كلمة الحق إلى الناس أجمعين، لإصلاح حالهم وحياتهم في الدنيا، وللفوز بالسعادة في الحياة الأخرى، والنجاة من عذاب الله تعالى الذي وَعَدَ به المكذبين الضالين عن سبل الهداية الربانية التي جاء بها خاتم النبيين محمد عليه الصلاة والسلام.

وسوف ينبني هذا الكتاب من تمهيد وأربعة فصول وخاتمة، أما التمهيد فسوف أتحدث فيه عن منهجي في تناول الموضوع، ومصادري التي اعتمدت عليها فيه، وأما الفصول فهي:

الفصل الأول: مصدر النص القرآني، أو ظاهرة الوحي

الفصل الثاني: تدوين النص القرآني

الفصل الثالث: لغة القرآن الكريم

الفصل الرابع: قراءة القرآن الكريم

وأما الخاتمة فتلخص معالم الكتاب وأهم نتائجه.

ولعل بعض القراء يقول: إن الأمة عاشت قرونًا كثيرة، منذ عصر التنزيل إلى عصرنا هذا، وهي تؤمن بهذه الحقيقة، وهي حفظ النص القرآني وسلامته من التغيير أو التبديل، ولا تزال تؤمن بذلك، ولا يكتمل إيمان المؤمنين إلا

به ، فما الجديد الذي سيأتي به هذا الكتاب ؟

وأقول: إن هذا صحيح ، لكن تقادم الزمان ، وتوالي القرون والأعوام ، مع كثرة الشبهات التي يثيرها بعض الدارسين من المعاصرين عن قصد أو عن غير قصد ، قد تثير الشك في النفوس حول سلامة النص القرآني ، فيضعف إيمان المؤمنين بمقدار ما يَعْلَقُ في نفوسهم من تلك الشبهات ، وقد تصرف تلك الشبهات عن الاهتداء بالقرآن الكريم بعض الباحثين عن الحقيقة ، ومن ثم فإن دراسة موضوع أصالة القرآن الكريم: وحيًا ، ورسمًا ، ولغة ، وقراءة ، مفيد للقراء من مختلف الأصناف ، إن شاء الله .

وإني إذ أكتب مقدمة هذا الكتاب أعلم علم اليقين أن الكمال لله تعالى وحده ، والعصمة لرسوله ﷺ ، وأن مجال البحث في أي موضوع من موضوعات العلم لن يُغْلَقَ على يد كاتب واحد ، مهما أُوتِيَ من العلم ، ومن ثم فإني لا أزعم أني سأبلغ بموضوع هذا البحث نهايته ، أو أن أُوصِدَ دون الباحثين أبوابه ، وغاية ما أرجوه أن أكون قد فَتَحْتُ باب البحث فيه ، ووضحت حقيقة أصالة النص القرآني كما اتضحت لي ، ليبنيَ عليه غيري ويزيدَ فيه ، حتى تكون هذه الحقيقة التي سعى إليها الكِتَاب واضحةً في النفوس ، جَلِيَّةً للعقول ، تُحَرِّكُ الناس لسلوك طريق الهداية الربانية ، والابتعاد عن طريق الضلالة والهلكة .

ويلزمني وأنا أكتب مقدمة الكتاب أن أتوجه بالشكر -بعد شكر الله تعالى- إلى الأفاضل من أصدقائي الذين قرؤوا الكتاب ، وأفادوني بملاحظاتهم ، وأخص بالذكر منهم الدكتور محمد بن عبد الله الوائلي ، والأستاذ عمار محمد الخطيب ، والشيخ عبد الله بن حسين آل عيسى ، جزاهم الله تعالى كل خير ،

وجعل ما بذلوه من جهد، وما دونوه من ملاحظات في ميزان حسناتهم.

وكانت لبعض هؤلاء الأصدقاء وجهتا نظر متباينتان حول تفصيل بعض الموضوعات أو اختصارها، فبينما يرى الأستاذ عمار الخطيب أنَّ هناك حاجةً لتعميق البحث في بعض الموضوعات لاستيفاء جميع ما يتعلق بها من دقائق، يرى الشيخ عبد الله بن حسين أنَّ هناك حاجةً للتخفف في بحث بعض الموضوعات، مما لا يهم كثيرًا من القراء الوقوف عليه.

وكان بناء الكتاب أقرب إلى وجهة النظر الثانية، كما وضحت ذلك في التمهيد، لأني أتوقع أن يقرأه أهل الاختصاص وغيرهم، وقد لا يعني الكثير منهم الوقوف على جزئيات بعض الموضوعات، وقد يجدونها معيقة لهم عن الاسترسال في القراءة، ومع ذلك فقد بذلت جهدي لتحقيق التوازن بين متطلبات البحث العلمي، ومراعاة حال كثير من قُرَّاءِ الكتاب الذين قد لا يجدون كثيرًا من الوقت للتفرغ لقراءة المباحث الطويلة، أو لا يرغبون في الدخول في تفصيلاتها، والله تعالى ولي التوفيق.

(ربنا آتنا من لدنك رحمة، وهيئ لنا من أمرنا رشدًا)

أربيل - العراق

٣/شعبان/١٤٤٠هـ = ٨/نيسان/٢١٠٩م

** ** **

تمهيد

خطة بناء الكتاب ومعالم المنهج

بالنظر إلى سعة مجال البحث المتعلق بعنوان الكتاب، وتعلقه بعدد من قضايا تاريخ القرآن الكريم، وارتباطه بكثير من موضوعات علوم القرآن، فإن هناك حاجة لتوضيح بعض الأمور المتعلقة بخطة بناء الكتاب للقارئ الكريم، ومنهجي في تناول موضوعاته، حتى لا تأخذه الظنون إلى أبعد مما نريد الحديث عنه، إذ إن منهجي ينحو باتجاه تركيز الحديث حول الأمور التي لها صلة مباشرة بتأكيد أصالة النص القرآني، واعتماد أصول البحث العلمي التي تختصر على القارئ الطريق للوصول إلى الحقيقة، وتختصر على الكاتب الجهود لإيصال الفكرة إلى القارئ، ومن معالم تلك الخطة وذلك المنهج ما يأتي:

أولًا: الحرص على **توثيق المادة العلمية** التي تبني عليها فصول الكتاب ومباحثه، بالقدر الذي يحقق لدى القارئ الثقة بتلك المادة، من غير إطالة في حشد المصادر، أو إسهاب في نقل النصوص، تفاديًا لتضخم الكتاب، وحرصًا على مجيئه بالحجم الذي يَسْهُلُ حمله والقراءة فيه، مع عدم التفريط بمتطلبات أصول البحث العلمي التي تقتضي النص على المصادر، فقد قال القرطبي المفسر، رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وشرطي في هذا الكتاب: إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنفيها، فإنه يقال: من بركة العلم أن يُضَافَ القول إلى قائله، وكثيرًا ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهمًا، لا يَعْرِفُ

مَن أخرجه إلا مَن اطلع على كتب الحديث، فيبقى مَن لا خبرة له بذلك حائرًا، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علم جسيم، فلا يُقْبَلُ منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يُضِيفَهُ إلى من خَرَّجَهُ من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام»[١].

ثانيًا: إن سعة الموضوع تقتضي **التركيز على ذكر ما تمس الحاجة إليه** في الدلالة على وثاقة النص القرآني وأصالته، لأن تَقَصِّيَ كل ما له علاقة بموضوعات الكتاب سوف يزيد صفحاته، وهو ما لا يحتمله القارئ، كما لا يقوى عليه الكاتب، وما دام القليل كافيًا فإن الكثير سوف يكون هَذَرًا، وأسأل الله تعالى التوفيق لكتابة هذا الكتاب بما يُوَفِّي الموضوع حقه، وإن كان أقرب إلى الاختصار منه إلى الإطالة.

ثالثًا: **التركيز على ما له علاقة بتأكيد أصالة النص القرآني**، وعدم الدخول في بحث تفصيلات بعض الموضوعات التي هي من صلب موضوع الكتاب، لأن تلك التفصيلات تزيد من حجم الكتاب، ولا تخدم هدف الكتاب العام، من ذلك مثلًا:

١. في موضوع حديث الأحرف السبعة: عدم بحث موضوع روايات حديث الأحرف السبعة، وما قيل في بيان معناها، والاكتفاء من ذلك بتأكيد صحة الحديث الذي أثبتته المصادر التي درست روايات الحديث، والاكتفاء في موضوع دلالة الأحرف على تأكيد أصالة القراءات القرآنية، وأنها جميعها (صحيحها وشاذها) نتاج تلك الرخصة.

---

(١) تفسير القرطبي، المسمى الجامع لأحكام القرآن ١/٣.

٢ . وفي موضوع الرسم العثماني: الاكتفاء بتأكيد أصالة ذلك الرسم، وأن جميع ظواهر الرسم ثابتة في ما كَتَبَهُ الصحابة ﷺ في المصاحف، من غير حاجة للدخول في بحث اختلاف العلماء في كون الرسم توقيفًا أو اجتهادًا، ومثل ذلك تتبع مذاهب العلماء في تعليل ظواهر الرسم، لأن تعليل ظواهر الرسم من جهود العلماء المتأخرين عن عصر التدوين في زمن الصحابة، ولأن مذاهبهم في التعليل متعددة، وسوف أكتفي بالإشارة إلى أهم معالم تاريخ الكتابة العربية في عصر التنزيل، وما ٱنْبَنَتْ عليه من أصول وتقاليد.

رابعًا: عدم إدراج **الشبهات التي يثيرها بعض الدارسين** -من المستشرقين وغيرهم- حول تاريخ القرآن، مما له تعلق بموضوعات الكتاب، في فصول أو مباحث مستقلة، وعدم وضع عناوين مستقلة لها[١]، وذلك لأن هناك دراسات متخصصة تناولت تلك الشبهات على نحو مفصل، ولأن إثارة تلك الشبهات في الكتاب سوف يشتت نظر القارئ عن رؤية الحقائق الناصعة التي قام عليها

---

(١) أعجبتني كلمة الأستاذ الدكتور أكرم ضياء العمري، وهو يُقَدِّمُ لكتابه القيِّم (السيرة الصحيحة)، التي قرأتها بعد كتابة هذه الفقرة من الكتاب، وأحسب أنها تعبر عن منهجية صحيحة، فقد قال (ص ١٨): «ولا يجد القارئ أي اهتمام بالرد على الشبهات التي أثارتها بعض الدراسات الحديثة في موضوعات السيرة، وخاصة دراسات المستشرقين، سواء كانت نتيجة تعسف في تفسير النصوص والأحداث بسبب الأهواء الدينية والعنصرية، أو بسبب سوء الفهم للغة العربية أو للإسلام وأحكامه ونظمه ومقاصده، وذلك لأن هذا المؤلَّف قَصَدَ إلى رسم معالم السيرة بصورة صحيحة، وهو جانب إيجابي يستحق أن يُفْرَدَ فيه مصنف، ولا يعني ذلك التقليل من أهمية تصحيح الأخطاء، سواء كانت عفوية أم مقصودة، وقد نَهَضَتْ بهذا العبء دراسات أخرى في الموضوع، وإن كنت أعتقد أن الاهتمام بالتاريخ الإسلامي ينبغي أن ينصب أولًا على إعادة البناء قبل تناول الشبهات».

تاريخ القرآن الكريم، من خلال ما ورد في المصادر الإسلامية من حقائق ووثائق اعتمدتْ على شهادات أشخاص عدول عاشوا في ظل الأحداث التي صَنَعَتْ تاريخ القرآن، وانبثقت من خلالها علومه[١].

ولا يمنع ذلك المنهج من أن يكون في الحديث عن موضوعات الكتاب ما يَرُدُّ على بعض تلك الشبهات، بطريقة غير مباشرة، فيكون قارئ الكتاب على بينة من الأمر إذا عرضت له مثل تلك الشبهات، من ذلك مثلًا:

١. إن الوحي اتصال روحي بين المَلَكِ المُرْسَل إلى النبيِّ المبعوث رسولًا

---

(١) من أهم المصادر الإسلامية المعتمدة في هذا البحث القرآن الكريم والسنة النبوية، ولقد امتاز القرآن الكريم بميزة فريدة، هي أنه نُقِلَ إلينا منذ أربعة عشر قرنًا، دون أن يتعرض لأدنى تحريف أو ريب، والمصدر الثاني المدون عن الإسلام ينحصر في أحاديث الرسول ﷺ، التي لم تمض مدة طويلة بعد وفاة الرسول ﷺ حتى بدأ المُحَدِّثُون بتدوينها، وقد وُضِعَتْ طريقة نقدية صالحة لتمييز ما هو صحيح عما ليس كذلك، فَطُبِّقَتْ طريقة النقد التاريخي التي تشمل تحقيق اتصال الرواية، وقيمة الرجال الذين وصل عن طريقهم الحديث، وقد أدى ذلك إلى تصنيف الحديث في ثلاث مجموعات تبعًا لدرجة التثبت التاريخي: الصحيح، والضعيف، والمكذوب.
فهذه هي مصادر الإسلام المدونة، في حالتها الراهنة: الآيات القرآنية الصالحة لأن تستخدم وثيقة تاريخية مطلقة الصحة، والحديث الذي يختلف في درجة الصحة، والذي لا يصح أن يستخدم -على كل حال- في أية دراسة نقدية إلا مع الاحتياطات المستخلصة من الطرق نفسها التي اتبعها العلماء المُحَدِّثون المنزهون عن الكذب أو الغش أو التدليس، كالبخاري ومسلم، وبهذه الاحتياطات يصبح المصدران اللذان يستخدمهما الباحثون في الإسلام، صحيحين على سواء. (ينظر: مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص ١٠٣-١٠٧). هذا إلى جانب كتب السيرة النبوية، وكتب التاريخ الإسلامي، التي وثقت جانبًا من تاريخ القرآن الكريم.

إلى البشر، وليس حالة مرضية، أو نوبة عصبية، كما يزعم بعض المستشرقين، لنفي المصدر الإلهي للقرآن الكريم، فالبيان المفصل لظواهر الوحي المادية والروحية كفيل بإزالة تلك الشبهة.

٢. إن القرآن الكريم كُتِبَ بين يدي النبي ﷺ وبأمره، بيد كَتَبَةِ الوحي، وهناك من الدلائل ما يشير إلى أن الوحي كُتِبَ كُلُّهُ في عصر التنزيل، لكنه كان مفرقًا في الرقاع، ولم يكن جُمِعَ في صحف في زمن النبي ﷺ، وبيان هذه الحقائق التاريخية حول تدوين القرآن الكريم في العصر النبوي يرد شبهات المستشرقين التي يزعمون فيها أن القرآن الكريم لم يُكْتَبْ منه في حياة النبي ﷺ إلا القليل، وأن أكثره كُتِبَ من الذاكرة بعد وفاته ﷺ.

٣. إن بيان تاريخ القراءات القرآنية ينفي شبهة أن تكون تلك القراءات ناتجة عن الرسم المجرد الذي كُتِبَ به القرآن الكريم، وهو ما قال به عدد من المستشرقين، فالقراءات ثابتة قبل الرسم العثماني، فكيف تكون ناتجة عنه.

وأحسب أن بحث هذه الشبهات في الكتاب بشكل مباشر ومفصل، والرد عليها لا يخدم الهدف الذي يسعى إليه، لا سيما أن هناك كتابات متخصصة تناولت كل شبهة منها، وقد أُحِيلُ إلى بعضها في هوامش الكتاب عند الضرورة.

خامسًا: كنتُ قد كتبتُ من قبل في أكثر موضوعات هذا الكتاب، بحوثًا مستقلة، أو فصولًا ومباحث في الكتب التي ألفتها، مثل كتاب (رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية)، وكتاب (محاضرات في علوم القرآن)، وكتاب (أبحاث في العربية الفصحى)، وكتاب (أبحاث في علوم القرآن) وغيرها، ولكني لا أنقل من كتاباتي السابقة إلى هذا الكتاب نقلًا حرفيًا، لأن تلك الكتب والأبحاث

كُتِبَتْ لأغراض خاصة، وفي سياقات معينة، لا تتطابق بالضرورة مع الهدف الذي يسعى إليه هذا الكتاب، ومن ثم فإني سوف **أصوغ مادة هذا الكتاب صياغة جديدة**، وإن كانت مادته قد وردت في كثير من كتاباتي السابقة.

فإذا وجدتَ، أيها القارئ الكريم، تشابهًا ما بين ما يرد في هذا الكتاب وبعض كتاباتي السابقة فإن مرد ذلك إلى تشابه الموضوعات، ولكني سوف أحرص في هذا الكتاب على التركيز على ما يتعلق بتأكيد أصالة القرآن الكريم: وحيًا، ورسمًا، ولغة، وقراءة، من غير حاجة إلى استقصاء تفصيلات كل موضوع، كما أشرت في ما تقدم في النقطة الثالثة.

سادسًا: لم يكن هذا الكتاب هو أول بَحْثٍ يتعلق بموضوعه، فقد سبق لكثير من الباحثين المعاصرين تناول جوانب منه، في كتب أو بحوث، ولكن قد يكون هذا الكتاب هو أول كتاب يهدف إلى الحديث بشكل مباشر عن أصالة النص القرآني من الجوانب الأربعة التي تضمنتها فصول الكتاب، وللدكتور محمد حسن حسن جبل، الأستاذ بكلية القرآن الكريم بجامعة طنطا، رحمه الله، كتاب (وثاقة نقل النص القرآني من رسول الله ﷺ إلى أمته)، تناول فيه الرد على الشبهات التي أثارها المستشرقون حول القراءات القرآنية، وحول تدوين القرآن الكريم، ويتألف الكتاب من بابين، الأول: النقل الشفاهي لنص القرآن من النبي ﷺ إلى أمته، والثاني: وثاقة نقل النص القرآني بالتدوين الخطي، وهناك تداخل في موضوعات كتاب الدكتور جبل مع الفصلين الثاني والرابع من هذا الكتاب، الخاصين بتدوين القرآن، وقراءة القرآن، ويزيد كتابنا عليه بموضوع الفصل الأول، الخاص بمصدر القرآن،

وموضوع الفصل الثالث الخاص بلغة القرآن، وفي بعض التفاصيل في الفصول الأخرى.

سابعًا: تَرَدَّدتُّ في اختيار عنوان الكتاب، بين: (وثاقة النص القرآني)، و(أصالة النص القرآني)[١]، ونظرتُ في الاشتقاق الصرفي للكلمتين، ودلالتهما المعجمية، قبل أن يترجح عندي استعمال كلمة (أصالة) في عنوان الكتاب.

فالوَثاقَةُ: مصدر الفعل اللازم وَثُقَ يَوْثُقُ وَثاقةً، فهو وَثِيقٌ، أي مُحْكَمٌ، فالوثيق بمعنى الشيء المُحْكَم، والثِّقَةُ: مصدر الفعل وَثِقَ به يَثِقُ ثِقَةً، إذا ٱئْتَمَنَهُ، فهو ثِقَةٌ، أي أمين[٢].

والأصلُ: أسفلُ كُلِّ شيءٍ وقاعِدَتُهُ، وأَصُلَ رَأْيُهُ يَأْصُلُ أَصَالَةً ٱسْتَحْكَمَ، ورجلٌ أصيلُ الرأي، أي: مُحْكَمُ الرأي[٣].

والمعنى اللغوي لكلمتي (الوَثاقة) و(الأصالة) يشترك في الدلالة على الإحكام والإتقان، وهما من صفات القرآن الكريم، لكن كلمة (الأصالة) تتميز بالدلالة على أصل الشيء وأساسه، ونحن نبحث في هذا الكتاب عن

---

(١) وجدت مِن المعاصرين من يتحفظ على استعمال كلمة (النص) مضافة إلى القرآن الكريم، ولكن المتقدمين استعملوا الكلمة مضافة إلى القرآن، وإن كان ذلك في سياق مختلف، قال ابن الأثير في كتابه النهاية في غريب الحديث (٥/٦٥): «ومنه قول الفقهاء: نَصُّ القرآن ونَصُّ السنة، أي: ما دل ظاهر لفظهما عليه من الأحكام». (وينظر: ابن منظور: لسان العرب ٧/٩٨)، واستعمل العلماء كثيرًا عبارة (نص القرآن)، و(نصوص القرآن)، واستعملوا، خاصة من المُحْدَثِينَ، عبارة: (النص القرآني).

(٢) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ١٠/٣٧١.

(٣) ينظر: الراغب: مفردات القرآن ص ٧٩، وابن منظور: لسان العرب ١١/١٦.

أصالة النص القرآني، أي ثبوت نصه من لدن تنزيله، وتبليغه، ثم كتابته، وقراءته، وأنه لم يتغير ولم يتبدل، فتتحقق من خلال ذلك الدلالة على أصالة النص القرآني المثبت في المصاحف.

ثامنًا: من الأمور التي كنت أستحضرها في ما أَكْتُبُ، وفي هذا الكتاب أيضًا، الحرص على الإنصاف في الحكم على الآراء والأقوال، بقدر المستطاع، وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨]. وقد قال ابن عبد البر، رَحِمَهُ الله: «مِن بركةِ العلمِ وآدابهِ الإنصافُ فيه، ومَنْ لم يُنْصِفْ لم يَفْهَمْ، ولم يَتَفَهَّمْ»[(١)].

ولا شك في أنَّ القضايا التي يُمْكِنُ أنْ تتعدد فيها الآراء والأقوال، والظواهر التي تحتمل أكثر من تفسير أو تعليل، فإنَّ العدل والإنصاف يقتضي النظر إليها على أنَّ كل قول أو تفسير منها يحتمل أن يكون صحيحًا في نظر القائل به، ولا يعني تضعيف قول أو رده الطعن على قائله، فلا يزال العلماء يرد بعضهم أقوال بعض، من غير أن يكون ذلك سبيلًا للتجريح أو المنقصة منهم.

وسوف أُرَجِّحُ من الأقوال إذا تَعَدَّدَتْ ما أَجِدُهُ أقوى دليلًا، وأكثرَ مناسبة لتاريخ المصحف الشريف، وتوافقًا مع ما تُقَدِّمُهُ موضوعات علوم القرآن الكريم المتعلقة بالنص الشريف، حتى يظهر تاريخ القرآن الكريم واضحًا لا تشوبه الشوائب، ولا تكدره الظنون والشبهات، هدانا الله تعالى وإياكم

---

(١) جامع بيان العلم وفضله ١/٥٣٠.

لأحسن الأقوال، وجَعَلَنَا الله تعالى وإياكم مِمَّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي التوفيق، والهادي إلى سواء السبيل.

** ** **

الفصل الأول

مصدر النص القرآني، أو ظاهرة الوحي

عَرَفَتِ البشرية القرآن الكريم عن طريق واحد، هو شخص الرسول الكريم محمد بن عبد الله ﷺ، في بقعة محددة، هي مكة، شَرَّفَهَا الله تعالى، وفي زمن معين، هو مطلع القرن السابع الميلادي، وكان لظهور القرآن في مكة في ذلك العصر أثره في شخص الرسول ﷺ، وفي حياة الناس في مكة وبلاد الحجاز، والجزيرة العربية وما حولها، ثم في البشرية كلها، منذ ذلك التاريخ إلى زماننا هذا.

ولم يَنْسُبِ الرسولُ الكريم محمد ﷺ القرآن لنفسه، ولكنه أوضح أنه تلقى القرآن من رب العالمين، عن طريق ملك كريم هو جبريل عليه السلام، شأنه في ذلك شأن الأنبياء السابقين الذين ٱبْتَعَثَهُم الله تعالى لهداية البشرية إلى الطريق المستقيم، كما صَرَّحَتْ بذلك آيات القرآن في مواضع كثيرة منه، وقد تلاه على الناس مِن حوله، ودعاهم إلى الإيمان به، وأَمَرَ بعض أصحابه بكتابته، ثم أمرهم بالإكثار من تلاوته وتدبر آياته.

ويُعَدُّ نزول القرآن الكريم من الأحداث العظيمة في التاريخ، لِمَا ترتب عليه من أثر عظيم مستمر في حياة البشرية، ولا شك في أن كثيرًا من الناس في عصرنا، من المؤمنين وغيرهم، يتطلعون إلى معرفة أصل القرآن الكريم،

وكيف تلقاه رسول الله ﷺ، وكيف حَفِظَهُ، وهل وصل إلينا كما تلقاه هو وبَلَّغَهُ لأصحابه، ويتطلب بيان هذه القضايا والإجابة عن الأسئلة المتعلقة بها الحديث عن جملة أمور، منها:

- حياة النبي ﷺ قبل البعثة.
- إرهاصات النبوة.
- البعثة النبوية المباركة.
- مظاهر تلقي القرآن الكريم الخفية والظاهرة.

وسوف أتناول كل مسألة من هذه المسائل في مبحث مستقل، على أمل أن يجد فيها القارئ ما يوضح له أصلَ القرآن الكريم ومَصْدَرَهُ، حتى يتبين له أن القرآن الكريم قد حَفَّتْهُ العناية الإلهية تنزيلًا وحفظًا، وتهيأتْ له أسباب الحفظ من التغيير والتبديل من لدن تنزيله، ثم تبليغه وتدوينه، وصدق الله العظيم القائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

** ** **

المبحث الأول

حياة النبي ﷺ قبل البعثة

عاش رسول الله محمد بن عبد الله بن عبد المطلب في مكة، في بلاد الحجاز، ومرت أربعون سنة من عمره قبل أن ينزل عليه القرآن، ومن المفيد التعرف على أهم معالم حياته قبل البعثة، لنتبين هل كان يخطط في تلك السنوات لمستقبل حياته، ويَعُدُّ العدة ويستعد لإعلان نبوته، وهل كانت هناك روافد أمدته بمعرفةٍ ما تتعلق بالنبوة، أو أن النبوة جاءته فجأة من غير تخطيط مسبق لها منه.

كان مولده الشريف في عام الفيل، الذي يُقَدِّرُ المؤرخون أنه وقع في سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عيسى عليه السلام، في صبيحة يوم الاثنين من شهر ربيع الأول، لاثنتي عشرة ليلة خَلَتْ منه، في أرجح الأقوال[١].

وُلِدَ رسولُ الله ﷺ لأسرة عريقة من أسر مكة، فأبوه عبد الله بن عبد المطلب ابن هاشم بن عبد مناف بن قصي، من أشهر بطون قبيلة قريش، وأمه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهْرَةَ بن كلاب، وبنو زُهْرَةَ عشيرة من قريش، وتوفي أبوه عبد الله بن عبد المطلب قبل ولادته، فقد أرسله أبوه عبد المطلب إلى

---

(١) ينظر: ابن هشام السيرة النبوية ص ١٥٣، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٠٠، وأكرم ضياء العمري: السيرة الصحيحة ١/٩٦-٩٨، والمباركفوري: الرحيق المختوم ص ٤٨.

يثرب لِيَمْتَارَ لهم تَمْرًا، فمات بها[١]، ونشأ في كفالة جده عبد المطلب.

وبين مولد رسول الله ﷺ ومبعثه أربعون سنة، وما وصلنا من أخبار حول حياته في هذه السنين قليل، وهو يشير إلى أنه عاش بين قومه حياة طبيعية هادئة لم يُعَكِّرْهَا شيء، ولم يُعْرَفْ خلالها أنه دعا إلى شيء، وسوف أذكر أهم الأحداث التي رواها المؤرخون مما يتعلق بسيرته قبل البعثة، بشكل مختصر[٢]:

١. **رضاعته في بني سعد**، في بادية الحجاز، على عادة أهل مكة في إرسال أطفالهم إلى البادية، لِتَصِحَّ أبدانُهُم، وتَفْصُحَ ألسنتهم، وكانت مرضعته حليمة السعدية.

٢. **حادثة شق صدره الشريف**، وهو لا يزال عند حليمة السعدية، وكان قد بلغ من العمر أربع سنوات، وأَدَّتْ هذه الحادثة أنْ أعادتْ حليمة الصبي إلى أمه.

٣. **وفاة أمه آمنة بنت وهب**، بعد أن زارت قبر زوجها في المدينة، وكان معها عبد المطلب، وابنها محمد، وخادمتها أم أيمن، وأدركها الأجل عند عودتها، في أول الطريق من المدينة إلى مكة، في منطقة الأبواء[٣]، وكان عمر

---

(١) ينظر: ابن هشام السيرة النبوية ص ١٣٦-١٥٣، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/٨١-١٠٠، وأكرم ضياء العمري: السيرة الصحيحة ١/٩٢-٩٦، والمباركفوري: الرحيق المختوم ص ٤٢-٤٧.

(٢) ينظر: ابن هشام السيرة النبوية ص ١٥٣-١٨٦، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٠٠-١٤٨، وأكرم ضياء العمري: السيرة الصحيحة ١/٩٦-١١٤، والمباركفوري: الرحيق المختوم ص ٤٨-٥٥.

(٣) ينظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/٧٩.

الصبي ست سنوات، فعاش بعدها عند جده عبد المطلب.

٤. **مع عمه أبي طالب**: لَمَّا أدركت عبد المطلب الوفاة، وعمر رسول الله ثماني سنوات، أوصى به إلى عمه أبي طالب بن عبد المطلب، فَضَمَّهُ إلى ولده، وخَصَّهُ برعايته، ولمَّا بلغ عمر رسول الله اثنتي عشرة سنة خرج مع عمه في تجارة إلى الشام، حتى وصل بُصْرَى، وورد في بعض الروايات أن الراهب بَحِيرَى حذَّر عمه أبا طالب من مكر اليهود والرُّوم بابن أخيه، بعد أَنْ رأى فيه بعض علامات النبوة، فرجع به إلى مكة من هناك[1].

٥. **حضوره حَرْبَ الفِجَار**: في السنة الخامسة عشرة من عمر النبي ﷺ وقعت حرب الفِجَار بين قريش ومَن معهم من كنانة، وبين قيس عيلان، ورُوِيَ أن النبي ﷺ حضر تلك الحرب، وكان يُجَهِّزُ النَّبْلَ لعمومته، ورَجَحَتِ الكفة لقريش وحلفائها في تلك الحرب.

٦. **حضوره حِلْفَ الفضول**: تَمَّ على أثر حرب الفِجَار عَقْدُ حلف الفضول في مكة بين قبائل من قريش، فقد اجتمعوا في دار عبد الله بن جُدْعَان، وتعاقدوا على نصرة المظلوم، وكان رسول الله ﷺ يَذْكُرُ حضوره ذلك الحِلْفَ، ويقول:

---

(١) حاول بعض المستشرقين أن يبني على هذه القصة تصورات غريبة، ويطلق اتهامات فيها مجازفة علمية كبيرة، فقد زعم أن النبي ﷺ تلقى علم التوراة من بحيرى في ذلك اللقاء، محاولين رد أصول الإسلام إلى التوراة، وكيف يعقل أن يتلقى النبي وهو في سن الثانية عشرة، أو أقل من ذلك، علم التوراة في ذلك اللقاء السريع، وهو أُمِّيٌّ لا يحسن القراءة والكتابة، وأين أثر تعاليم التوراة في حياة الرسول ﷺ، وما بين لقائه ببحيرى وبعثته ثمانية وعشرون عامًا! (ينظر: أبو الحسن الندوي: السيرة النبوية ص ١٠٥-١٠٨، وأكرم ضياء العمري: السيرة الصحيحة ١/١١٠).

«لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدْعَان حِلْفًا ما أُحِبُّ أَنَّ لي به حُمُرَ النَّعَمِ، ولو أُدْعَى به في الإسلام لَأَجَبْتُ»[١].

٧. **رَعْيُهُ الغَنَم بمكة**: كان أبو طالب ذا عيال، ولم يكن موسرًا، فكان رسول الله ﷺ يرعى الغنم في شبابه لأهل مكة، على قراريط يأخذها منهم، أي دراهم.

٨. **اشتغاله بالتجارة**: لَمَّا بلغ رسول الله ﷺ الخامسة والعشرين تَطَلَّعَ إلى العمل، لمساعدة عمه أبي طالب في مواجهة أعباء الحياة، واشتغل بالتجارة في أموال السيدة خديجة بنت خويلد، فقد أرسلتْ إليه بعد أنْ سمعتْ بأمانته وصدقه، ليخرج بأموالها إلى الشام، مع غلامها ميسرة، وبارك الله تعالى في تلك التجارة.

٩. **زواجه من خديجة بنت خويلد**: عَظُمَ قَدْرُ النبي ﷺ في نفس خديجة، بعدما رأتْ من أمانته وصدقه، وما رأتْ من البركة في مالها بسبب تجارته، فوافقتْ على الزواج منه، حين تقدَّم لخطبتها، فكانت نعم الزوجة له، وكانت نعم العون له بعد بعثته، ورُزِقَ رسول الله بجميع أبنائه منها، سوى إبراهيم، وتوفي أبناؤه الذكور منها صغارًا قبل بعثته، وهم: القاسم، وعبد الله، وعاشت بناته وأدركن الإسلام، وهن: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، رضي الله عنهن.

١٠. **بناءُ الكعبة، ورَفْعُ الحجر الأسود**: في السنة الخامسة والثلاثين من عمر النبي ﷺ تعرضتِ الكعبة المشرفة لِسَيْلٍ أَدَّى إلى تَصَدُّع جدرانها،

---

(١) ينظر: البيهقي: السنن الكبرى ٦/٥٩٦، ومعرفة السنن والآثار (له) ٩/٣٠٤.

وأوشكت على الانهيار، فاضطرت قريش إلى تجديد بنائها، وشارك النبي ﷺ في أعمال البناء، واختلفت قبائل قريش في من يضع الحجر الأسود في موضعه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، واختصموا في ذلك، حتى رَضُوا أن يحكم بينهم أول داخل من باب المسجد، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين، رَضِينا، هذا محمد، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر، قال ﷺ: هَلُمَّ إليَّ ثوبًا، فَأُتِيَ به، فأخذ الحجر فوضعه فيه بيده، ثم قال: لِتَأْخُذْ كُلُّ قبيلة بناحية من الثوب، ثم ٱرْفَعُوهُ جميعًا، ففعلوا: حتى إذا بَلَغُوا به موضعه، وَضَعَهُ هو بيده، ثم بَنَى عليه.

هذه عشرة أحداث تتعلق بحياة رسول الله ﷺ قبل البعثة، تدل على أنه عاش في مكة عيشة أهلها، وكانت تربطه بهم وشيجة القرابة والنسب، والصحبة والجوار، وكان موضع تقدير واحترام من جميع قبائلها، ولم ينازعهم هو في شيء من أمورهم، لكنه ٱجتنب معايب الجاهلية التي كانت تغلب على أهل مكة، وسُكَّان الجزيرة العربية، قبل الإسلام، من الشرك وعبادة الأصنام، وأكل الربا، وشرب الخمور، واللهو والفجور، فقد اعتزل جميع هذه النقائص.

وإذا كنا لا نملك تفاصيل أكثر حول أعماله اليومية قبل البعثة، فمرد ذلك بدون شك، إلى أنه في ما عدا الصفة البارزة لعظيم أخلاقه، لا نجد في تلك الفترة من الزمن أمرًا منفصلًا عن مألوف وَسَطِهِ يمكن التحدث عنه، فسكوت سائر رجال السيرة، عن التفصيلات الإضافية في هذا الخصوص، نقطةٌ تُسَجَّلُ لصالح التراث الإسلامي الذي تَحَلَّى دائمًا بأمانة تاريخية متشددة

إلى أقصى حد، حين عَزَفَ عن كل توسيع أو تقليص، للمعطيات الثابتة التي يجدها في متناوله، سواء كانت هذه المعطيات لصالح قضيته أو في غير صالحها[١].

وقد روى ابن سعد في كتابه الطبقات الكبرى، عن داودَ بنِ الحُصَيْنِ المدني[٢]، أنه قال: «شَبَّ رسول الله ﷺ مع أبي طالب، يَكْلَؤُهُ الله ويحفظه، ويحوطه من أمور الجاهلية ومعايبها، لِمَا يريد به من كرامته، وهو على دين قومه، حتى بلغ أن كان رجلًا أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خُلُقًا، وأكرمهم مخالطة، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حِلْمًا وأمانة، وأصدقهم حديثًا، وأبعدهم من الفحش والأذى، وما رُئِيَ مُلاحِيًا ولا مُمَارِيًا أحدًا، حتى سَمَّاهُ قومُهُ الأمين، لِمَا جَمَعَ الله له من الأمور الصالحة فيه، فلقد كان الغالب عليه بمكة الأمين»[٣].

إن الأحداث والوقائع التي عاشها رسول الله ﷺ قبل البعثة قد يكون فيها شيء من إرهاصات النبوة، ولكنها لم تنعكس على حياته ﷺ، ولا على موقف قومه منه، ولا تتعلق بشيء من أمر الدين الجديد الذي دعا إليه بعد

---

(١) ينظر: مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص ١٥ (من مقدمة الدكتور محمد عبد الله دراز للكتاب).

(٢) داود بن الحُصَيْن، أبو سليمان المدني، مولى عَمْرو بن عثمان بن عفان، كان ثقة، فصيحًا، عالمًا بالسيرة، روى عنه مالك وغيره، وتوفي سنة ١٣٥هـ، عن اثنتين وسبعين سنة. (ينظر: ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ٣/٤٠٨-٤٠٩، والمزي: تهذيب الكمال ٨/٣٧٩-٣٨٢).

(٣) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٢١.

بلوغه الأربعين من عمره، وهو لم يَسْعَ إلى معرفة ما عند أهل الديانات السابقة، ولم يَدْعُ إلى شيء من أمر الدين الجديد قبل أنْ يُبْعَثَ في الأربعين من عمره ﷺ، وهذه الحقيقة تحملنا على البحث عن مصدر القرآن في الأحداث التي عاشها رسول الله بعد الأربعين من عمره، فليس ثمة شيء من ذلك قبل البعثة!

** ** **

المبحث الثاني

إرهاصات النبوة المباركة

إنَّ التحول الذي حصل في حياة رسول الله ﷺ، وٱنتهى إلى نزول القرآن الكريم، وظهور الدين الجديد، بدأت تظهر معالمه في الأربعين من عمر النبي ﷺ، وكانت ثمة أمور ٱستجدت في حياته، ليست مما ٱعتاده الناس في حياتهم، سَمَّاها المؤرخون إرهاصات النبوة[1]، أي الأحداث المُبَشِّرَة بقرب بعثته ﷺ.

وذكر المؤرخون عدداً من الظواهر والأحداث التي واكبت ميلاد رسول الله ﷺ، أو وقعت في مراحل حياته اللاحقة، عَدُّوها ضمن تلك الإرهاصات، وهي متفاوتة في مقدار الثقة بها، وصحة أسانيدها، ولستُ بصدد تتبع جميع تلك الإرهاصات في هذا المبحث، فكتب السيرة النبوية هي المكان المناسب لعرضها ومناقشتها[2]، وسوف أكتفي هنا بتتبع ما يدل على أن ثمة تحولاً حصل في حياة رسول الله ﷺ، عندما بلغ الأربعين من عمره، إعداداً له لحمل

---

(١) الرَّهْصُ: تأسيس البنيان، والعَصْرُ الشديد أيضًا، ورَهَصَهُ الحَجَرُ، وأَرْهَصَ اللهُ فلانًا للخير: جعله معدنًا للخير، والإرهاص: الإثبات، يقال: أَرْهَصَ الشيءَ، إذا أثبته وأسسه، وهو مَجَاز، ومنه إرهاص النبوة. (ينظر: ابن منظور: لسان العرب ٤٣/٧-٤٤، والزَّبيدي: تاج العروس ٦٠٨/١٧). والإرهاص: ما يتقدم النبوة ودعوى الرسالة، مما يشبه المعجزة. (ينظر: الخفاجي: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٣٩٧/٨).

(٢) أفرد بعض المؤلفين تلك الإرهاصات بكتاب مستقل، مثل كتاب (إرهاصات نبوة خاتم المرسلين محمد ﷺ)، تأليف محمد علي قطب، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

أعباء الرسالة الجديدة، ويتلخص في أربعة أحداث مهمة، هي:

١. **رؤية الضوء، وسماع الصوت:** أخرج ابن سعد في كتابه الطبقات الكبرى، عن عفان بن مسلم، قال: أخبرنا حماد بن سلمة، عن هشام بن عروة، عن أبيه، والإمام أحمد بسنده عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «يا خديجة، إني أرى ضوءًا وأسمع صوتًا، لقد خشيت أن أكون كاهنًا، فقالت: إن الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله، إنك تَصْدُقُ الحديث، وتُؤَدِّي الأمانة، وتَصِلُ الرَّحِمَ»(١).

ولا يخفى على القارئ الكريم أن رسول الله ﷺ قد رأى ضوءًا غير معهود له، وسمع صوتًا لم يعتد سماعه من قبل، وهو يجهل مصدر ذلك الضوء وذلك الصوت، وكان ذلك في مكة قبل أن يبعث، فأقلقه ما رأى وما سمع، وأباح بذلك القلق إلى زوجته خديجة، وحاولت طمأنته، لكن ذلك لم يكن كافيًا، بعد أن وجد نفسه تستجيب لنداء خفي في داخله للعزلة والابتعاد عن الناس!

٢. **سلامُ الحَجَرِ عليه:** أخرج مسلم في صحيحه، عن جابر بن سمرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لَأَعْرِفُ حَجَرًا بمكة كان يُسَلِّمُ عَلَيَّ، قبلَ أنْ أُبْعَثَ، إنِّي لَأَعْرِفُهُ الآن»(٢).

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٩٥، ومسند الإمام أحمد ٥/٤٤ (رقم الحديث ٢٨٤٥).

(٢) صحيح مسلم ٤/١٧٨٢، رقم الحديث (٢٢٧٧)، وأخرجه أيضًا: الإمام أحمد في مسنده (٣٤/٤١٩، و٣٤/٤٥٥)، والطبراني في المعجم الكبير (٢/٢٢٠)، والأوسط (٢/٢٩١)، والصغير (١/١١٥)، وفي رواية للطبراني في الكبير (٢/٢٣١): «... يسلم عَلَيَّ ليالي بُعِثْتُ»، (وينظر: المقريزي: إمتاع الأسماع ٢/٣٩٠). =

قال السُّهَيْلِيُّ: «وهذا التسليمُ الأظهرُ فيه أن يكون حقيقة، وأن يكون الله أنطقه إنطاقًا، كما خَلَقَ الحنين في الجِذْعِ، ولكن ليس من شرط الكلام الذي هو صوتٌ وحرفٌ الحياة والعلم والإرادة، لأنه صوت كسائر الأصوات... والله أعلم أيَّ ذلك كان، أكان كلامًا مقرونًا بحياة وعلم، فيكون الحَجَرُ به مؤمنًا، أو كان صوتًا مجردًا غير مقترن بحياة، وفي كلا الوجهين هو عَلَمٌ من أعلام النبوة»[١].

٣. **الرؤيا الصادقة**: أخرج البخاري ومسلم والترمذي وغيرهم، عن عائشة رضي الله عنها، أنها قالت: «كان أَوَّلُ ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي: الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يَرَى رؤيا إلا جاءت مِثْلَ فَلَقِ الصبح، فَمَكَثَ على ذلك ما شاء الله أَنْ يَمْكُثَ، ثم حُبِّبَ إليه الخلوة...»[٢].

= وقال السهيلي في الروض الأنف (٢/٢٥٤): «وفي بعض المسندات زيادة: أن هذا الحجر الذي كان يسلم عليه هو الحجر الأسود». وقال ابن الضياء في تاريخ مكة المشرفة (ص ١٨٩): «قال المحب الطبري: والظاهر أنه غيره، فإن شأن الحجر الأسود عظيم، ولو كان إياه لَذُكِرَ ولَمَا أَنْكَرَهُ». وقال ابن الضياء أيضًا (ص ١٨٧-١٨٨): «ومنها: دار أبي بكر الصديق بزقاق الحجر، ويقال له: زقاق المرفق أيضًا، وهذه الدار معروفة مشهورة، وعلى بابها حجر مكتوب فيه: إنها دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وإنها عُمِّرَتْ بأمر الأمير الكبير نور الدين عمر بن علي بن رسول الملك المسعودي في سنة ثلاث وعشرين وستمائة، ويقابل هذه الدار حجر في جدار يقال: إنه الذي كَلَّمَ النبي ﷺ». وقال ملا عَلِيّ القاري في شرح الشفا (١/١٥٦): «قيل: هو الحجر الأسود، وقيل: الحجر المذكور في جدار زقاق الحجر».

(١) الروض الأنف ٢/٢٥٤.

(٢) صحيح البخاري ١/٧، و٦/١٧٣، و٩/٢٩، (رقم الحديث ٣، و٤٩٥٣، و٦٩٨٢)، وصحيح مسلم ١/١٣٩، (رقم الحديث ١٦٠)، وسنن الترمذي ٦/٣٠ (رقم الحديث ٣٦٣٢)، (وينظر: سيرة ابن هشام ص ٢١٦، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٩٤، ومسند الإمام أحمد ٤٣/١١٢).

ويبدو أن الرؤيا الصادقة لم تكن في معزل عما استجد في حياة رسول الله ﷺ من رؤية الضوء، وسماع الصوت، وسلام الحجر، قال القاضي عياض في شرح الحديث: «وقوله: (أول ما بُدِئَ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة): في هذا حكمة من الله تعالى، وتدريج لنبيه ﷺ لِمَا أراده الله - جَلَّ ٱسمه - به، لئلا يَفْجَأَهُ المَلَكُ، ويَأْتِيَهُ صريحُ النبوة بَغْتَةً فلا تحتملها قُوَى البشرية، فبدأ أمره بأوائل خصال النبوَّة وتباشير الكرامة، من صدق الرؤيا، وما جاء في الحديث الآخر من رؤية الضَّوء، وسَماع الصوت، وسلام الحجر والشجر عليه بالنبوة، حتى ٱستشعر عظيم ما يراد به، وٱستعَدَّ لِمَا ينتظره، فلم يأتهِ المَلَكُ إلا لأمر عنده مقدِّماتُهُ وبشاراتُهُ»[1].

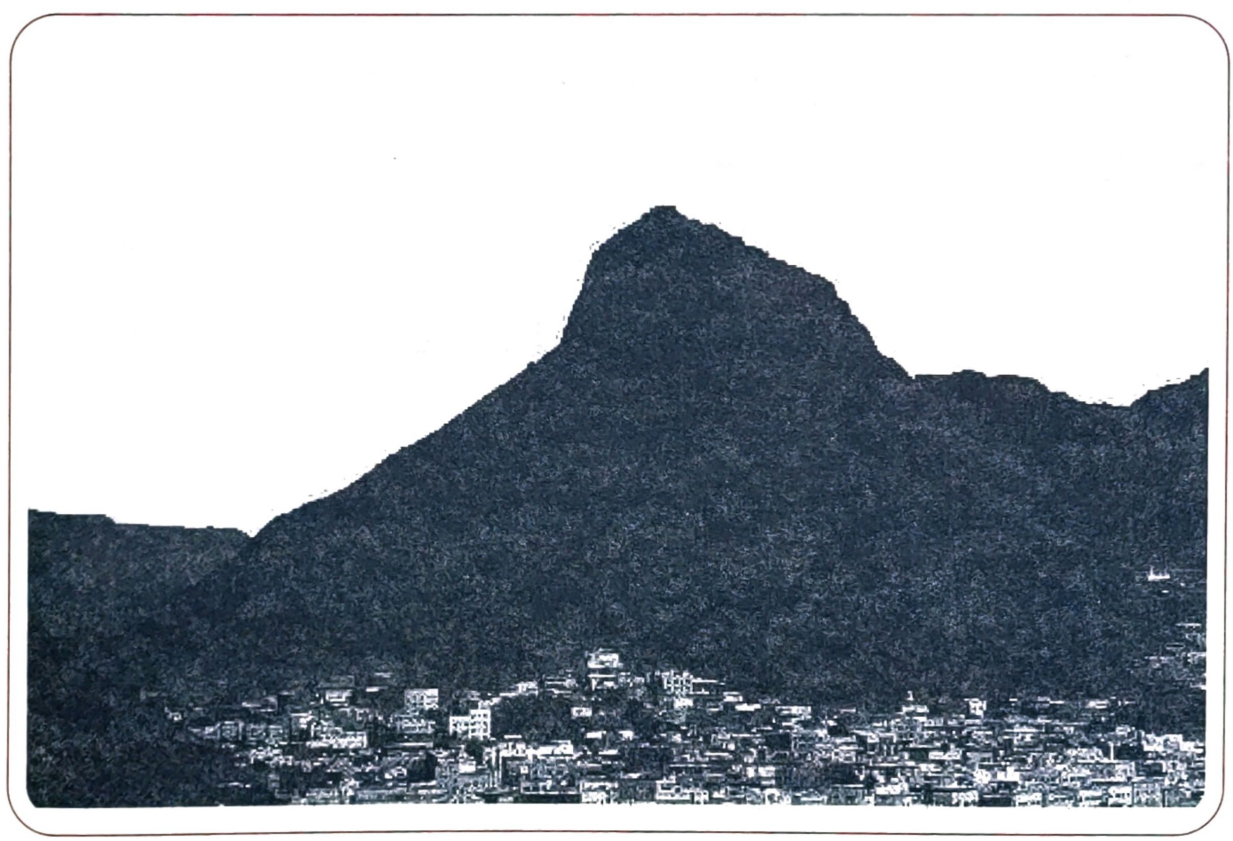
٤. **حُبُّ الخَلْوَةِ والصعودُ إلى جَبَلِ حِرَاء**: جاء في حديث عائشة رضي الله عنها، في الحديث السابق بعد ذكر الرؤيا الصادقة: «ثم حُبِّبَ إليه الخَلاءُ، فكان يَخْلُو بغارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فيه - والتَّحَنُّثُ: التَّعَبُّدُ - اللياليَ ذواتِ العَدَدِ، قبل أنْ يَرْجِعَ إلى أهلهَ ويَتَزَوَّدَ لذلك، ثم يَرْجِعُ إلى خديجةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حتى فَجِئَهُ الحَقُّ، وهو في غار حِرَاء، فجاءَهُ المَلَكُ».

وفي الحديث ثلاثة أمور، الأول: الإشارة إلى تحبيب الخلوة إلى نفس النبي ﷺ، والثاني: أن النبي ﷺ لم يجد في البيت المكان المناسب لتلك الخلوة، لِمَا فيه من مشاغل الحياة وحركة أهل البيت من الأطفال وغيرهم، واختار غار حِرَاء لذلك، والثالث: بقاؤه الليالي ذوات العدد في غار حِراء، يأخذ زاده معه، وإذا نَفِدَ الزاد عاد إلى البيت وتزود من جديد، وكانت تلك الخلوة فرصة للتعبد والتفكر.

---

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم ١/٤٧٩.

وحِرَاءٌ[١]: بالكسر، والتخفيف، والمَدِّ: جَبَلٌ من جبال مكة على ثلاثة أميال، وهو معروف[٢]، يقع في الشمال الشرقي منها، وكان بينه وبين دور مكة جبال ووديان خالية، تمتد لبضعة كيلو مترات، وقد اتصل العمران في مكة الآن حتى بلغ أسفل الجبل، ويقضي الصاعد إلى أعلى الجبل نصف ساعة ليبلغ أعلاه[٣]، وهذه صورة حديثة له:



(١) قال ابن منظور في لسان العرب (١٤/١٧٤): « وحِرَاءٌ، بالكسر والمد: جبل بمكة معروف، يُذَكَّرُ ويُؤَنَّثُ، قال سيبويه: منهم مَن يصرفه، ومنهم مَن لا يصرفه، يَجْعَلُهُ اسمًا للبقعة».
قال سيبويه في الكتاب (٣/ ٢٤٤): « وأمَّا قولهم: قُبَاء وحِرَاء، فقد اختلفت العرب فيهما، فمنهم مَن يُذَكِّرُ ويَصْرِفُ، وذلك أنهَّم جعلوهما اسمين لمكانين، كما جعلوا واسطًا بلدًا أو مكانًا، ومنهم مَن أَنَّثَ ولم يَصْرِفْ، وجعلهما اسمين لبقعتين من الأرض».

(٢) ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/٢٣٣.

(٣) ينظر: أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/١٢٣.

ولم تكن الرحلة من جوار الحرم إلى غار حِراء في ذلك الوقت بالأمر السهل، فليس ثَمَّةَ طُرُقٌ مُعَبَّدَةٌ تُوصِلُ إليه كما نجد اليوم، بل كانت الجبال والوديان والحجارة والصخور تعترض طريق السائر من جوار الحرم إلى جبل حِراء، ثم إن الصعود إلى قمة الجبل تحتاج إلى مجهود كبير، خاصة لمن يحمل معه متاعه وزاده، ولم يكن هناك ما يؤنس الجالس في قمة ذلك الجبل إلا النظر إلى الكعبة المشرفة من بعيد في النهار، وإلا كواكب السماء في الليالي المظلمة، ولم تكن هذه الرحلة مما اعتاده أهل مكة على ما يبدو، لكن ثمة شيء دَفَعَ رسولَ الله ﷺ لتحمل أعبائها، كما سنقف على ذلك في الصفحات الآتية، إن شاء الله.

والحكمة في تخصيص غار حراء بالخلوة فيه كما قال ابن حجر العسقلاني، أنَّ المقيم فيه كان يمكنه رؤية الكعبة المشرفة، فيجتمع لمن يخلو فيه ثلاث عبادات: الخلوة، والتعبد، والنظر إلى البيت العتيق[1].

ولا يخفى على المتأمل دلالة هذه الأحداث التي استجدت في حياة رسول الله ﷺ، بعد أن بلغ الأربعين، ومنها الخلوة في غار حراء، فقد كان لها أثرها العظيم في نفس النبي ﷺ، فكانت تمهيداً للخطوة الأخيرة باتجاه النبوة الكاملة، وهي نزول القرآن الكريم عليه.

قال القاضي عياض: «وخُلُوُّهُ ﷺ بغار حراء وتَحَنُّثُهُ فيه أَوَّلُ مبادئ بشارات نبوته، وذلك أن تحبيب الخلوة له إلهامٌ من الله، لِمَا أراد الله به خلوةً

(١) ينظر: ابن حجر: فتح الباري ١٢/٣٥٥.

بنفسه، وتفرُّغَهُ للقاء رُسُلِ ربه، وسماع وحيه، وقطعه العلائق الشاغلة عن ذلك كما كان، وفيه تنبيه على فضل الخلوة والعزلة، وثمرة التفرغ لذكر الله، فإن ذلك يُرِيحُ السِّرَّ من الشغل بغير الله، ويُقَلِّلُ الهَمَّ بأمور الدنيا، ويُخْلِي القلب عن التعلق والركون لأهلها، فيصفو، وتنفجر ينابيعه بالحكمة، وتشرق جوانبه بالحقائق والمعرفة، ويفيض عليه من نفحات فضل الله وأنوار رحمته، ما قُدِّرَ له»[١].

حدثت جميع إرهاصات النبوة التي تقدَّم الحديث عنها في الأربعين من عمر النبي ﷺ، أي في العام الذي بُعِثَ فيه، ولم تكن بمعزل عن المرحلة الجديدة من حياته التي تتوجت بنزول جبريل بالقرآن عليه[٢].

** ** **

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم ١/٤٨٢.

(٢) ينظر: مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص ١٤. (من مقدمة الدكتور محمد عبد الله دراز للكتاب).

المبحث الثالث

البعثة النبوية المباركة، وبدء نزول القرآن الكريم

تتابعت الأحداث العجيبة على رسول الله ﷺ في السنة الأربعين من عمره، وانتهى به الحال إلى أنْ يَخْلُوَ في غراء حِرَاءٍ، لكن تلك الخلوة لم تدم طويلًا فقد وَقَعَ له ما قَطَعَ عليه خلوته، ونقله إلى حال جديدة، هي النبوة المقترنة بحمل أعباء الرسالة، وبدء نزول القرآن الكريم عليه، وسوف أتتبع أحداث هذه النقلة في حياة رسول الله ﷺ من خلال ثلاثة مطالب، الأول: لقاؤه الأول بجبريل عليه السلام، والثاني: انقطاع الوحي ثم عودته، والثالث: حفظه القرآن.

المطلب الأول: لقاء النبي ﷺ الأول بجبريل عليه السلام وبدء نزول القرآن

جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم، عن السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهي تحكي قصة بدء الوحي، ونقلنا أوله في المبحث السابق[1]: «حتى فَجِئَهُ الحَقُّ وهو في غار حِرَاء، فَجَاءَهُ المَلَكُ، فقال: اقْرَأْ، قال: ما أنا بقارئ، قال: فأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حتى بَلَغَ مني الجُهْدَ، ثم أرسلني،

---

(١) صحيح البخاري ١/٧، و٦/١٧٣، و٩/٢٩، (رقم الحديث ٣، و٤٩٥٣، و٦٩٨٢)، وصحيح مسلم ١/١٣٩، (رقم الحديث ١٦٠)، وسنن الترمذي ٦/٣٠ (رقم الحديث ٣٦٣٢)، (وينظر: سيرة ابن هشام ص ٢١٦، وابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٩٤، ومسند الإمام أحمد ٤٣/١١٢).

فقال: ٱقْرَأْ، قال: قلتُ: ما أنا بقارئ، قال: فأخذني فَغَطَّنِي الثانية حتى بَلَغَ مني الجُهْدَ، ثم أرسلني، فقال: ٱقْرَأْ، فقلتُ: ما أنا بقارئ، فأخذني فَغَطَّنِي الثالثة حتى بَلَغَ مني الجُهْدَ، ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق].

فَرَجَعَ بها رسول الله ﷺ يَرْجُفُ فؤاده، حتى دخل على خديجة، فقال: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَزَمَّلُوهُ حتى ذَهَبَ عنه الرَّوْعُ، ثم قال لخديجة: أَيْ خديجةُ، ما لي! وأخبرها الخَبَرَ، قال: لقد خَشِيتُ على نفسي، قالتْ له خديجة: كَلَّا أَبْشِرْ، فواللهِ لا يُخْزِيكَ الله أبدًا، والله إنك لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتَصْدُقُ الحديثَ، وتَحْمِلُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المعدومَ، وتَقْرِي الضيفَ، وتُعِينُ على نوائب الحق، فانطلقتْ به خديجةُ حتى أَتَتْ به وَرَقَةَ بنَ نوفل بن أسد بن عبد العُزَّى، وهو ابن عَمِّ خديجةَ أخي أبيها، وكان ٱمْرَأً تَنَصَّرَ في الجاهلية، وكان يَكْتُبُ الكِتَابَ العبراني، ويَكْتُبُ من الإنجيل بالعبرية[1] ما شاء الله أنْ يَكْتُبَ، وكان شيخًا كبيرًا قد عَمِيَ، فقالتْ له خديجةُ: أي عَمِّ، ٱسْمَعْ من ابن أخيك، قال ورقة ابن نوفل: يا ٱبن أخي، ماذا تَرَى؟ فأخبره رسولُ الله ﷺ خَبَرَ ما رآه، فقال له ورقةُ: هذا الناموسُ الذي أُنْزِلَ على موسى ﷺ، يا ليتني فيها جَذَعًا، يا ليتني أكون حَيًّا حين يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، قال رسول الله ﷺ: أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قال

---

(١) ورد في بعض روايات الحديث: (وكان يكتب الكتاب العربي... ويكتب من الإنجيل بالعربية)، وقد لا يتيسر لي الآن التحقق من الرواية الراجحة، لكن المؤكد أن ورقة بن نوفل كان على اطلاع على أخبار الأنبياء السابقين، من خلال ما ورد في التوارة أو الإنجيل.

ورقة: نَعَمْ، لم يأتِ رجلٌ قَطُّ بمِثْلِ ما جِئْتَ به إلا عُودِيَ، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا، ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ».

ويتضمن هذا الجزء من حديث بدء الوحي نقاطًا مهمة جدًا تتعلق بتاريخ القرآن العظيم، وإعلان بدء النبوة، وانطلاق الرسالة الإسلامية إلى البشرية، وهو أول لقاء مباشر بين النبي ﷺ ورسول الله إليه، ويمكن أن أُلَخِّصَ أهم ما ورد في هذا النص بالنقاط الآتية:

١. لم يكن رسول الله ﷺ يتوقع أن يحدث ما حدث، وهو في غار حراء، فقد فَجِئَهُ الحق حين جاءه الملك، ولا يخفى أنَّ ما كان قد رآه وسمعه من قبل تمهيد لهذا اللقاء التاريخي بينه وبين جبريل.

٢. كان أثر ذلك اللقاء في نفس رسول الله ﷺ عميقًا، ومخيفًا، فاضطر لقطع خلوته، ورجع إلى داره وهو يَرْجُفُ فؤاده، وأَوَى إلى فراشٍ، وطَلَبَ من أهله أن يُدَثِّرُوهُ بدِثَارٍ، وحَدَّثَ خديجةَ بما رأى.

٣. كان موقف خديجة مما سمعت من رسول الله موقفًا حكيمًا، فقررت استشارة رجل له معرفة بأمر النبوات والديانات السابقة وأخبار الأنبياء، وهو ابن عمها ورقة بن نوفل.

٤. كانت بشارة ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ ضوءًا في أول طريق النبوة الجديد، فإذا كان الملك الكريم لم يصرح لرسول الله في هذا اللقاء بأنه نبي، فإن بشارة ورقة قد أفصحت له عن ذلك، وجعلته يتطلع إلى عالم الملكوت.

٥. كانت وفاة ورقة بن نوفل المفاجئة، بعد ذلك اللقاء، وفتور الوحي

وانقطاعه، سببًا لقلق عميق في نفس رسول الله ﷺ، فبعد أن انكشف له جانب من عالم الغيب، انسدل الستار، وانقطع الوحي، وتوفي ورقة الذي كان يمكن أن يُسَلِّيَهُ بأحاديثه عن قصص الأنبياء السابقين، ولكن ذلك لم يكن مصادفة، وإنما كان جزءًا من الإعداد لأعباء النبوة.

٦. كانت الآيات الخمس الأولى من سورة العلق أَوَّلَ آيات نزلت من القرآن الكريم على رسول الله ﷺ.

٧. قال ابن سعد في الطبقات الكبرى: «نَزَلَ المَلَكُ على رسول الله ﷺ بِحِرَاء يوم الاثنين، لسبع عشرة خَلَتْ من شهر رمضان، ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة، وجبريل الذي كان ينزل عليه بالوحي»[1].

المطلب الثاني: انقطاع الوحي مدة من الزمن، ثم عودته

جاء في آخر الحديث الذي نقلناه عن بَدْءِ الوحي: «ثم لم يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوحي، حتى حَزِنَ النبي ﷺ». وتحدثت كتب الحديث والسيرة والتاريخ عن فترة الوحي، أي انقطاعه، وذَكَرَ شُرَّاحُ الحديث الحكمة من ذلك الانقطاع، وهذه نصوص تحكي قصة فتور الوحي، وتُبَيِّنُ أثر ذلك على رسول الله ﷺ[2]:

---

(١) الطبقات الكبرى ١/١٩٤.

(٢) نقل ابن حجر العسقلاني في فتح الباري (١٢/٣٦٠-٣٦١) عن الإسماعيلي (أحمد بن إبراهيم ت ٣٧١هـ) أنه قال: «مَوَّهَ بعض الطاعنين على المُحَدِّثِينَ فقال: كيف يجوز للنبي أن يرتاب في نبوته حتى يرجع إلى ورقة ويشكو لخديجة ما يخشاه، وحتى يُوفِيَ بذروة جبل ليلقي منها نفسه على ما جاء في رواية مَعْمَرٍ، قال: ولئن جاز أن يرتاب مع معاينة =

جاء في رواية البخاري، رحمه الله: «ثم لَمْ يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفتَرَ الوحي فترةً حتى حَزِنَ النبي ﷺ، في ما بلغنا، حزنًا غَدَا منه مرارًا كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما أَوْفَى بذروة جبل لكي يُلْقِيَ منه نفسه تَبَدَّى له جبريل، فقال: يا محمد، إنك رسول الله حَقًّا، فَيَسْكُنُ لذلك جَأْشُهُ، وتَقَرُّ نفسه، فَيَرْجِعُ، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أَوْفَى بذروةِ جَبَلٍ تَبَدَّى له جبريل فقال له مثل ذلك»[1].

= النازل عليه من ربه، فكيف يُنْكَرُ على من ارتاب في ما جاءه به مع عدم المعاينة؟ قال: والجواب أن عادة الله جَرَتْ بأنَّ الأمر الجليل إذا قُضِيَ بإيصاله إلى الخلق أن يقدمه ترشيح وتأسيس، فكان ما يراه النبي ﷺ من الرؤيا الصادقة ومحبة الخلوة والتعبد من ذلك، فلما فَجِئَهُ الملك فَجِئَهُ بغتةً أَمْرٌ خالف العادة والمألوف، فنفر طبعه البشري منه وهاله ذلك، ولم يتمكن من التأمل في تلك الحال لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها، فلا يُتَعَجَّبُ أن يجزع مما لم يألفه وينفر طبعه منه، حتى إذا تدرج عليه وأَلِفَهُ استمر عليه، فلذلك رجع إلى أهله التي أَلِفَ تأنيسها له فأعلمها بما وقع له، فَهَوَّنَتْ عليه خَشْيَتَهُ بما عَرَفَتْهُ من أخلاقه الكريمة وطريقته الحسنة، فأرادت الاستظهار بمسيرها به إلى ورقة لمعرفتها بصدقه ومعرفته وقراءته الكتب القديمة، فلما سمع كلامه أيقن بالحق واعترف به، ثم كان من مقدمات تأسيس النبوة فترة الوحي ليتدرج فيه ويمرن عليه، فشق عليه فتوره إذ لم يكن خوطب عن الله بَعْدُ أنك رسول من الله ومبعوث إلى عباده، فأشفق أن يكون ذلك أمر بُدِئَ به ثم لم يرد استفهامه فحزن لذلك، حتى تدرج على احتمال أعباء النبوة والصبر على ثقل ما يرد عليه فَتَحَ الله له من أمره بما فتح... قال: وأما إرادته إلقاء نفسه من رؤوس الجبال بعد ما نُبِّئَ فلضعف قوته عن تحمل ما حمله من أعباء النبوة، وخوفًا مما يحصل له من القيام بها من مباينة الخلق جميعًا، كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل بما يكون فيه زواله عنه، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلًا، حتى إذا تفكر في ما في صبره على ذلك من العقبى المحمودة صَبَرَ واستقرت نفسه».

(١) صحيح البخاري ٩/٢٩-٣٠، رقم الحديث (٦٩٨٢).

وذكر البخاري القصة في حديث آخر عن محمد بن شهاب، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن جابر بن عبد الله، قال: «قال رسول الله ﷺ، وهو يحدث عن فترة الوحي، قال في حديثه: بينا أنا أمشي سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري، فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فَفَرِقْتُ منه، فرجعت، فقلت: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَدَثَّرُوهُ، فأنزل الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥﴾ [المدثر]، ثم حَمِيَ الوَحْيُ وتتابع»(١).

وذكر ابن سعد الحديث على نحو أكثر تفصيلًا، عن ابن عباس، حيث قال: «عن ابن عباس: أن رسول الله ﷺ لَمَّا نَزَلَ عليه الوحي بحراء مَكَثَ أيامًا لا يرى جبريل، فَحَزِنَ حزنًا شديدًا، حتى كان يغدو إلى ثَبِيرٍ مرة، وإلى حِرَاءَ مرة، يريد أن يلقي نفسه منه، فبينا رسول الله ﷺ كذلك عامدًا لبعض تلك الجبال إذ سمع صوتًا من السماء، فوقف رسول الله ﷺ صَعِقًا للصوت، ثم رفع رأسه، فإذا جبريل على كرسي بين السماء والأرض متربعًا عليه، يقول: يا محمد، أنت رسول الله حَقًّا، وأنا جبريل، قال: فانصرفَ رسول الله ﷺ، وقد أَقَرَّ الله عينه، ورَبَطَ جأشه، ثم تتابع الوَحْيُ بَعْدُ وحَمِيَ»(٢).

وأخرجه الطبري في تاريخه، عن مَعْمَرٍ، عن الزهري، قال: «فَتَرَ الوحي عن رسول الله ﷺ فترة، فَحَزِنَ حزنًا شديدًا، جَعَلَ يغدو إلى رؤوس شواهق

---

(١) صحيح البخاري ٦/١٧٤، رقم الحديث (٤٩٥٤)، وينظر: صحيح مسلم ١/١٤٣، رقم الحديث (١٦١).

(٢) الطبقات الكبرى ١/١٩٦.

الجبال ليتردى منها، فكلما أَوْفَى بذروة جبل تَبَدَّى له جبريل، فيقول: إنك نَبِيُّ الله، فَيَسْكُنُ لذلك جَأْشُهُ، وتَرْجِعُ إليه نفسه»[١].

وكان انقطاع الوحي بعد اللقاء الأول جزءًا من الإعداد للانتقال من صفة البشرية الخالصة التي كان عليها رسول الله ﷺ إلى صفة النبوة وحَمْلِ أعباء الرسالة، وقد أتاح له فتور الوحي ذهاب ما وَجَدَهُ من الرَّوْعِ، ثم حصول التشوق لرؤية الملك مرة أخرى[٢]، قال ابن حَجَرٍ العسقلاني: «وفتور الوحي عبارة عن تَأَخُّرِهِ مدةً من الزمان، وكان ذلك ليذهب ما كان ﷺ وَجَدَهُ مِنَ الرَّوْعِ، ولِيَحْصُلَ له التَّشَوُّفُ إلى العَوْدِ»[٣].

ويبدو أن فترة انقطاع الوحي لم تدم طويلًا، فكانت بضعة أيام، أو ربما بضعة أسابيع، لأنها لو طالت كثيرًا لأدى ذلك إلى انصراف رسول الله عن التفكير في ذلك، ونسيان الأمر بالكلية[٤]، وحَصَلَ نقاش عند كُتَّابِ السيرة

---

(١) تاريخ الطبري ٢/٣٠٥.

(٢) ينظر: العيني: عمدة القاري ١/٦٢.

(٣) فتح الباري ١/٢٧.

(٤) ذهب عدد من المؤلفين في علوم القرآن في عصرنا إلى أن مدة فتور الوحي كانت ثلاث سنوات، معتمدين في ذلك على رواية عن عامر الشعبي أحد علماء التابعين (ت ١٠٣ هـ) (ينظر: محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي ص ١٤٦، ومحمد عبد الله دراز: مدخل إلى القرآن الكريم ص ٣٠، وصبحي الصالح: مباحث في علوم القرآن ص ٣٦، ومالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص ١٨٥).

والذي يبدو راجحًا هو أن فتور الوحي لم يمتد ثلاث سنوات للأسباب الآتية:

١- أنَّ الرواية المنقولة عن عامر الشعبي لا تتحدث عن فتور الوحي أولًا، وهي رواية غير موثوقة عند أهل العلم ثانيًا، وجاء فيها: «بُعِثَ لأربعين، ووُكِّلَ به إسرافيل ثلاث سنين، =

وبعض رجال الحديث في أثر تلك الفترة للوحي هل فعلًا وصلت إلى درجة التفكير في أن يلقي رسول الله ﷺ نفسه من شاهق، أو توقفتْ عند حد الخروج إلى الجبال المحيطة بمكة، أملًا في أن يرى ما كان قد رآه في جبل حِرَاء من قبل[1]، ومهما يكن الأمر فإن رسول الله ﷺ حزن حزنًا شديدًا على انقطاع

= ثم وُكِّلَ به جبريل». (ينظر: ابن حجر: فتح الباري ١/ ٢٧). وقال ابن سعد (الطبقات الكبرى ١/١٩١) في شأن هذه الرواية: «فذكرت هذا الحديث لمحمد بن عمر (يعني الواقدي شيخه) فقال: ليس يعرف أهل العلم ببلدنا أن إسرافيل قُرِنَ بالنبي ﷺ، وأنَّ علماءهم وأهل السيرة منهم يقولون: لم يُقْرَنْ به غير جبريل، من حين أُنْزِلَ عليه الوحي إلى أَنْ قُبِضَ ﷺ».

٢- أنَّ ما ورد في روايات فتور الوحي لا يحدد المدة التي كانت بين نزول أول سورة العلق ونزول أول سورة المدثر، ويبدو أنها لم تطل كثيرًا، ففي رواية صحيح البخاري (١/٧، و٦/١٧٣، و٩/٢٩): «وفَتَرَ الوحي فترة، حتى حَزِنَ رسول الله ﷺ». وفي طبقات ابن سعد (١/١٩٦): «لَمَّا نزل الوحي بحراء مكث أيامًا لا يرى جبريل، فحزن حزنا شديدًا»، وفي السيرة النبوية لابن هشام (ص ٢٢١): «قال: ابن إسحاق (سيرة ابن إسحاق ص ١٣٥): ثم فتر الوحي عن رسول الله ﷺ فترة من ذلك، حتى شق ذلك عليه فأحزنه». (ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية ص ٢٢١).

٣- أن انقطاع الوحي ثلاث سنوات لا يتناسب مع ما وَجَدَ فيه رسول الله ﷺ نفسه من التطلع إلى لقاء جبريل وما أصابه من الحزن بسبب تأخر ذلك بعض الوقت، فلو كانت مدة انقطاع الوحي ثلاث سنوات لأدى ذلك في ما أحسب إلى أحد أمرين: إما نسيان القضية كلها، وإما أن يُودِيَ ذلك الحزن بحياته ﷺ، ومن ثم فإن الراجح أن مدة فتور الوحي كانت أيامًا أو أسابيع معدودة.

(١) قال الدكتور أكرم ضياء العمري في السيرة النبوية الصحيحة (١/١٢٦-١٢٧): «ساق البخاري الخبر بعد عبارة -في ما بلغنا- متخللة حديث بدء الوحي الذي رواه بسنده من طريق (معمر قال الزهري: فأخبرني عروة عن عائشة) ولولا عبارة (في ما بلغنا) لصار خبر محاولة التردي من الشواهق صحيحًا، ولكن ابن حجر ذهب إلى أنه بلاغ مرسل، =

الوحي بعد اللقاء الأول، ودفعه ذلك للخروج إلى الجبل الذي لقي فيه جبريل أول مرة، وإلى ما حوله من جبال مكة، لعله يراه مرة أخرى، وقد حفظه الله تعالى من أن يؤدي ذلك الحزن به إلى ما تكره عقباه، وظهر له جبريل في اللحظة المناسبة، وجعله ذلك يعجل بالعودة إلى البيت، وتبعه جبريل إلى داره، وأنزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾، وتتابع نزوله عليه بعد ذلك.

المطلب الثالث: حفظ النبي ﷺ القرآن

تَكَفَّلَتْ كتب الحديث والسيرة النبوية، وكتب التاريخ، ببيان الأحداث التي أَعْقَبَتْ لقاء النبي ﷺ بجبريل عليه السلام، في غار حراء، وتَتَبَّعَتْ أدق تفاصيل حياة رسول الله ﷺ بعد بعثته، إلى وفاته، والتي امتدت ثلاثًا وعشرين سنة،

= وليس موصولًا من رواية عروة عن عائشة (فتح الباري ١٢/ ٣٥٩ -٣٦٠)، ومراسيل الزهري ضعيفة. وقد أورد الطبري الخبر من مرسل الزهري (تاريخ الطبري ٢/ ٣٠٥)... ويذكر الألباني أن هذه الزيادة لها علتان، الأولى تفرد معمر بها دون يونس وعقيل فهي شاذة، الأخرى أنها مرسلة مفصلة ولم تأت من طريق موصولة يحتج بها... وهي زيادة منكرة من حيث المعنى لأنه لا يليق بالنبي ﷺ المعصوم أن يحاول قتل نفسه بالتردي من الجبل مهما كان الدافع له على ذلك». (ينظر: الألباني: سلسلة الأحاديث الضعيفة ١٠/٤٥٠، رقم ٤٨٥٨)».

قلت: حَزْنُ رسول الله ﷺ على فتور الوحي ثابت في جميع الروايات الصحيحة، أما تفكيره بالتردي من شاهق فإن الرواية إذا صحت، عن ابن عباس أو الزهري، فإن ذلك يمكن توجيهه باعتبار أن رسول الله ﷺ كان في أول عهده بالنبوة، فلم يكن قد التقى بجبريل إلا مرة واحدة، ثم هو فكَّرَ ولم يفعل، وكان الله يحرسه ويحميه، لِمَا أراد به من كرامته بالنبوة والرسالة، وبعدها بَلَغَ رسول الله ﷺ مرحلة اليقين التام بالنبوة، ومعرفته بحقيقة القرآن الذي كان يأتيه به جبريل عليه السلام، واتضاح دوره الجديد بالدعوة والتبليغ.

والذي يعنينا الحديث عنه هنا من تلك السيرة العطرة ما يتعلق بوثاقة النص القرآني، وبالجانب المتعلق بتنزيل القرآن الكريم، وذِكْرِ ما يتعلق بهذا الجانب من الآيات والأحاديث الدالة على حفظ القرآن الكريم وقت التنزيل، وحفظه في قلب النبي ﷺ، وفي قلوب أصحابه، ثم في الصحف والمصاحف.

وقد أدرك رسول الله ﷺ حقيقة دوره الجديد بعد ما نزلت عليه الآيات من أول سورة العلق، ونداء جبريل له: يا محمد أنت رسول الله حَقًّا، ثم نزول الآيات من أول سورة المُدَّثِّر، وأيقن أنَّ الله تعالى قد اختاره رسولًا، وأنَّ عليه أن يحمل أعباء الرسالة ويدعو الناس مِن حوله إليها، وكان رسول الله ﷺ حديث عهد بتلقي القرآن من جبريل، عليه السلام، وحَصَلَ لديه قلق من عدم تمكنه من حفظ نص القرآن في أثناء تلقيه من المَلَك، فكان يتعجَّل في بادئ الأمر في حفظ القرآن، فيسابق جبريل، وهو يلقي إليه القرآن ساعة الوحي، فَيُرَدِّدُ الآيات قبل أن ينتهي المَلَكُ، مخافة أن ينسى منها شيئًا، وكان ذلك مما يشق عليه، فجاء القرآن يطمئنه من أول الطريق، ويتكفل له بالحفظ المطلق للقرآن، وينهاه عن تلك العجلة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [سورة طه].

وجاءت آيات أخرى تؤكد أنَّ حفظ القرآن مكفول للنبي ﷺ، وهي قوله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [سورة القيامة].

وقد روى البخاري ومسلم وغيرهما، عن عبد الله بن عباس، رضي الله عنهما، تفسيرًا لهذه الآيات، جاء فيه: أن رسول الله ﷺ كان يعالج من التنزيل شِدَّةً، وكان مما يُحَرِّكُ به لسانه وشفتيه، يخشى أنْ يَنْفَلِتَ منه، فأنزل الله تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ جَمْعَهُ: أنْ نَجْمَعَهُ في صدرك، وأنْ تَقْرَأَهُ، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾: فإذا أنزلناه فاسْتَمِعْ وأَنْصِتْ، ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾: ثم إن علينا أنْ نُبَيِّنَهُ بلسانك، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل ٱسْتَمَعَ، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي ﷺ كما قرأه جبريل[1].

وهذه الآيات الكريمة تؤكد أمرًا هامًّا، هو تَكَفُّلُ الله المطلق بشأن القرآن، وحيًا وحفظًا وجمعًا وبيانًا، وإسناده إليه سبحانه بكليته، فليس للرسول ﷺ من أمره إلا وَعْيُهُ وحِفْظُهُ وتبليغُهُ، بعد أن أعطاه الله ملكة تامة للحفظ، فصار إذا أتاه جبريل استمع، فإذا ذهب جبريل قرأه كما قرأه عليه جبريل، يحفظ السورة الطويلة كما يحفظ السورة القصيرة، وليس هناك فرصة لنسيان شيء من الوحي المنزل أو ضياعه.

وإلى جانب هذا الاستعداد الدائم الذي خص الله به النبي ﷺ لحفظ القرآن، فإن جبريل عليه السلام كان يدارسه ما نزل عليه من القرآن في كل عام مرة، كما في الحديث الذي رواه البخاري عن ابن عباس، حيث قال: «كان رسول الله أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في

---

(١) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/١٩٨، وصحيح البخاري ١/٨، (رقم الحديث ٥)، و٩/١٥٣، (رقم الحديث ٧٥٢٤)، وصحيح مسلم ١/٣٣٠، (رقم الحديث ٤٤٨).

كل ليلة من رمضان، فيدارسه القرآن، فَلَرَسُولُ الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة»[١].

وكانت ثمرة ذلك التمكين لحفظ القرآن، وهذه المدارسة له بين رسول الله وجبريل، أنْ حَفِظَ رسول الله ﷺ القرآنَ حفظًا لا حَظَّ للنسيان فيه، فقال الله ﷻ: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ [الأعلى]، أي: سنقرئك يا محمد هذا القرآن، فلا تنساه[٢]، قال الزجاج: «أَعْلَمَ اللهُ -ﷻ- أنه سيجعل للنبي ﷺ آيةً يتبين له بها الفضيلة بأن جبريل عليه السلام ينزل عليه بالوحي، وهو أُمِّيٌّ لا يكتب كتابًا ولا يَقْرَؤُهُ، ويُقْرِئُ أصحابه، ولا ينسى شيئًا من ذلك، ولا يكرر عليه الشيء»[٣].

قال الرازي المفسر: «هذه الآية تدل على المعجزة من وجهين:

الأول: أنه كان رجلًا أُمِّيًّا، فَحِفْظُهُ لهذا الكتاب المُطَوَّلِ من غير دراسة ولا تكرار ولا كِتْبَةٍ، خارق للعادة، فيكون معجزًا.

الثاني: أنَّ هذه السورة من أوائل ما نَزَلَ بمكة، فهذا إخبارٌ عن أَمْرٍ عجيبٍ غريبٍ مخالفٍ للعادة سَيَقَعُ في المستقبل، وقد وَقَعَ، فكان هذا إخبارًا

---

(١) صحيح البخاري ١/٨، (رقم الحديث ٦)، و٣/٢٦، (رقم الحديث ١٩٠٢)، و٤/١١٣، (رقم الحديث ٣٢٢٠)، وينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/٣٦٨، و٢/١٩٥.

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان ٢٤/٣٧٠-٣٧١، وقال السمين الحلبي في عمدة الحفاظ (٤/١٧٣): «قوله: (سنقرئك فلا تنسى): لا نافية، وهي ضمان من الله تعالى لنبيه، أنه إذا سمع شيئًا من القرآن لم يَنْسَهُ، وقول مَن قال: إنه نَهْيٌ ضعيف، من حيث المعنى، ومن حيث اللغة».

(٣) معاني القرآن وإعرابه ٥/٣١٦.

عن الغيب، فيكون معجزًا»[١].

والقرآن الكريم محفوظ قبل التنزيل، وفي أثناء التنزيل، وبعد التنزيل، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]، والروح الأمين جبريل عليه السلام[٢]، وهو أمين على وحي الله تعالى على أنبيائه[٣]، وقد رافق جبريلُ النبيَّ ﷺ من لدن نزوله عليه في غار حراء بأوائل سورة العلق، حتى نزوله بآخر آية من القرآن الكريم.

وذهب بعض الدارسين إلى أن الغرض من تنجيم القرآن الكريم تيسير حفظه لرسول الله ﷺ، قال ابن عباس، في ما رواه البخاري: «بُعِثَ رسولُ الله ﷺ لأربعين سنة، فَمَكَثَ بمكة ثلاثَ عشرةَ سنةً يُوحَى إليه، ثم أُمِرَ بالهجرة فَهَاجَرَ عشرَ سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين»[٤]. وسَمَّى العلماء نزول القرآن مفرقًا تنجيم القرآن، تقول العرب: نَجَّمْتُ المال، إذا أَدَّيْتُهُ نجومًا[٥]، قال أبو شامة المقدسي: «فلمَّا قَطَّعَ اللهُ سبحانه القرآنَ وأنزله مفرقًا قيل لتفاريقه نجوم»[٦].

---

(١) مفاتيح الغيب ٣١/١٣٠.

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان ١٩/٣٦٩.

(٣) ينظر: ابن الجوزي: زاد المسير ٣/٣٤٨.

(٤) صحيح البخاري ٥/٥٧، (رقم الحديث ٣٩٠٢)، وينظر: البيهقي: دلائل النبوة ٢/١٣١، ٧/٢٣٩.

(٥) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ١٢/٥٧٠.

(٦) المرشد الوجيز ص١٨.

وقد تَمَنَّى الكُفَّار نزول القرآن جملة واحدة، ولكن الله تعالى بَيَّنَ أنَّ وراء تنزيله مفرقًا حكمةً يتعلق بها استمرار الدعوة ونجاحها، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢﴾ [الفرقان].

وذكر المفسرون أن لقوله تعالى: (لنثبت به فؤادك) معنيين، هما[1]:

١. لِنُقَوِّيَ به قلبك، فإن الوحي إذا كان يتجدد في كل حادثة كان أقوى للقلب، وأشد عناية بالمرسل إليه.

٢. لِتَحْفَظَهُ، فيكون فؤادك ثابتًا به غير مضطرب، وكان النبي ﷺ أُمِّيًّا لا يكتب ولا يقرأ، فَفُرِّقَ عليه القرآن ليتيسر عليه حفظه.

ولا شك في أنَّ تفريق النص الذي يُرَادُ حِفْظُهُ يُيَسِّرُ الأمرَ على مَن يريد أن يحفظه، لكن ذلك لم يكن ضروريًا بالنسبة لحفظ النبي ﷺ للقرآن، فقد تكفل الله تعالى له بحفظ القرآن، كما مر ذلك من قريب.

وخلاصة الأمر: أن الله تعالى قد مَكَّنَ نبيه ﷺ من حفظ القرآن، وإذا كان الحفظ عند البشر يتوقف على الاجتهاد والتعب، وهو عرضة لآفة النسيان، فإن حفظ القرآن صار عند رسول الله ﷺ مَلَكَةً، لا يحتاج معها إلى بذل الجهد، ولا يخاف معها طروء النسيان عليه[2].

---

(١) ينظر: الطبري: جامع البيان ١٩/٢٦٥-٢٦٦، ومكي بن أبي طالب: الهداية ٨/٥٢١٥-٥٢١٦، وأبو شامة: المرشد الوجيز ص ٢٨، والزركشي: البرهان ١/٢٣٠-٢٣١، والسيوطي: الإتقان ٢/٢٧٩-٢٨٠.

(٢) أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما، عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ سمع عَبَّاد ابن بشر يقرأ القرآن في المسجد، من الليل، فقال: (يَرْحَمُهُ الله، لقد أَذْكَرَنِي كذا وكذا آية، =

وحَفِظَ أصحابه الكرام القرآن، وكتبوه في الصحف والمصاحف، وهو ما سنتحدث عنه في صفحة أخرى من صفحات التوثيق والوثاقة للنص القرآن، بما يكشف لك أيها القارئ الكريم أصالة النص الذي تجده بين يديك في المصاحف، وتتلوه وتقرؤه بلسان عربي مبين، بعد أكثر من أربعة عشر قرنًا من تاريخ تنزيله!

** ** **

= كنتُ أُنْسِيتُهَا من سورة كذا)، (ينظر: صحيح البخاري ٦/١٩٣-١٩٤، رقم الحديث ٥٠٣٧ و٥٠٣٨، وصحيح مسلم ١/٥٤٣، رقم الحديث ٧٨٨)، وقال ابن حجر في فتح الباري (٩/٨٦) في بيان معنى النسيان المذكور في الحديث: «النسيان من النبي ﷺ لشيء من القرآن يكون على قسمين، أحدهما: نسيانه الذي يتذكره عن قرب، وذلك قائم بالطباع البشرية، وعليه يدل قوله ﷺ في حديث بن مسعود في السهو: (إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون)، والثاني: أن يرفعه الله عن قلبه على إرادة نسخ تلاوته، وهو المشار إليه بالاستثناء في قوله تعالى: (سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله) قال: فأما القسم الأول فعارض سريع الزوال: لظاهر قوله تعالى: (إنا نحن نزلنا الذكر وأنا له لحافظون)، وأما الثاني فداخل في قوله تعالى: (ما ننسخ من آية أو نُنْسِهَا) على قراءة من قرأ بضم أوله من غير همزة». (وينظر: القاضي عياض: إكمال المعلم ٣/١٥٣، والنووي: شرح صحيح مسلم ٦/٧٦-٧٧).

المبحث الرابع

مظاهر تلقي النبي ﷺ القرآن الكريم المحسوسة والخفية

خَصَّ اللهُ تعالى الأنبياء والرسل بالوحي، ومنهم النبيُّ محمدٌ ﷺ، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [النساء: ١٦٣]، وقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِيٓ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ ٱللَّهُ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣]، ثم قال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، والآياتُ بهذا المعنى كثيرة.

فَمَا الوَحْيُ، وما مظاهره المحسوسة، والخفية؟

الوَحْيُ لغةً: مصدر الفعل وَحَى يَحِي وَحْيًا، يقال: وَحَيْتُ إليه الكلام، ويقال أيضًا: أَوْحَيْتُ إليه أُوحِي إيحاءً، بمعنًى واحدٍ: كَلَّمْتُهُ في خفاء، وأومأتُ إليه، واللغة الفاشية في القرآن (أَوْحَيْتُ) بالألف، وفي غير القرآن (وَحَيْتُ)، ومعنى الوحي في أصل اللغة: إعلامٌ في خَفَاءٍ، ولذلك صار الإلهام يُسَمَّى وَحْيًا، وكذلك الإشارةُ والإيماءُ يُسَمَّى وَحْيًا، والكتابةُ تُسَمَّى وَحْيًا أيضًا، والوَحْيُ: ما يُوحِيهِ اللهُ إلى أنبيائه، سُمِّيَ وحيًا لأنَّ المَلَكَ أَسَرَّهُ عن الخَلْقِ، وخَصَّ به النبيَّ المبعوثَ إليه[1].

---

(١) ينظر: الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ٤/١٣٣، والأزهري: تهذيب اللغة ٥/١٩٢-١٩٣، وابن منظور: لسان العرب ١٥/٣٧٩-٣٨٢.

وبالنظر لعموم المعنى اللغوي لكلمة الوحي، وهو إعلام في خفاء، فقد ورد استعمالها في القرآن بصور متعددة، منها الوحي إلى الأنبياء عليهم السلام، ومنها الوحي إلى غيرهم، من البشر، أو المخلوقات الأخرى من حيوان أو جماد، فالله تعالى أَوْحَى إلى أُمِّ موسى [طه: ٣٨، والقصص: ٧]، وأوحى إلى الأرض [الزلزلة: ٥]، وأوحى إلى السماء [فصلت: ١٢]، وأوحى إلى النحل [النحل: ٦٨]، والله يوحي إلى الملائكة [الأنفال: ١٢]، والمقصود بالحديث في هذا المبحث من أنواع الوحي ما يَخُصُّ الأنبياءَ، عليهم السلام، والنبيَّ محمدًا ﷺ على وجه الخصوص.

والوَحْيُ إلى الأنبياء أمر خارق لِمَا اعتاد عليه الناس من حديث بعضهم لبعض، والملائكة التي تنزل إلى الأنبياء مخلوقات ليست مادية، فهي مخلوقة من نور(١)، والبشر العاديون غير مهيئين للأخذ عنهم مباشرة، إلا الأنبياء الذين مكنهم الله تعالى من ذلك، ونَقَلَهُم بالنبوة من صفة البشرية إلى مرتبة أعلى تمكنهم من تلقي الوحي النازل عليهم، فإن الله تعالى «اَصْطَفَى من البشر أشخاصًا فَضَّلَهم بخطابه، وفَطَرَهُم على معرفته، وجعلهم وسائل بينهم وبين عباده، يُعَرِّفُونهم بمصالحهم، ويُحَرِّضُونهم على هدايتهم، ويأخذون بِحُجُزَاتِهم عن النّار، ويَدُلُّونَهم على طريق النَّجَاة»(٢).

وليس من شأن البشر التلقي عن الله تعالى مباشرة، كما بَيَّنَ القرآن ذلك،

---

(١) عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «خلقت الملائكة من نور» (صحيح مسلم ٤/٢٢٩٤، رقم الحديث ٢٩٩٦، ومسند الإمام أحمد ٤٢/١٠٩، رقم الحديث ٢٥١٩٤).

(٢) تاريخ ابن خلدون ١/١١٥.

وذَكَرَ السُّبُلَ التي يُبَلِّغُ الله بها كلماته إلى المُصْطَفَيْنَ من عباده، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى]، فهذه الآيات تُبَيِّنُ أنّ هناك ثلاث صور لتبليغ المعرفة الإلهية إلى البشر، وهي:

١. الوَحْيُ: وهو الإعلام الخفي، وقد يكون بالرؤيا الصادقة، أو بالإلهام، وهو أنْ يُلْقِيَ الله في النَّفْسِ أمرًا يبعث على الفعل أو التَّرْكِ[١].

٢. التكليم من وراء حجاب، كما كَلَّمَ الله تعالى موسى عليه السلام، [النساء: ١٦٤، وطه: ١١].

٣. إرسالُ الرسول، وهو المَلَكُ الذي ينزل إلى الأنبياء والرسل، ويُسَمَّى وَحْيًا أيضًا، وقد أشارت الآية السابقة إلى أنَّ ما أوحاه الله تعالى إلى النبي محمد ﷺ هو من جنس ما أوحاه إلى الأنبياء السابقين: (وَكَذلِكَ أَوْحَيْنا إِلَيْكَ رُوحًا من أمرنا)، وقد أَكَّدَتْ هذا المعنى آيات أخرى، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [النساء: ١٦٣].

وقد سُمِّيَ نزول جبريل عليه السلام بالقرآن على رسول الله ﷺ وَحْيًا لأنه أَسَرَّهُ عن الخلق، وخَصَّ به النبيَّ المبعوث إليه[٢]، فلم يكن الصحابة يرون الملك وقت نزوله بالقرآن، مع أنهم كانوا يحسون بآثار نزوله.

---

(١) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ١٢/٥٥٥.

(٢) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ١٥/٣٨٠.

ولا شك في أنَّ الوحي من الغيب الذي لا يُعْرَفُ بالحواسِّ ولا يُدْرَكُ بالعقل المُجَرَّدِ، ومن ثم فإن القول في حقيقته وكيفيته يتوقف على ما ورد عنه في القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة، وقد جاء في عدد من الأحاديث والآثار وصفٌ لحال رسول الله ﷺ وقت نزول جبريل بالقرآن عليه، منها ما يتعلق بالجانب الخفي من الوحي، ومنها ما يتعلق بآثاره الظاهرة المحسوسة التي لاحظها الصحابة رضي الله عنهم، وسوف نقف عند هذين الجانبين، لتأمل الطريق الذي نزل به القرآن من السماء إلى الأرض، وكيف تلقاه رسول الله ﷺ من الروح الأمين، جبريل عليه السلام.

المطلب الأول: الجانب الخَفِيُّ من الوحي

كان الصحابة يشاهدون رسول الله ﷺ ساعةَ يُوحَى إليه، وكانت نفوسهم تتطلع إلى معرفة ما وراء هذا المشهد من أمور غيبية، فأنطقهم الله تعالى بالسؤال عنها، لتظل إجابة رسول الله ﷺ لهم تُوَضِّحُ للناس ذلك الجانب الخَفِيَّ من الوحي، ولدينا أكثر من حديث في هذا الصدد، منها:

١. حديث عبد الله بن عَمْرِو بن العاص، فقد أخرج الإمام أحمد، والطبراني، عن عبد الله بن عَمْرٍو، قال: «سألتُ النبيَّ ﷺ فقلتُ: يا رسولَ الله: هل تُحِسُّ بالوَحْيَ؟ قال: نَعَمْ، أَسْمَعُ صَلاصِلَ، ثم أَسْكُتُ عند ذلك، فما من مرة يُوحَى إليَّ إلا ظَنَنْتُ أنَّ نفسي تَفِيضُ»[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٦/٤٨٤، رقم الحديث ٧٠٧١)، عن قتيبة، عن ابن لهيعة، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عمرو بن الوليد، عن عبد الله بن عمرو، وفيه: (أن نفسي تفيض) وقال أحمد محمد شاكر: «إسناده صحيح»، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٣/١٦، و١٤/٢٣) من طريق ابن لهيعة أيضًا، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٢٥٦): «رواه أحمد والطبراني، وإسناده حسن»، وفيه (أن نفسي تقبض)، =

والصَّلاصِلُ: جمع صَلْصَلَةٍ، والصلصلةُ في الأصل صوت وقوع الحديد بعضه على بعض، ثم أُطْلِقَ على كل صوت له طنين[١].

قال النووي: «قال العلماء: والحكمة في ذلك أن يتفرغ سمعه ﷺ ولا يبقى فيه ولا في قلبه مكان لغير صوت المَلَكِ»[٢]، وقال السهيلي: «وقيل: إنَّ ذلك لِيَسْتَجْمِعَ قَلْبَهُ عند تلك الصلصلة، فيكونَ أَوْعَى لِمَا يَسْمَعُ، وأَلْقَنَ لِمَا يُلْقَى»[٣]، فكان رسول الله ﷺ إذا سمع ذلك الصوت سكت عما قد يكون فيه من حديث ليتفرغ لسماع القرآن من جبريل عليه السلام.

وقوله ﷺ: (فما مِن مرة يُوحَى إليَّ إلا ظَنَنْتُ أنَّ نفسي تَفِيضُ) دليل على ما كان يعانيه من الشدة والمشقة في أثناء الوحي، وتقدَّم في حديث ابن عباس قوله: (أن رسول الله ﷺ كان يعالج من التنزيل شِدَّةً)، ويدل على ذلك أيضًا عدد من الظواهر الحسية المصاحبة للوحي، كان الصحابة قد شاهدوها أو سمعوها، كما سيرد في الحديث عن الظواهر المحسوسة للوحي.

٢. حديث الحارث بن هشام، عن عائشة أم المؤمنين، رضي الله عنها، أن الحارث ابن هشام، رضي الله عنه، سَأَلَ رسولَ الله ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحيانًا يأتيني مِثْلَ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وهو أَشَدُّهُ

= وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٦/٢٩٥): «قلت: وهذا إسناد ضعيف، عمرو بن الوليد - وهو السهمي المصري - مجهول، قال الذهبي في الميزان: «ما روى عنه سوى يزيد بن أبي حبيب»، وابن لهيعة ضعيف، لسوء حفظه».

(١) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ١١/٣٨٢، وابن حجر: فتح الباري ١/٢٠.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ١٥/٨٨.

(٣) الروض الأنف ٢/٢٥٨.

عَلَيَّ، فَيَفْصِمُ عني وقد وَعَيْتُ ما قال، وأحيانًا يَتَمَثَّلُ لي المَلَكُ رجلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي ما يقولُ»[١].

يتبين من حديث الحارث هذا وجود صورتين للوحي، الأُولى: سماع صوت الصلصلة، فَيُصْغِي رسول الله ﷺ إلى الوحي، ويَنْجَلِي عنه وقد وَعَىَ ما قال، والثانية: يأتيه الملك النازل بالوحي بصورة رجل، فَيُكَلِّمُ رسولَ الله ﷺ فَيَعِي منه ما يقول، فالوَعْيُ، وهو الفهم والحفظ، متحقق في الصورتين معًا.

وقوله ﷺ: (وهو أَشَدُّهُ عَلَيَّ) يعني أن الشدة مصاحبة للوحي في صُورَتَيْهِ، إلا أنَّ أكثرهما شِدَّةً هي صورة صوت الصلصلة، وعَبَّرَ عن أثر تلك الشدة في حديث عبد الله بن عمرو المتقدم بقوله: (فما مِن مَرَّةٍ يُوحَى إليَّ إلا ظَنَنْتُ أنَّ نفسي تَفِيضُ).

ولعل القارئ ينتظر المزيد من التوضيح للجانب الخفي من الوحي، لكن جواب النبي ﷺ لسؤال الصحابيين الجليلين عن إحساسه بالوحي، وكيف يأتيه الوحي أو كيف ينزل عليه، قد كشف عن جانب مهم من أسرار ذلك اللقاء العجيب بين المَلَكِ المُرْسَلِ، والنبيِّ المبعوث إليه، ويتلخص بتميز تلك الحالة عما سواها من أحوال النبي ﷺ، ومعرفته بها، بسماع صوت الصلصلة، وتلقيه للوحي النازل، ووعيه له، ثم انجلاء الحالة عنه، فإذا هو

---

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١/١٩٧، والبخاري في صحيحه ١/٦ (رقم الحديث ٢)، و٤/١١٢ (رقم الحديث ٣٢١٥)، ومسلم في صحيحه ٤/١٨١٦ (رقم الحديث ٢٣٣٣)، ورواه أصحاب السنن والمسانيد وغيرهم. وجاء في سيرة ابن إسحاق (ص ١٤٦)، وفي كتاب خلق أفعال العباد للبخاري (ص ٩٤)، وفي المستدرك للحاكم (٣/٣١٤)، والمعجم الكبير للطبراني (٣/٢٥٩) بلفظ: (كيف ينزل عليك الوحي).

يتلو على أصحابه قرآنًا جديدًا.

وللشدة المصاحبة للوحي التي وصفها رسول الله ﷺ مظاهر مادية محسوسة تَوَلَّى الصحابة وصفها، بعد أن أحسوا بها، وسمعوا أثرها، وشاهدوا بعض مظاهرها، وهو ما سنقف عنده في الفقرة الآتية، إن شاء الله تعالى.

المطلب الثاني: الجانب المحسوس من الوحي

جاءت أحاديث صحيحة كثيرة تُبَيِّنُ أَثَرَ الوحي على رسول الله ﷺ، وعلى ما يحيط به أو يتصل به من إنسان أو حيوان، بما يدل على تميز تلك الحالة عن أحواله الأخرى تميزًا لا يخفى على كل مَن شاهدها، وسوف أتحدث عن ذلك الأثر من خلال ثلاث نقاط، الأولى: ما يختص بالرسول ﷺ، والثانية: ما يختص بأصحابه عند نزول الوحي، والثالث: ما يختص بالناقة التي يركبها، إذا نزل الوحي عليه وهو راكب.

أولًا: الجانب المحسوس من الوحي الذي يختص بالرسول ﷺ، ويتمثل بما كان الصحابة قد شاهدوه من أحواله ساعة يُوحَى إليه، فعن عباده ابن الصامت أن رسول الله ﷺ: «كان إذا نَزَلَ عليه الوَحْيُ كُرِبَ لذلك، وتَرَبَّدَ وَجْهُهُ»[1]. ومعنى (كُرِبَ لذلك) أي أصابه الكَرْبُ وهو الشِّدَّةُ، ومعنى (تَرَبَّدَ

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات الكبرى ١٩٧/١، والإمام أحمد في مسنده ٣٨٨/٣٧ (رقم الحديث ٢٢٧١٥)، و٤٠٣/٣٧ (رقم الحديث ٢٢٧٣٤)، ومسلم في صحيحه ١٣١٦/٣ (رقم الحديث ١٦٩٠)، و١٨١٧/٤ (رقم الحديث ٢٣٣٤)، والنسائي في السنن الكبرى ٤٠٥/٦، ٢٤٢/٧، والبيهقي في السنن الكبرى ٨٤/٧، و٣٦٥/٨.

وجهه) أي تَغَيَّرَ لَوْنُهُ[١]، وذلك لما كان يَلْقَى من الشدة في أثناء الوحي.

وجاء في حديث السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي أَخَذَتْهُ البُرَحَاء[٢]، وهي شِدَّةُ الحُمَّى[٣]، ومن ثم قالت: «ولقد رَأَيْتُهُ ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد، فَيَفْصِمُ عنه وإنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عرقًا»[٤]. وقالت أيضًا: «حتى إنه لَيَتَحَدَّرُ منه من العَرَقِ مِثْلُ الجُمَان، وهو في اليوم الشَّاتِي، من ثِقَلِ القول الذي أُنْزِلَ عليه»[٥].

وليس من شك في أن هذه المظاهر لا تحدث لإنسان عادي من غير أن يكابد مشقة، من عمل شاق، أو جَرْيٍ طويل، ولم يكن رسول الله ﷺ يتعاطى شيئًا من ذلك ساعة يوحى إليه، لكن ذلك من آثار الشدة المصاحبة لتنزيل القرآن عليه.

ثانيًا: ما يختص بأصحابه من آثار الوحي: من ذلك سماع صوت يُشْبِهُ دَوِيَّ النَّحْلِ عند وجهه ﷺ، كما جاء في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: «كان النبي ﷺ إذا أُنْزِلَ عليه الوَحْيُ سُمِعَ عند وجهه كَدَوِيٍّ النحل، فَأُنْزِلَ

---

(١) ينظر: القاضي عياض: إكمال المعلم بفوائد مسلم ٥/٥٠٦، والنووي: شرح صحيح مسلم ١١/١٩٠، و١٥/٨٩.

(٢) ينظر: صحيح البخاري ٣/١٧٣، (رقم الحديث ٢٦٦١)، وصحيح مسلم ٤/٢١٢٩، (رقم الحديث ٢٧٧٠).

(٣) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ٢/٤١٠.

(٤) صحيح البخاري ١/٧، (رقم الحديث ٢).

(٥) صحيح البخاري ٥/١١٦، (رقم الحديث ٤١٤١)، وصحيح مسلم ٤/٢١٢٩، (رقم الحديث ٢٧٧٠).

عليه يومًا، فمكثنا ساعةً، فَسُرِّيَ عنه، فاستقبل القبلة ورفع يديه، وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهِنَّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأَرْضِنَا وارْضَ عنا، ثم قال ﷺ: أُنْزِلَ عَلَيَّ عشرُ آيات، من أقامهن دخل الجنة، ثم قرأ: (قد أَفْلَحَ المؤمنون)، حتى خَتَمَ عَشْرَ آياتٍ»[١].

وروى خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه زيد، قال: «إني لقاعد إلى جنب النبي ﷺ يومًا، إذ أُوحِيَ إليه، وغَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ، ووقع فَخِذُهُ على فَخِذِي إذ غَشِيَتْهُ السَّكِينَةُ، قال زيد: فلا واللهِ ما وجدتُ شيئًا قَطُّ أَثْقَلَ من فَخِذِ رسول الله ﷺ»[٢]. وفي رواية البخاري: «فأنزل الله على رسوله ﷺ، وفَخِذُهُ على فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حتى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي، ثم سُرِّيَ عنه»[٣].

ثالثًا: ما يختص بالناقة من آثار الوحي: روى ابن سعد عن الصحابي أَبِي أَرْوَى الدَّوْسِيِّ، قال: «رأيتُ الوَحْيَ ينزلُ على النبي ﷺ، وإنَّهُ على راحلتهِ، فَتَرْغُو وتَفْتِلُ يَدَيْهَا، حتى أَظُنُّ أَنَّ ذراعَهَا تَنْقَصِمُ، فربما بَرَكَتْ، وربما قامَتْ مُوَتِّدَةً يَدَيْهَا، حتى يُسَرَّى عنه، من ثِقَلِ الوحي، وإنه لَيَتَحَدَّرُ منه مِثْلُ الجُمَانِ»[٤]، يؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد في مسنده عن عائشة رضي الله عنها أنها

---

(١) ينظر: مصنف عبد الرزاق ٣٨٣/٣، ومسند الإمام أحمد ٣٥١/١، وسنن الترمذي ١٧٩/٥، ومستدرك الحاكم ٧١٧/١، وقال: (هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه)، وضَعَّفَهُ الألباني (ينظر: ضعيف الجامع الصغير وزياداته ص ٦٣٢).

(٢) مسند الإمام أحمد ٥١٨/٣٥، وينظر: سنن أبي داود ١٦١/٤، وابن حجر: فتح الباري ٢٦٠/٨.

(٣) صحيح البخاري ٢٥/٤، (رقم الحديث ٢٨٣٢)، و٤٧/٦، (رقم الحديث ٤٥٩٢).

(٤) الطبقات الكبرى ١٩٧/١.

قالت: «إنْ كان لَيُوحَى إلى رسول الله ﷺ، وهو على راحلته، فتضرب بجرانها»[١].

وأخرج الإمام أحمد في مسنده عن الصحابية أسماء بنت يزيد الأنصارية، قالت: «إني لَآخِذَةٌ بزِمَامِ العَضْبَاءِ نَاقَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِذْ أُنْزِلَتْ عليه الْمَائِدَةُ كلها، فَكَادَتْ من ثِقَلِهَا تَدُقُّ بِعَضُدِ النَّاقة»[٢]، وفي روايته عن عبد الله بن عمرو قال: «أُنْزِلَتْ على رَسُول الله ﷺ سُورَة الْمَائِدَةِ، وَهُوَ رَاكبٌ على رَاحِلَتِهِ، فَلَمْ تستطعْ أَنْ تَحْمِلَهُ، فَنَزَلَ عَنْهَا»[٣].

إن ما كان يعانيه رسول الله ﷺ من شِدَّةٍ ساعة الوحي، حتى إنه ليتحدر منه العَرَقُ في اليوم الشديد البرد، وما أحس به زيد بن ثابت من ثقل فخذ رسول الله ﷺ، وما عانت منه الناقة ساعة الوحي، كل ذلك انعكاس لقوةٍ مصاحبة لنزول جبريل عليه السلام بالقرآن، وطاقةٍ تغشى رسول الله ﷺ ساعة الوحي يمتد أثرها إلى ما كان قريبًا منه، أو متصلًا به، وقد لا نملك توصيفًا علميًا محددًا لتلك الطاقة أو القوة المصاحبة، لكنها كانت معروفة لأصحاب

---

(١) مسند الإمام أحمد ٤١/٣٦٢، (رقم الحديث ٢٤٨٦٨)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٨/٢٥٧): «رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح».

(٢) مسند الإمام أحمد ٤٥/٥٥٧، (رقم الحديث ٢٧٥٧٥)، وينظر: الطبراني: المعجم الكبير ٢٤/١٧٨، والسيوطي: الدر المنثور ٣/٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٣): «رواه أحمد، والطبراني بنحوه، وفيه شهر بن حوشب، وهو ضعيف، وقد وُثِّقَ».

(٣) مسند الإمام أحمد ١١/٢١٨، (رقم الحديث ٦٦٤٣)، وينظر: السيوطي: الدر المنثور ٣/٣، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/١٣): «رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة، والأكثر على ضعفه، وقد يُحَسَّنُ حديثه، وبقية رجاله ثقات».

رسول الله ﷺ، شاهدوا آثارها بأعينهم.

إن المتأمل لحالة نزول الوحي في جانبيها: الغيبي الذي بَيَّنَهُ النبي ﷺ، والمحسوس الذي وَصَفَهُ الصحابة رضي الله عنهم، يدرك أنها أبعد ما تكون عن حالة السبات الطبيعي الذي يعتري المرء في وقت حاجته إلى النوم، فإنها كانت تَعْرُو النبي ﷺ قائمًا أو قاعدًا أو سائرًا أو راكبًا، بكرةً أو عشيًا، وكانت تعروه فجأة وتنقضي في لحظات يسيرة، لا بالتدريج الذي يعرض للوسنان الذي يغفو ويغرق في النوم، كما أنها حالة تباين كُلِّيًّا تلك الأعراض المرضية والنوبات العصبية التي تَصْفَرُّ فيها الوجوه، وتَبْرُدُ الأطراف، وتَصْطَكُّ الأسنان، وتَتَكَشَّفُ العورات، ويَحْتَجِبُ نور العقل، لأنها حالة تتسم بالجلال والوقار، وهي مبعث نور لا ظلمة، ومصدر علم لا جهالة[1].

إن حالة الوحي تكررت مرات كثيرة، في حياة رسول الله ﷺ بعد بعثته، وكانت تلك الحالة معروفة للصحابة، وكانت تتسم لحظاتها بالسكينة والوقار، وكان الصحابة يطرقون خلالها بانتظار سماع الوحي الجديد، روى الإمام مسلم في صحيحه عن أبي هريرة، رضي الله عنه، أنه قال: «وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي»[2].

ومن المعروف أن تلك الحالة الخاصة بنزول الوحي، وما يصاحبها من الأعراض الجسمية التي رُوِيَتْ عن النبي ﷺ لا تظهر عنده إلا في اللحظة التي

---

(١) ينظر: محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ٩٠-٩١.

(٢) صحيح مسلم ٣/١٤٠٥، (رقم الحديث ١٧٨٠).

تغشاه فيها السكنية، وينزل عليه جبريل بالوحي، ويتلقى منه القرآن الكريم[١].

إن التلقي عن الله تعالى، حتى وإن كان عن طريق المَلَكِ، أمر خارج عن معهود الناس، إنه أمر عجيب، لكنه حدث مرات كثيرة على عهد رسول الله ﷺ، وأَحَسَّ بحدوثه كثيرون، ورأوا مظاهره رأي العين، وتَلَقَّوْا ثمرته، وهي هذا القرآن العظيم الذي تلاه رسول الله ﷺ على الناس، وحفظه عنه صحابته، وكتبوه، وعَلَّمُوه مَن جاء بعدهم، وتناقلته الأمة خلال العصور.

المطلب الثالث: تحليل لظاهرة الوحي والموقف منها

لعلك، أيها القارئ الكريم، أدركت من خلال هذا العرض مصدر القرآن الكريم، وطريقة تلقي النبي ﷺ له من جبريل عليه السلام، ودور النبي ﷺ في التلقي والحفظ، ثم الدعوة والتبليغ، واتضح لك مقدار وثاقة المراحل التي تَنَزَّلَ فيها القرآن بما لا يدع مجالًا للشك في سلامة نصه، فقد نزل به الروح الأمين، إلى الصادق الأمين، وحفظه أصحابه، وكتبوه بين يديه، وهو ما سنتحدث عنه في الفصل الآتي، إن شاء الله.

وقد تكون الصورة التي ترسمها الروايات التاريخية غير كافية في كشف جميع ما ترغب النفس البشرية معرفته عن الوحي، لا سيما الجانب الخفي منه، لكنها وافية لبيان مصدر تنزيل القرآن الكريم، وبيان مقدار الثقة التي يُرَسِّخُهَا تتبع سيرة النبي ﷺ قبل البعثة وبعدها، وما تركه القرآن من آثار في نفوس أصحابه، ومن جاء بعدهم.

---

(١) ينظر: مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص ١٥٤.

إن إدراك ظاهرة الوحي، وتصديق ما جاءت به الروايات التاريخية الإسلامية حولها، والإيمان بما جاء به القرآن الكريم لبيانها، كل ذلك يرتبط بقضية كبرى، هي الإيمان بوجود خالق لهذا الكون، وأنه أرسل الرسل لهداية البشرية، وأن محمد بن عبد الله هو آخر تلك السلسلة المباركة، وثمة جانب غيبي لهذه القضية، لا تدركه الحواس البشرية، ولا يخضع لقوانين المادة، وإنما يرتبط بما يستشعره المرء في داخله من وجود خالق لهذا الكون، مدبر له، هو الذي أرسل الرسل، وأنزل معهم الكتب، ودَعَوُا الناس إلى الإيمان بالله تعالى، وباليوم الآخر.

وآمل - أيها القارئ الكريم - أنك قد اتضح لديك من خلال العرض السابق أصل القرآن الكريم، والمصدر الذي تلقاه منه رسول الله ﷺ، والطريقة التي أُنْزِلَ بها إليه، وآمل أن تُبْعِدَ عن فكرك الخواطر التي تشوش عليك الرؤية الصحيحة لتاريخ القرآن، فالاحتمالات العقلية لأصل القرآن ومصدره لا تتجاوز ثلاثة احتمالات:

الأول: أنه تنزيل من رب العالمين.

والثاني: أنه من تأليف النبي ﷺ نفسه.

والثالث: أنه مقتبس من مصادر بشرية.

إن القرآن الكريم يؤكد أنه تنزيل من رب العالمين ،في آيات كثيرة جداً[1]،

---

(١) أنقل منها ما يأتي، قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾ [آل عمران].
﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١﴾ [الكهف]. =

والنبي ﷺ يقول إنه تلقاه من عند الله تعالى، وليس من تأليفه[١]، لكن المشركين في عصر البعثة لم تستوعب عقولهم القاصرة حقيقة ذلك الإيمان، ولم تجتمع لهم كلمة على وصفٍ مُعَيَّنٍ للقرآن، فقالوا: إنه أساطير الأَوَّلين، أو مُفْتَرًى، أو أنَّ النبي ﷺ اقتبسه من غيره وادَّعاه لنفسه، ولَمَّا لم يجدوا هذه

= ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ [الفرقان].
﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [السجدة].
﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر].
﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢﴾ [غافر].
﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ۝٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ۝٧٩ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠﴾ [الواقعة].

(١) صَرَّحَ رسول الله ﷺ بذلك في أحاديث كثيرة، منها:

- ما أخرجه البخاري ومسلم، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، قال: «ما من الأنبياء نبي إلا أُعْطِيَ من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتِيتُ وحيًا أوحاه الله إلي، فأرجو أني أكثرهم تابعًا يوم القيامة». (ينظر: صحيح البخاري ٩/٩٢، رقم الحديث ٧٢٧٤)، وصحيح مسلم ١/١٣٤، رقم الحديث ١٥٢)، وقال ابن حجر العسقلاني (فتح الباري ٩/٦): «أي إن معجزتي التي تحديت بها الوحي الذي أنزل علي وهو القرآن».
- ما أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٨/٤١٠، رقم الحديث ١٧١٧٤) عن المقدام بن معدي كرب الكندي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ألا إني أُوتِيتُ الكتاب ومثله معه، ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه». (وينظر: الخطيب البغدادي: الكفاية ص ٨).
- وقد أَكَّدَ القرآن الكريم ذلك في آيات كثيرة، ووَجَّهَ النبيَّ إلى القول بأن القرآن منزل من عند الله، ولا يملك تغييره أو تبديله، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [يونس: ١٥].

الأقاويل مقنعة لهم قبل غيرهم، قالوا: إنه سحر[١]، وتحداهم القرآن أن يأتوا بمثله، أو بسورة من مثله، فعجزوا وانقطعوا، وسلكوا طريق الحرب، بعد أن عجزوا أن ينتصروا عن طريق الحجة والفكر[٢].

فاختر لنفسك أيها القارئ الكريم القول السديد، المؤيد ببرهان العقل، الذي يطمئن إليه قلبك، وأحسب أنك توافقني بعد الذي اطلعتَ عليه من شواهد التاريخ، وآيات القرآن الكريم الواضحة البينة، أن القرآن لا يمكن نسبته إلى مصدر أرضي، وإنما هو تنزيل من رب العالمين، نزل به الروح الأمين، على قلب النبي الأمي محمد بن عبد الله ﷺ.

*****

هذا، ولم تندثر شبهات مُشْرِكِي مكة حول القرآن، فقد وَجَدَ فيها الملحدون ومنكرو النبوات وسيلة لتشكيك الناس في هذا الزمان بالقرآن، وصَرْفِهِم عن هداية الرحمن، فرددها كثير منهم، مع ما قد يبتكره بعضهم من شبهات جديدة، لكن تقادم السنين، وتقدُّم الإنسان في الحضارة لم يسعفهم

---

(١) قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ۝٤ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا ۝٥ قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ۝٦﴾ [الفرقان]. وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٞ مُّفۡتَرٗىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ۝٤٣﴾ [سبأ].

(٢) كما جاء في القرآن الكريم: في سورة البقرة [٢٣]، وسورة يونس [٣٨]، وسورة هود [١٣].

ببرهان جديد حاسم، فظلوا يتخبطون بشبهاتهم، ودواعي الإيمان بهذا القرآن بأنه من عند الله تزداد وضوحًا، والتقدم العلمي يكشف عن معجزات القرآن الكريم التي تؤكد أنه لا يمكن أن يكون من كلام بشر، وإنما هو من عند الله خالق الكون.

إن ظاهرة الوحي ظلت تواجه المستشرقين فلا يتمكنون من إعطاء تفسير لها، بل يقعون في الحيرة والتناقض، ويلجؤون إلى الاتهامات القديمة التي سبق أن قالها العرب الجاهليون في مكة عند نزول الإسلام مما ذكره عنهم القرآن، قال تعالى يحكي تلك الاتهامات: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤].

وقال المستشرقون في القرن العشرين: إن الرسول ﷺ تَعَلَّمَ من ورقة بن نوفل، وقالوا: إنه تعلم من بَحِيرَى الراهب، ويرددون أحيانًا أنه تعلم من يهود مكة!! ومن المعروف أن مكة لم يكن فيها يهود، وأن لقاءه ببَحِيرَى - لو ثبت - لا يعدو الساعة أو الساعتين وهو غلام في الثانية عشرة من عمره!! وأن التوراة والإنجيل لم يترجما إلى العربية إلا بعد قرون من عمر الرسالة، ولو كانا قد ترجما فإن أميته تحول دون إفادته منهما.

نعم يوجد ثمة تشابه بين القصص الديني في القرآن وما ورد في التوراة (وشرحه التلمود) والإنجيل، وهو تشابه مرجعه وحدة المصدر الإلهي، كما أن ثمة اختلافًا جوهريًا في التصور النهائي للأنبياء وتنزيههم في أعمالهم وخصائصهم بين القرآن والكتب المنزلة السابقة عليه، وهو اختلاف يرجع إلى

ما تعرضت له تلك الكتب من تحريف وتبديل يجعلها لا تمثل بصدق (كلام الله)، ولكن الأهواء دفعت بعض الدارسين إلى القول بأن القرآن اقتبس تلك القصص من التوراة والإنجيل مُغْفِلِينَ عمدًا حقيقة الاختلاف الجوهري بين القرآن وغيره[١].

إن القرآن يؤكد صلته بالكتاب المقدس، وهو يثبت التشابه بينه وبين التوراة والإنجيل، وهو يؤكد هذه القرابة صراحة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [يونس]، وعلى كل حال، فإن هذه القرابة تسم القرآن بطابعها الخاص، فهو في كثير من المواضيع يبدو مكملًا أو مصححًا لمعلومات الكتاب المقدس، وعلى الرغم من أن القرآن يعلن بكل وضوح هذا التشابه والقرابة إلى الكتب السابقة، فإنه يحتفظ بصورته الخاصة في كل فصل من فصول الفكرة التوحيدية[٢].

** ** **

(١) ينظر: أكرم ضياء العمري: السيرة النبوية الصحيحة ١/١٣٠-١٣١.

(٢) ينظر: مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية ص ١٩٩.

الفصل الثاني

تدوين النص القرآني

إنَّ من آكَدِ وسائل التوثيق ما اقترن فيه الحفظ في الصدور بالكتابة في السطور، وكان رسول الله ﷺ قد حَفِظَ القرآن، ولم يكن بحاجة للتدوين لتثبيت ذلك الحفظ في قلبه، بعد أن تكفل الله له بأنْ يحفظ القرآن ولا ينساه، وحَفِظَهُ كُلَّهُ عدد من أصحابه أيضًا، وحَفِظَ أجزاءً منه جميع أصحابه، ولكنه ﷺ لم يكتف بذلك الحفظ، لأنَّ آفة الحفظ النسيان، والقرآن مِلْكُ الأمة الإسلامية في عصورها المتعاقبة، فحق الأجيال اللاحقة أن تجد نص القرآن محفوظًا كما أُنْزِلَ، ومن ثم فإن العناية بكتابة القرآن الكريم وتدوينه في الصُّحُفِ والرِّقَاع برزت في وقت مبكر من زمن البعثة النبوية، ولم يتأخر التدوين عن زمن التنزيل، على الرغم من قلة الكَتَبَةِ في ذلك الوقت، وصعوبة وسائل الكتابة، فقد أمر رسول الله ﷺ بكتابة القرآن، واتخذ لنفسه كُتَّابًا يكتبون له، فتم تدوين القرآن في زمنه ﷺ، وظلت كتابة القرآن موضع عناية الخلفاء الراشدين من بعده، ويمكن تمييز ثلاث مراحل متعاقبة لتدوين القرآن، حَفِظَتِ النص الكريم من الضياع، أو طروء النقصان أو التحريف على نصه، وهي:

المرحلة الأولى: تدوين القرآن في الرقاع، في زمن النبي ﷺ.

المرحلة الثانية: جَمْعُ الرقاع في الصحف في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

والمرحلة الثالثة: نَسْخُ الصحف في المصاحف في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

وقد تناولتْ كتبُ علوم القرآن، وكتبُ الحديث الشريف، هذه المراحل بالتفصيل، ولا بد ونحن نبحث في وثاقة النص القرآني من النظر في تاريخ تدوين القرآن الكريم، فهذا الجانب من أهم الجوانب الدالة على أصالة النص الكريم، وحفظه مكتوبًا من لدن نزوله على رسول الله ﷺ، وفي زمن الخلفاء الراشدين من بعده، إلى عصرنا الحاضر.

وسوف أتتبع المعالم الرئيسية في كل مرحلة من مراحل تدوين القرآن الكريم، بمبحث مستقل، وأُتْبِعُ الحديث عن المراحل الثلاث بمبحث لدراسة خصائص الرسم العثماني، والوقوف على أصل الظواهر التي تميز بها، ومقدار أصالتها، وسوف أُخَصِّصُ مبحثًا خامسًا لبيان دلالة المصاحف المخطوطة القديمة على سلامة النص القرآني من التحريف أو الزيادة أو النقص، وهي من أعظم الشهادات في التاريخ على أصالة النص القرآني!

** ** **

المبحث الأول

تدوين القرآن في الرقاع في زمن النبي ﷺ

هناك اتفاق بين الباحثين، قدماء ومحدثين، على أن تدوين القرآن الكريم بدأ في العصر النبوي، وتؤكد المصادر الإسلامية على أن القرآن الكريم كُتِبَ كُلُّهُ في زمنه ﷺ، مفرقًا في الرقاع، ولا شك في أن كتابة القرآن الكريم في العصر النبوي من الموضوعات المهمة في بيان وَثَاقة النص القرآني، فهذه الكتابة هي الأساس الذي قام عليه المصحف بعد ذلك، فقد جُمِعَتِ الرقاع التي كُتِبَ عليها القرآن في العهد النبوي في صُحُفٍ منظمة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ونُسِخَتِ الصُّحُفُ في المصاحف في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، ووُزِّعَتْ على الأمصار الإسلامية، واتخذها المسلمون أئمة ينسخون منها مصاحفهم، فالمصاحف الشريفة كلها تستند إلى الرقاع التي كُتِبَ فيها القرآن الكريم في العصر النبوي.

وسوف أتتبع موضوع كتابة القرآن في العصر النبوي تتبعًا تاريخيًا، فأذكر أولًا ما يدل على حصول كتابة القرآن في مكة قبل الهجرة، وما يتعلق بنقل الرقاع المكتوبة من مكة إلى المدينة، ثم أذكر ما يتعلق بكتابته في المدينة بعد الهجرة، وأخصص فقرة للحديث عن اهتمام النبي ﷺ بتدقيق النص المكتوب من القرآن مع كُتَّابِ الوحي.

المطلب الأول: كتابة القرآن الكريم في مكة قبل الهجرة

كانت الكتابة قليلة في بلاد العرب، وقتَ نزول القرآن الكريم، كما ذَكَرَ المؤرخون، فقد قال ابن سعد وابن قتيبة: «كانت الكتابة في العرب قليلة»[١]، ونَقَلَ البلاذري في كتابه (فتوح البلدان)، عن محمد بن عمر الواقدي[٢]، عن خالد بن إلياس[٣]، عن أبي بكر بن عبد الله بن أبي الجهم العدوي[٤]، قال: دَخَلَ الإسلام وفي قريش سبعة عشر رجلًا كلهم يَكْتُبُ، وذَكَرَ أسماءهم[٥]. وقال الواقدي: «وكان الكِتَابُ بالعربية في الأوس والخزرج قليلًا، وكان بعض اليهود قد عَلِمَ كِتَاب العربية، وكان يُعَلِّمُهُ الصبيان بالمدينة، فجاء

---

(١) الطبقات الكبرى ٣/٤٩٨، والمعارف ص ٣٠٠.

(٢) محمد بن عمر بن واقد الأسلمي الواقدي، أبو عبد الله المدني، من أهل المدينة ثم انتقل إلى بغداد، وولي القضاء بها، مُحَدِّثٌ، مؤرِّخ، ضَعَّفَهُ العلماء بالحديث، وهو حجة في السيرة والتاريخ، وأشهر من روى عنه محمد بن سعد في الطبقات الكبرى، توفي بغداد سنة ٢٠٧هـ. (ينظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٤/٥-٣١، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٩/٤٥٤-٤٦٩).

(٣) خالد بن إلياس بن صخر بن أبي الجهم، أبو الهيثم العدوي المدني، من أتباع التابعين، مُحَدِّثٌ ومؤرخ، وأَمَّ بمسجد رسول الله ﷺ في المدينة نحوًا من ثلاثين سنة، يروي عن أبي بكر بن عبد الله وغيره، وروى عنه الواقدي كثيرًا من الروايات، وهو ضعيف عند أهل الحديث (ينظر: ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ٣/٣٢١، وابن حجر: تهذيب التهذيب ٣/٧٠)، وقال ابن عدي في الكامل (٣/٤١٧): «ومع ضَعْفِهِ يُكْتَبُ حديثه».

(٤) أبو بكر بن عبد الله بن أبي الجهم العدوي، واسم أبي الجهم صُخَيْرٌ، من التابعين، علَّامة نسَّابة مُحَدِّثٌ ثقة، وكان فقيهًا. (ينظر: ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ٩/٣٣٨، وابن حجر: تهذيب التهذيب ١٢/٢٦).

(٥) فتوح البلدان ص ٤٥٣.

الإسلام وفي الأوس والخزرج عِدَّةٌ يكتبون»، وذَكَرَ أحد عشر رجلًا[١].

ولم يُعْرَفْ لعرب الحجاز نشاط ثقافي مُدَوَّنٌ قبل الإسلام، ولم تكن هناك أنشطة تستدعي الكتابة على نطاق واسع، وكان الشعر والخطابة وسيلتهم للتعبير عن مشاعرهم وأغراضهم، وكانت الكتابة شائعة في جنوب الجزيرة العربية وشمالها قبل الإسلام، فكان أهل اليمن يكتبون بالمُسْنَد، وهو خط أهل اليمن القديم، وكانت قبائل شمال الجزيرة قد كَتَبَتْ بخط مشتق من المسند، وكانت للأنباط كتابةٌ مشتقة من الكتابة الآرامية التي كانت سائدة في بلاد الشام، وأخذها عنهم أهل الحجاز قبل الإسلام بعدة قرون، وعُرِفَتْ بالخط الحجازي، الذي دُوِّنَ به القرآن الكريم[٢].

وقد وَصَفَ الله تعالى العرب في القرآن بالأميين، ووَصَفَ رسولَه ﷺ بالنبي الأُمِّيِّ، قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ [الجمعة]. وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾ ﴿۝١٥٧ ... فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝١٥٨﴾ [الأعراف]، والمعنى الذي يذهب إليه أكثر المفسرين لكلمة (الأُمِّيِّ) هو أنه الذي لا يكتب ولا يقرأ، ومعنى كلمة (الأُمِّيِّينَ) هم الذين لا يكتبون ولا يقرؤون، وقد وَصَفَ القرآنُ النبيَّ ﷺ بالأُمِّيِّ لأنه لم يقرأ كتابًا، ولا تَعَلَّمَ الكتابة، ووَصَفَ العرب

(١) فتوح البلدان ص ٤٥٥.

(٢) ينظر: كتابي: علم الكتابة العربية ص ٣٠-٥٢.

بالأُمِّيِّينَ لأنَّ أكثرهم كانوا لا يكتبون ولا يقرؤون[١].

كان رسول الله ﷺ أُمِّيًّا، وكانت الأُمِّيَّةُ فضيلةً في حقه[٢]، لأنها أَدَلُّ على صدق ما جاء به[٣]، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [العنكبوت]، لكنه مع ذلك اعتنى بموضوع الكتابة كثيرًا، واتخذ له كُتَّابًا يكتبون له الوحي، ويكتبون رسائله وعهوده وما كان يأمر به، حتى بلغ عدد كُتَّابه من صحابته أكثر من أربعين كاتبًا[٤].

وشَجَّعَ رسول الله ﷺ على تَعَلُّمِ الكتابة، حتى إنه جَعَلَ فداء أسرى بدر مِمَّنْ لم يكن له مال أن يُعَلِّمَ صبيان الأنصار الكتابة، فَيُعَلِّمَ كلُّ واحد عشرة من المسلمين الكتابة[٥]، فقلَّتِ الأمية بين العرب بعد انتشار الإسلام بينهم.

وقد أمر رسول الله ﷺ بكتابة القرآن، حفظًا له من الضياع، على الرغم من أميته ﷺ، وقلة الكَتَبَةِ، وصعوبة الوسائل، وذلك إدراكًا منه لأهمية الكتابة في حفظ أصل الدين، الذي بعثه الله تعالى لتبليغه للبشرية، ولأن «الْكِتَابَةَ أضبطُ

---

(١) وقيل: المقصود بالأميين العرب، مَن قرأ منهم ومَن لم يقرأ، لأنهم لم يكونوا أهل كتاب. (ينظر: الطبري: جامع البيان ٢/٢٥٧-٢٥٩، و٢٣/٣٧١-٣٧٢، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١٨/ ٩١-٩٢، وجواد علي: المفصل ١٥/٩٢-١٠٥).

(٢) ينظر: السخاوي: الوسيلة ص ٩٤.

(٣) ينظر: ابن عبد ربه: العقد الفريد ٤/٢٤٣.

(٤) ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/٦٩، ونصر الهوريني: المطالع النصرية ص ٥٦، ومحمد مصطفى الأعظمي: كُتَّاب النبي ﷺ ص ٥ و١١٢.

(٥) ينظر: أبو عبيد: الأموال ص ١٥٣-١٥٤، ومسند الإمام أحمد ٣/٢٠، وابن زنجويه: الأموال ١/٣٠٩-٣١٠.

من صُدُور الرِّجَال»، كما قال الأزهري[١]، على الرغم من أن البيئة الثقافية في مكة لم تعهد مثل هذا النشاط الجديد الذي صاحب نزول القرآن الكريم، ويدل الأمر بكتابة القرآن في مثل تلك الظروف على أن ذلك لم يكن مصادفة، ولا انعكاسًا لتقليدٍ سائدٍ في مكة، وإنما هو إلهام رباني، وٱستشراف نبوي للمستقبل لهذا الدين.

ونُقِلَ عن النبي ﷺ أنه قال: «قَيِّدُوا العِلْمَ بالكِتَابِ»[٢]، أي بالكتابة، وهذا القول من جوامع الكلم، فقد جَعَلَ ﷺ الكتابة كالقيد للعلم، فلا يَذْهَبُ ولا يُنْسَى، والكِتَابَةُ أضبطُ من صُدُور الرِّجَال، كما قال الأزهري، وكان القرآن الكريم أَوْلَى بالتقييد من غيره، حتى لقد قال رسول الله ﷺ في الحديث المشهور الذي رواه أبو سعيد الخدري: «لا تكتبوا عني شيئًا إلا القرآن، ومَن كَتَبَ عني شيئًا غير القرآن فَلْيَمْحُهُ»[٣]، وكان النهي خشية أن يختلط الحديث بالقرآن، وقد أَذِنَ لبعض الصحابة بكتابة الحديث بعد ذلك[٤].

---

(١) الأزهري: تهذيب اللغة ٢/١٧٠، وينظر: ابن منظور: لسان العرب ٨/٢٨.

(٢) رُوِيَ مرفوعًا عن أنس بن مالك. (ينظر: المُخَلِّص: المخلصيات ١/٣٤٠، و٢/٢٩٠، وابن عبد البر: جامع بيان العلم وفضله ١/٣٠٦، والقضاعي: مسند الشهاب ١/٣٧٠)، وروي موقوفًا على أنس، وأنه كان يقول لبنيه: «قَيِّدُوا العِلْمَ بالكتاب» (ينظر: زهير بن حرب: كتاب العلم ص ٢٩، والطبراني: المعجم الكبير ١/٢٤٦، والحاكم: المستدرك ١/١٨٨)، وروي موقوفًا أيضًا على عمر بن الخطاب أيضًا (ينظر: ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف ٥/٣١٣، وسنن الدارمي ١/٤٣٧، والحاكم: المستدرك ١/١٨٨)، وقد يكون أصل الحديث مرفوعًا، وتمثل به كل من أنس وعمر رضي الله عنهما.

(٣) ينظر: صحيح مسلم ٤/٢٢٩٨، ومسند أحمد ١٧/١٤٩، والحاكم: المستدرك ١/٢١٦.

(٤) ينظر: القاضي عياض: إكمال المعلم ٨/٥٥٣، وابن الجوزي: إخبار أهل الرسوخ ص ٥٥، وابن حجر: فتح الباري ١/٢٠٨.

وكانت كتابة القرآن الكريم لا تتأخر عن زمن التنزيل، فقد نَقَلَ بعض الصحابة عن النبي ﷺ أنه كان كُلَّمَا نَزَلَ عليه الوَحْيُ دعا بعض مَن يَكْتُبُ له، فيقول له: ضَعْ هذه الآية أو الآيات في السورة التي يُذْكَرُ فيها كذا وكذا[١].

وهناك دلائل قوية على كتابة القرآن الكريم في مكة قبل الهجرة، وإن كانت مقتضبة، ولعل الظروف القاسية التي مرت بها الدعوة في العهد المكي أَخْفَتْ كثيرًا من التفاصيل المتعلقة بالكتابة، وسوف أعرض ما تيسر لي من تلك الدلائل في ما يأتي:

(١) ذَكَرَ المؤرخون أنَّ أول مَن كتب القرآن للنبي ﷺ في مكة عبد الله ابن سعد بن أبي سرح، فَأَزَلَّهُ الشيطان وٱرْتَدَّ[٢]، ورجع إلى الإسلام بعد فتح

---

(١) أخرجه أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٢٨٠) عن يزيد الفارسي، عن ابن عباس، عن عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (١/٣٧٨)، والترمذي في سننه (٥/١٢٣)، والحاكم في مستدركه وصححه (٢/٣٦٠) على نحو أكثر تفصيلًا، ويزيد الفارسي من أهل البصرة، روى عن ابن عباس غير حديث، لا بأس به، وقيل: هو غير يزيد بن هرمز المدني (ينظر: ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ٩/٢٩٣-٢٩٤، وابن حجر: تهذيب التهذيب ١١/٣٧٤).

(٢) ورد في بعض المصادر التاريخية عن الواقدي أن عبد الله بن سعد ارتد، ورجع إلى مكة (ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١/٦٨، وابن الأثير: أسد الغابة ١/٦٢)، ويعني ذلك أنه كان في المدينة، ولا يتناسب ذلك مع ما ذُكِرَ من أن الآية: (ومَن أظلمُ مِمَّن افتَرَى على اللهِ كَذِبًا، أو قال أُوحِيَ إليَّ ولم يُوحَ إليه شَيْءٌ) [الأنعام: ٩٣] نزلت بحقه، فسورة الأنعام مكية، وكذلك ما ذُكِرَ من أنَّ سبب ارتداده أن النبي ﷺ كان يملي عليه الآيات من سورة المؤمنين الخاصة بخلق الإنسان [١٢-١٤]، التي خُتِمَتْ بقوله تعالى: (فتبارَكَ اللهُ أحسنُ الخالقين)، فهي مكية أيضًا(ينظر: الفراء: معاني القرآن ١/٣٤٤، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٧/٤٠-٤١).

مكة، وحَسُنَ إسلامه ولم يظهر منه شيء يُنْكَرُ عليه، وشارك في فتح مصر وإفريقية[١]. وكَتَبَ لرسول الله بعد ارتداد ابن سرح عثمان بن عفان، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص[٢]، وهم مِمَّن كان يكتب في مكة وقت ظهور الإسلام[٣].

(٢) وجود صُحُفٍ كُتِبَتْ عليها آياتٌ من القرآن في مكة، مثل الصحيفة التي كُتِبَ عليها أول سورة طه، وأول سورة التكوير، وكانت سببًا في إسلام عمر ابن الخطاب، فقد أخرج محمد بن إسحاق في السيرة أن عمر بن الخطاب قصد بيت أخته فاطمة بعدما سمع أنها أسلمت هي وزوجها سعيد بن زيد، فوجد عندهما خَبَّابَ بنَ الأَرَتِّ، يقرئهما سورة طه، وإذا الشمس كورت، فطلب عمر الصحيفة، فَدَفَعَتْ إليه فاطمة الصحيفة، وكان عمر يقرأ الكتاب، فقرأ: (طه) حتى إذا بلغ: (إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى) إلى قوله: (فَتَرْدَى)، وقرأ: (إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ) حتى بلغ: (عَلِمَتْ نَفْسٌ ما أَحْضَرَتْ)، فأسلم عند ذلك عمر، وكان إسلامه سنة ست من البعثة[٤].

(٣) اتخاذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مكانًا لتعليم الصحابة القرآن، وكان الأرقم كاتبًا[٥]، وقد اتخذ النبي ﷺ من داره في الصفا مكانًا يلتقي فيه

---

(١) ينظر: تاريخ الطبري ١٧٣/٣، و٥٤٠/١١، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن ٤٠/٧، وابن حجر: فتح الباري ٢٢/٩.

(٢) ينظر: ابن عساكر: تاريخ دمشق ٢٧/٢٩-٢٨.

(٣) ينظر: البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٥٣، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ٤٢٢/١.

(٤) ينظر: محمد بن إسحاق: سيرة ابن إسحاق ص ١٨٣، وابن هشام: سيرة ابن هشام ص ٣٠٤، والحاكم: المستدرك ٦٥/٤، وابن الأثير: أسد الغابة ٦٤٨/٣.

(٥) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢٦٤/١، وابن كثير: السيرة النبوية ٦٧١/٤، وابن حديدة: المصباح المضي ٧٥/١.

بأصحابه، بعيدًا عن أعين المشركين في مكة وأذاهم، فإنه ﷺ لَمَّا خاف كفار قريش ٱخْتَفَى هو ومن معه في دار الأرقم، إلى أنْ أسلم عمر فخرجوا، وقد بلغوا أربعين رجلًا(١).

وكان الأرقم قديم الإسلام، وكان من المهاجرين الأولين، وتوفي بالمدينة سنة ٥٣ هـ، وهو ابن خمس وثمانين سنة(٢).

(٤) نَقْلُ الرقاع التي كُتِبَ عليها القرآن الكريم من مكة إلى المدينة.

إن الأخبار الخاصة بكتابة القرآن الكريم قبل الهجرة لا تتناسب وما نَزَلَ من القرآن بمكة، لكنَّ ورود أخبار تتحدث عن نقل الرقاع التي كُتِبَ عليها القرآن الكريم في مكة إلى المدينة يشير إلى كتابته على نطاق واسع.

ولم يشتهر خبر نقل الرقاع من مكة إلى المدينة، فقد خلت منه كتب علوم القرآن الكريم القديمة والمعاصرة، ولولا ورود إشارة إليه في ترجمة رافع بن مالك الزُّرَقِيِّ في بعض المصادر لظل مجهولًا، وجاءت تلك الإشارة في الترجمة التي كَتَبَهَا ابن حجر العسقلاني للصحابي رافع بن مالك الزُرَقِيِّ، رضي الله عنه، في كتاب (الإصابة في تمييز الصحابة)، التي قال فيها: «رافع بن مالك ابن العجلان بن عمرو بن عامر بن زُرَيْقٍ، الأنصاريُّ الزُّرَقِيُّ شَهِدَ العقبة، وكان أحد النقباء... كان أول مَن أسلم من الخزرج... وحكى ابن إسحاق أن رافع بن مالك أول مَن قَدِمَ المدينة بسورة يوسف.

---

(١) ينظر: ابن الأثير: أسد الغابة ١/٢٦، و١/٧٤.

(٢) ينظر: أبو نعيم: معرفة الصحابة ١/٣٢٢-٣٢٣، وابن عبد البر: الاستيعاب ١/١٣١-١٣٢، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/٤٧٩-٤٨٠.

وروى الزُّبير بن بكَّار في أخبار المدينة عن عمر بن حنظلة أن مسجد بني زُرَيْقٍ أولُ مسجد قُرِئَ فيه القرآن، وأنَّ رافع بن مالك لَمَّا لَقِيَ رسول اللهِ ﷺ بالعقبة أعطاه ما أُنْزِلَ عليه في العشر سنين التي خَلَتْ، فَقَدِمَ به رافعٌ المدينة، ثم جَمَعَ قومه فَقَرَأَ عليهم في مَوضِعِه»[١].

وقال ابن سعد: «إن رافع بن مالك الزرقي ومعاذ بن عفراء خَرَجَا إلى مكة معتمرين، فَذُكِرَ لهما أَمْرُ رسول الله ﷺ، فَأَتَيَاهُ، فَعَرَضَ عليهما الإسلام فأسلما، فكانا أَوَّلَ من أسلم، وقَدِمَا المدينة، فأول مسجد قُرِئَ فيه القرآن بالمدينة مسجد بني زُرَيْقٍ»[٢].

وقال ابن سعد، وهو يتحدث عن النقباء الاثني عشر الذين اختارهم رسول الله ﷺ، في لقاء العقبة الثاني، وذكر منهم رافع بن مالك: «وكان رافع ابن مالك من الكَمَلَةِ، وكان الكامل في الجاهلية الذي يَكْتُبُ ويُحْسِنُ العَوْمَ والرَّمْيَ، وكان رافع كذلك، وكانت الكتابة في القوم قليلًا... ويُجْعَلُ في الستة النَّفَرِ الذين يُرْوَى أنهم أول من أسلم من الأنصار وليس قبلهم أحد... وقد شهد رافع بن مالك العقبة مع السبعين من الأنصار، وهو أحد النقباء الاثني عشر الذين من الأنصار، ولم يشهد رافع بن مالك بدرًا، وشهدها ابناه رِفَاعَةُ وخَلَّادٌ، ولكنه شهد أُحُدًا، وقُتِلَ يومئذ شهيدًا، في شوال على رأس اثنين وثلاثين شهرًا من الهجرة»[٣].

---

(١) الإصابة ٢/٣٦٩-٣٧٠.

(٢) الطبقات الكبرى ١/٢١٨.

(٣) الطبقات الكبرى ٣/٦٢٢.

كان رافع بن مالك الزرقي ثاني اثنين خرجا من يثرب معتمرين، هو ومعاذ بن عفراء، ولَقِيَا رسولَ الله ﷺ، وأسلما، ثم كان أحد الستة الذين لَقُوا رسول الله ﷺ في العقبة الأولى، وكان أحد السبعين الذين شهدوا بيعة العقبة الثانية، وكان أحد النقباء الاثني عشر، الذين اختارهم رسول الله ﷺ من بين السبعين، كما تقدَّم.

وأخذ رافع بن مالك، في إحدى رحلاته الثلاث إلى مكة، سورة يوسف عن رسول الله ﷺ، وكان أول مَن قَدِمَ بها المدينة، ويُحْتَمَلُ أن يكون أخذها عنه مكتوبة، أو أخذها عنه مشافهة.

وأعطى رسول الله ﷺ رافعًا، في إحدى تلك الرحلات، ما نَزَلَ عليه من القرآن في مكة، في عشر سنوات، لينقله إلى المدينة، ولا يمكن أن يكون ذلك إلا مكتوبًا، لأن تلقيه مشافهة وحفظه في ليلة واحدة أمر غير ممكن، وخَصَّهُ رسول الله ﷺ بذلك لكونه كان كاتبًا، قال السمهودي: «وكان يُقَالُ لرافع بن مالك (الكامل)، لأن أهل الجاهلية كانوا يقولون لِمَن كان كاتبًا شاعرًا الكامل»[1].

وخلاصة القول في هذه المسألة أن رافع بن مالك الزرقي حَمَلَ الرقاع التي كُتِبَ عليها القرآن من مكة إلى المدينة، وبنى مسجدًا في قومه يُعَلِّمُ فيه القرآن، وتأسس حول المسجد كُتَّابٌ للتعليم، لكن استشهاده المبكر في معركة أحد قد وضع حدًا لنشاطه، وانحسار أخباره، رضي الله عنه، ولم أقف على خبر يشير إلى مصير تلك الرقاع، بعد وصولها إلى المدينة، لكن لعلها كانت ضمن

(١) وفاء الوفا ١/١٦٣.

الرقاع التي كان زيد بن ثابت ومن معه من كُتَّاب الوحي يراجعونها عند النبي ﷺ، ويؤلفون القرآن منها، كما ورد في الحديث الذي أخرجه الحاكم وغيره، كما سيأتي بيان ذلك.

وثمة أمور تتعلق بما كُتِبَ من القرآن بمكة، منها: مَن الذي قام بالكتابة؟ وما المواد التي كُتِبَ عليها؟ وأين كانت تودع تلك المكتوبات؟

أَمَّا مَن قام بالكتابة فكُتَّاب الوحي الذين كانوا مع رسول الله ﷺ في مكة، ومنهم: عثمان بن عفان[١]، وعلي بن أبي طالب، وغيرهما من الصحابة الذين كانوا يكتبون[٢]، «قال أبو بكر بن أبي شيبة: كان أول مَن كَتَبَ الوحي بين يدي رسول الله ﷺ أُبَيَّ بن كعب، فإذا لم يحضر كتب زيد بن ثابت، وكَتَبَ له عثمان وخالد بن سعيد وأبان بن سعيد، هكذا قال -يعني بالمدينة- وإلا فالسور المكية لم يكن أُبَيٌّ بن كعب حال نزولها، وقد كَتَبَهَا الصحابة بمكة رضي الله عنهم»[٣].

وأما المواد التي كُتِبَ عليها القرآن فالمتوقع أنها المواد نفسها التي كُتِبَ عليها القرآن بعد ذلك في المدينة، وفي مقدمتها الرقاع من الجلد، والأكتاف، ونحوها، فلم تكن وسائل الكتابة في مكة أحسن حالًا منها في المدينة.

---

(١) نقل المحدثون وأهل التاريخ أن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال عن يده: «أما والله إنها لأول كف خَطَّتِ المُفَصَّل». (ينظر: مصنف ابن أبي شيبة ٥٢٠/٧، وتاريخ خليفة ص ١٧٤، وابن شبة: تاريخ المدينة ١٢٨٥/٤، وتاريخ الطبري ٣٨٤/٤، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ١٤١/١).

(٢) ينظر: تاريخ الطبري ١٧٩/٦.

(٣) ينظر: ابن كثير: البداية والنهاية ٣٤٠/٥، والسيرة النبوية (له) ٦٦٩/٤.

وأما أين كانت تودع الرقاع التي يُكْتَبُ عليها القرآن في مكة فقد تكون في بيت رسول الله ﷺ، أو بيوت بعض الصحابة الذين كانوا يكتبون له، أو في دار الأرقم التي كان يلتقي فيها النبي ﷺ بأصحابه يعلمهم القرآن، ويبدو أن تلك الرقاع كانت مجموعة في سَفَطٍ أو وعاء يسهل حمله ونقله، فحملها رافع بن مالك إلى المدينة، كما تقدَّم.

المطلب الثاني: كتابة القرآن الكريم في المدينة

حَصَلَ تَغَيُّرٌ كبير في حال المسلمين بعد هجرة النبي محمد ﷺ إلى المدينة، وتهيأت وسائل تدوين القرآن، بعد أَنْ أَمِنَ المسلمون، وأغناهم الله تعالى من فضله، وكَثُرَ الكُتَّاب بين يدي النبي ﷺ، فاتخذ منهم كُتَّابًا يكتبون له الوحي، كما كان له كُتَّاب يكتبون له ما يعرض له من أمور أخرى، وأول من كتب له الوحي في المدينة أبي بن كعب، وأكثر مَن كتب له الوحي زيد بن ثابت، وسوف أتحدث عن دورهما في كتابة الوحي، ومن خلال ذلك تظهر أهم معالم كتابة القرآن الكريم في المدينة المنورة في العهد النبوي.

أولًا: أول مَن كَتَبَ الوحي في المدينة:

كان أُبَيُّ بن كعب أَوَّلَ مَن كَتَبَ الوحي للنبي ﷺ بعد ما قَدِمَ المدينة، وكان إذا غاب كَتَبَ له زيد بن ثابت[1]، قال ابن سعد: «وكان أُبَيٌّ يَكْتُبُ في الجاهلية قبل الإسلام، وكانت الكتابة في العرب قليلة، وكان يَكْتُبُ في

(١) ينظر: البلاذري: فتوح البلدان ص ٤٥٤، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ١٧٣/٣، وابن عبد البر: الاستيعاب ٦٨/١، وابن الأثير: أسد الغابة ٦٢/١، وابن حجر: الإصابة ١٨١/١.

الإسلام الوَحْيَ لرسول الله ﷺ»[١].

وكان أُبَيٌّ بن كعب أَحَدَ الذين حفظوا القرآن في زمنه ﷺ، فقد روى البخاري وغيره عن أنس قال: «جَمَعَ القرآن على عهد النبي ﷺ أربعة، كلهم من الأنصار: أُبَيٌّ، ومعاذ بن جبل، وأبو زيد، وزيد بن ثابت»[٢]، ومعنى (جَمَعَ القرآنَ) أي حَفِظَهُ[٣].

وعن عبد الله بن عَمْرٍو، أن النبي ﷺ قال: خُذُوا القرآنَ، أو قال: اقرؤوا القرآن، من أربعة: عبد الله بن مسعود، وسالم مولى حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبي بن كعب[٤].

وعن أنس أن النبي ﷺ قال: أَقْرَأُ أمتي أُبَيٌّ بن كعب[٥]، وفي رواية الإمام أحمد: أقرؤها لكتاب الله أُبَيٌّ[٦]، وكان أُبَيٌّ يُعَلِّمُ الوفود إلى المدينة في السنة التاسعة القرآنَ[٧]، وقد جعله عمر بن الخطاب يؤم الناس في صلاة

---

(١) الطبقات الكبرى ٣/٤٩٨.

(٢) صحيح البخاري ٥/٣٧، (رقم الحديث ٣٨١٠)، و٦/١٨٧، (رقم الحديث ٥٠٠٣)، وصحيح مسلم ٤/١٩١٤، (رقم الحديث ٢٤٥٦)، وينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن ص ٣٧٤.

(٣) ينظر: ابن حجر: فتح الباري ٧/١٢٧.

(٤) ينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن ص ٣٧٢، وصحيح البخاري ٥/٣٦، (رقم الحديث ٣٨٠٨)، و٦/١٨٦، (رقم الحديث ٤٩٩٩)، وصحيح مسلم ٤/١٩١٣، (رقم الحديث ٢٤٦٤).

(٥) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/٣٤١، و٣/٤٩٨-٤٩٩، وابن عبد البر: الاستيعاب ١/٦٦.

(٦) مسند الإمام أحمد ٢٠/٢٥٢، وينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن ص ٣٧٣، وابن عبد البر: الاستيعاب ١/١٦.

(٧) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ١/٣٤٥، و١/٣١٦.

التراويح في رمضان[١].

وظل أُبَيُّ بن كعب يُسْهِمُ في كتابة القرآن الكريم وتعليمه بعد وفاة النبي ﷺ، لكنَّ تَقَدُّمَهُ في العمر، وملازمةَ المرض له قد أَضْعَفَ من قدرته على ذلك، فحين طَلَبَ والي الشام من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إرسال مَن يقوم بتعليمهم القرآن لم يخرج أُبَيٌّ بسبب ذلك[٢]، ولم يحضر عَرْضَ المصاحف في زمن عثمان رضي الله عنه بعد اكتمال نسخها، فأرسل إليه عثمان هانئًا البربري يستشيره في كتابة عدد من الكلمات في المصحف[٣].

وقد ٱخْتُلِفَ في تاريخ وفاة أُبَيِّ بن كعب، فمن قائل إنها كانت سنة تسع عشرة من الهجرة، أو سنة اثنتين وعشرين، وقيل إنه بقي إلى سنة ثلاثين، وهو ما رَجَّحَهُ محمد بن عمر الواقدي حيث قال: وهو أثبتُ هذه الأقاويل عندنا، لاستشارته في نَسْخِ المصاحف، زمن عثمان بن عفان رضي الله عنه[٤].

ثانيًا: أكثرُ مَن كَتَبَ الوَحْيَ في المدينة:

كان زيد بن ثابت أكثر مَن كَتَبَ الوَحْيَ للنبي ﷺ في المدينة، قال ابن عبد البر: «وكان أبي بن كعب مِمَّن كَتَبَ لرسول الله ﷺ الوحي، قبل زيد بن

---

(١) ينظر: ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف ٢٥٥/٧.

(٢) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣٥٦/٢.

(٣) ينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن ص ٢٨٦، والطبري: جامع البيان ٤٦٣/٥.

(٤) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥٠١/٣، وخليفة بن خياط: الطبقات ص ١٥٧، وابن عبد البر: الاستيعاب ٦٩/١، وابن الأثير: أسد الغابة ٦٣/١، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٤٠٠/١، وابن حجر: الإصابة ١٨١/١-١٨٢.

ثابت ومعه أيضًا، وكان زيدٌ أَلْزَمَ الصحابة لكتابة الوحي»[١]، وكان أهل المدينة يسمونه: كاتب الوحي[٢]، واشتهر ذلك عنه حتى صار يُعْرَفُ بكاتب الوحي[٣].

وكان عُمُرُ زيد بن ثابت حين هاجر رسولُ الله ﷺ إلى المدينة إحدى عشرة سنة، وكان قد حفظ سبع عشرة سورة، فقرأ على النبي ﷺ فأعجبه ذلك، ورده رسول الله ﷺ يوم بدر لصغر سنه، واُخْتُلِفَ في مشاركته في معركة أُحُدٍ، وكانت أول مشاهده الخندق، وكان ممن جمع القرآن في عهد النبي ﷺ، كما تقدَّم ذكر ذلك، وكَتَبَ الوحي بين يدي النبي ﷺ، وجمع القرآن في المصحف في زمن أبي بكر، وأسهم في نسخ المصاحف في زمن عثمان[٤].

وصارت كتابة القرآن الكريم في زمن النبي ﷺ على يد زيد بن ثابت أيسر وأقرب إلى التخصص، فقد كان يَسْكُنُ قريبًا من بيوت النبي ﷺ ومسجده، ويحتفظ في بيته بأدوات الكتابة، من ألواح وحبر، فكان إذا نزل الوحي أرسل إليه النبي ﷺ وأَمْلَى عليه الوحي.

أخرج ابن أبي داود في كتاب المصاحف، عن خارجة بن زيد، قال:

---

(١) الاستيعاب ١/٦٨.

(٢) ينظر: أحمد بن حنبل: فضائل الصحابة ١/٣٩٠.

(٣) ينظر: الطبري: جامع البيان ١/٥٩، والبغوي: شرح السنة ٤/٥٢٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء ٢/٤٢٧.

(٤) اخْتُلِفَ في تاريخ وفاته، فقيل سنة ٤٥هـ، وقيل غير ذلك. (ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/٥٣٧-٥٣٨، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/١٢٦-١٢٧، وابن حجر: الإصابة ٢/٤٩٠-٤٩٢).

دَخَلَ نَفَرٌ على زيد بن ثابت، فقالوا: حَدِّثْنَا بعضَ حديث رسول الله ﷺ، فقال: ماذا أُحَدِّثُكُم! كنت جار رسول الله ﷺ، فكان إذا نزل الوحي أرسل إليَّ فكتبتُ الوحي، وكان إذا ذكرنا الآخرة ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الدنيا ذكرها معنا، وإذا ذكرنا الطعام ذكره معنا، فكل هذا أُحَدِّثُكُم عنه»[١].

وكان زيد بن ثابت قد هَيَّأَ أدوات الكتابة في بيته، مثل الدواة والألواح، فقد أخرج البخاري في صحيحه عن البراء بن عازب، قال: «لَمَّا نزلت: (لا يستوي القاعدون من المؤمنين... والمجاهدون في سبيل الله) [النساء: ٩٥]، قال النبي ﷺ: «ٱدْعُ لي زيدًا وَلْيَجِئْ باللوح والدواة، أو الكتف والدواة»، ثم قال: ٱكْتُبْ: (لا يستوي القاعدون)...»[٢].

ولا شك في أن من دواعي الثقة بعمل زيد في كتابة القرآن بعد وفاة النبي ﷺ كونه كَتَبَ الوحي بين يديه ﷺ، ومِن ثَمَّ نَدَبَهُ أبو بكر لجمع القرآن في الصحف، ونَدَبَهُ عثمان لنسخ الصحف في المصاحف، كما هو معروف[٣].

---

(١) كتاب المصاحف ١/١٤٥.

(٢) صحيح البخاري ٤/٢٤، (رقم الحديث ٢٨٣١)، و٦/١٨٤، (رقم الحديث ٤٩٩٠)، وينظر: ابن أبي شيبة: الكتاب المصنف ٤/٢٢٦، (رقم الحديث ١٩٥١٨)، وصحيح مسلم ٣/١٥٠٨، (رقم الحديث ١٨٩٨)، ومسند أحمد ٣٠/٤٣٨، (رقم الحديث ١٨٤٨٥).

(٣) كان زيد بن ثابت قد حاز ثقة النبي ﷺ، فائتمنه على كتابة الوحي بعد أن عَرَفَ مهارته في الكتابة، وطَلَبَ منه أيضًا أن يتعلم الكتابة السريانية أو العبرانية، فتعلمها في سبعة عشر يومًا. (ينظر: سنن الترمذي ٤/٣٦٥، والطبراني: المعجم الكبير ٥/١٥٥، والحاكم: المستدرك ٣/٤٧٧، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/١٤٣).

المطلب الثالث: التدقيق والمراجعة للنص القرآني في العهد النبوي

كان رسول الله ﷺ حريصًا على كتابة القرآن الكريم، وعلى تدقيق المكتوب، حتى يكون سليمًا من الأخطاء، وكان التدقيق يتم على مرحلتين، كما بَيَّنَتْ ذلك الروايات المنقولة عن زيد بن ثابت، كاتب الوحي رضي الله عنه، المرحلة الأولى عند إملاء القرآن على كَتَبَةِ الوحي بعد التنزيل مباشرة، والثانية مراجعة الرقاع التي كُتِبَ عليها القرآن الكريم بعد ذلك.

أولًا: التدقيق الفوري للنص المكتوب

أخرج الطبراني وغيره، عن سعيد بن سليمان بن زيد بن ثابت، عن أبيه، عن جده زيد بن ثابت، أنه قال: «كنتُ أَكْتُبُ الوَحْيَ عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، وهو يُمْلِي عَلَيَّ، فإذا فَرَغْتُ قال: ٱقْرَأْهُ، فَأَقْرَؤُهُ، فإنْ كان فيه سَقَطٌ أَقَامَهُ، ثم أَخْرُجُ به إلى الناس»[1]. ويتضمن هذا الخبر أربعة أعمال، هي:

١. إملاء النبي ﷺ على زيد ما نزل عليه من الوحي.

٢. قراءة زيد لِمَا أملاه رسول الله ﷺ عليه من القرآن وكتبه.

٣. إصلاح زيد ما فيه من أخطاء، إنْ وُجِدَتْ.

---

(١) الفسوي: المعرفة والتاريخ ١/ ٣٧٧، والطبراني: المعجم الكبير ٥/ ١٤٢، والمعجم الأوسط (له) ٢/٢٥٧، والصولي: أدب الكتاب ص ١٦٥، والخطيب البغدادي: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/١٣٣، والقاضي عياض: الإلماع ص ١٦١، والسمعاني: أدب الإملاء ص ٧٧، والهيثمي: مجمع الزوائد ٨/ ٢٥٧. وفي روايات بعض المصادر للحديث زيادة، وليس في بعضها: (ثم أخرج به إلى الناس)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله ثقات.

٤. تبليغ زيد للنص المكتوب للصحابة ليتعلموه.

واستدل علماء الحديث بهذا الخبر على وجوب عَرْضِ الكِتَاب ومراجعته على أصله، للتأكد من تمامه وخُلُوِّهِ من السَّقَطِ والغَلَطِ، اقتداء بفعل النبي ﷺ، وهو يملي القرآن الكريم على كتبة الوحي(١).

ثانيًا: مراجعة الرقاع المكتوب عليها القرآن

كانت الرقاع التي يُكْتَبُ عليها القرآن تُحْفَظُ، إما في بيت النبي ﷺ، أو بيت زيد بن ثابت، أو في مكان آخر، مثل المسجد، وكانت الرقاع تخضع للمراجعة والتدقيق أيضًا، بين يدي النبي ﷺ، وبحضور الحُفَّاظ وكُتَّاب الوحي من صحابة رسول الله ﷺ.

فقد أخرج الحاكم في المستدرك عن عبد الرحمن بن شِمَاسَة، عن زيد ابن ثابت رضي الله عنه، قال: «كُنَّا عندَ (أو حَوْلَ) رسولِ الله ﷺ، نُؤَلِّفُ القرآنَ مِنَ الرِّقَاع، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، وفيه الدليل الواضح أن القرآن إنما جُمِعَ في عهد رسول الله ﷺ»(٢).

---

(١) ينظر: السخاوي: فتح المغيث ٣/٧٦، وهو يشرح قول عبد الرحيم العراقي في ألفيته:
٥٧٧- ثُمَّ عليه العَرْضُ بالأصلِ

(٢) المستدرك ٢/٦٦٨، وأخرجه من طريق آخر على نحو أكثر تفصيلًا، وهو قوله (٢/٢٤٩): «عن عبد الرحمن بن شماسة، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه، قال: كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع، إذ قال رسول الله ﷺ: (طوبى للشام)، فقلنا: لأي شيء ذاك؟ فقال: (لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليهم)، هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، وفيه البيان الواضح: أن جَمْعَ القرآن لم يكن مرة واحدة، فقد جُمِعَ بعضه بحضرة رسول الله ﷺ، ثم جُمِعَ بعضه بحضرة أبي بكر الصديق، والجمع الثالث هو في=

وقال البيهقي في شعب الإيمان: «وتأليف القرآن على عهد النبي ﷺ، روينا عن زيد بن ثابت أنه قال: (كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع)، وإنما أراد - والله تعالى أعلم - تأليف ما نَزَلَ من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيها، بإشارة من النبي ﷺ، ثم كانت مثبتة في الصدور مكتوبة في الرقاع واللِّخَافِ والعُسُبِ، فَجُمِعَتْ منها في صُحُفٍ بإشارة أبي بكر وعمر وغيرهما من المهاجرين والأنصار، ثم نُسِخَ ما جُمِعَ في الصحف في مصاحف بإشارة عثمان بن عفان على ما رَسَمَ المصطفى ﷺ»[1].

وفي حديث زيد عن تأليف القرآن الكريم من الرقاع بين يدي النبي ﷺ دلالات عظيمة تتعلق بكتابة القرآن الكريم وترتيبه، أشار إلى بعضها البيهقي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في قوله السابق، منها:

١. قوله: (كُنَّا)، يشير إلى أنه لم يكن وحده، وإذا أردنا أن نُخَمِّنَ مَن كان معه أمكن القول إنهم كُتَّابُ الوحي، وحُفَّاظُ القرآن.

٢. قوله: (عند، أو حول)، يدل على حضور النبي ﷺ مع الحُفَّاظ والكُتَّاب، بل كان يتوسطهم، كما تدل على ذلك كلمة (حول).

٣. كان الهدف من هذا الاجتماع تأليف القرآن من الرقاع، وكلمة التأليف تعني الترتيب، لأنه يقال في اللغة: أَلَّفْتُ الشيءَ تأليفًا، إذا وصلتُ

= ترتيب السور، كان في خلافة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، رضي الله عنهم أجمعين». وأخرجه ابن أبي شيبة في الكتاب المصنف (٤/٢١٨ و٦/٤٠٩)، والإمام أحمد في مسنده (٣٥/٤٨٤)، والطبراني في المعجم الكبير (٥/١٥٨)، والترمذي في سننه (٦/٢٢٨).

(١) شعب الإيمان ١/٣٤٢، وينظر: دلائل النبوة ٧/١٤٧-١٤٨.

بعضه ببعض، وجمعتُ بعضه إلى بعض، ومنه تأليف الكتب[١]. ويَحْتَمِلُ ذلك تأليف ما نَزَلَ من الآيات المتفرقة في سورها وجمعها فيها، بإشارة من النبي ﷺ، وكان الإمام مالك بن أنس قد قال: «إنما أُلِّفَ القرآنُ على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله ﷺ»[٢].

٤. كانت الرِّقَاع التي كُتِبَ عليها القرآن هي مادة عَمَلِ المجتمعين حول رسول الله ﷺ من الحُفَّاظ والكُتَّاب، والرِّقَاعُ جمعُ رُقْعَةٍ، والرُّقْعَةُ ما يُرْقَعُ به الثوب الذي فيه خَرْقٌ، والرُّقْعَةُ ما يُكْتَبُ عليه[٣]، وهي المقصودة هنا، ولم يتيسر لهم الرَّق حينئذ، قال الأزهري: «وذلك أنَّ الرَّق أعوزهم حين نزل القرآن على رسول الله ﷺ، فأمر كُتَّابَ الوحي بإثباته في ما تيسر من كَتِفٍ، ولَوْحٍ، وجِلْدٍ، وعَسِيبٍ، ولَخْفَة»[٤]. وقال ابن قتيبة: «فإن الصحف في عصر رسول الله ﷺ أعلى ما كُتِبَ به القرآن، لأنهم كانوا يكتبونه في الجريد، والحجارة، والخزف، وأشباهِ ذلك»[٥]. فالقرآن الكريم كُتِبَ في زمن النبي ﷺ على وسائل كثيرة ومتنوعة، منها:

– الأكتاف، وهي جَمْعُ كَتِفٍ، وهو عظم عريض يكون في أصل كتف الحيوان، من الناس والدواب، كانوا يكتبون فيه لقلة القراطيس عندهم[٦].

---

(١) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ٩/١٠.

(٢) ينظر: الداني: المقنع ص ١٢٢.

(٣) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ٨/١٣١.

(٤) تهذيب اللغة ٢/١٧٠، وينظر: ابن منظور: لسان العرب ٨/٢٨.

(٥) تأويل مختلف الحديث ص ٤٤٠.

(٦) ينظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ٤/١٥٠، وابن منظور: لسان العرب ٩/٢٩٤.

- والعُسُبُ، جَمْعُ عَسِيب، وهو جريد النخل، فُوَيْقَ الكَرَبِ لم يَنْبُتْ عليه الخوص، وما نَبَتَ عليه الخوص فهو السَّعَفُ[١].

- وقِطَعُ الأديم، وهو الجلد[٢]، والرَّق بالفتح: جِلْدٌ رَقِيق يُكْتَبُ فيه[٣].

- الأقتاب، جَمْعُ قَتَبٍ، وهو رَحْلٌ صغير على قَدْرِ سنام البعير[٤].

- واللِّخَاف، جَمْعُ لَخْفَة، وهي حجارة بيض رِقَاق[٥].

*** *** ***

إن جميع ما قدَّمناه في هذه المباحث، من بَدْءِ كتابة القرآن في مكة، ونَقْلِ الرقاع من مكة إلى المدينة، وانتظام كتابة الوحي على يدي أُبَيِّ بن كعب، وزيد بن ثابت في المدينة، وحِرْصِ النبي ﷺ على تدقيق ما كان يكتبه زيد من الوحي، ومراجعة الرقاع المكتوبة لتأليف القرآن منها، كل ذلك يدل على ما يأتي:

١. أن كتابة القرآن الكريم في العهد النبوي كانت قرارًا نبويًا، وقد تكون وحيًا إِلَـهِيًّا، ولم تكن متروكة للمصادفة، أو لاجتهاد الكُتَّاب من الصحابة.

٢. حِرْصُ النبي ﷺ على الدقة في كتابة القرآن بين يديه.

---

(١) ينظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ٣/٢٣٤، وابن منظور: لسان العرب ١/٥٩٩.

(٢) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ١٢/١٠.

(٣) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ١٠/١٢٣.

(٤) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ١/٦٦١.

(٥) ينظر: ابن الأثير: النهاية في غريب الحديث ٤/٢٤٤، وابن منظور: لسان العرب ٩/٣١٥.

٣. حِرْصُ النبي ﷺ على حِفْظِ الرقاع التي كُتِبَ عليها القرآن، ومراجعتها مع الكُتَّاب والحُفَّاظ.

٤. يمكن القول من خلال ذلك: إن القرآن الكريم كُتِبَ كُلُّهُ في زمن النبي ﷺ، لكنه كان مفرقًا في الرقاع، ولم يجمع في صحف منظمة، وتؤكد المصادر الإسلامية على أن رسول الله ﷺ تُوُفِّيَ ولم يكن القرآن قد جُمِعَ في صحف منظمة، وإنما كان مفرقًا في الرقاع، وأخرج الإمام أحمد عن الزهري، عن عُبَيْدِ بن السباق، عن زيد بن ثابت قال: قُبِضَ رسول الله ﷺ ولم يَكُنِ القرآن جُمِعَ، إنما كان في العُسُبِ، والكَرَانيف، وجرائد النخل، والسَّعَفِ[١].

وأخرج ابن قتيبة والطبري عن محمد بن شهاب الزهري (ت ١٢٥هـ) أنه قال: قُبِضَ النبي ﷺ ولم يكن القرآن جُمِعَ، وإنما كان في الكَرَانيف والعُسُب[٢]، وهو معنى رواية الإمام أحمد عن زيد بن ثابت.

ويؤيد ذلك أيضًا ما رواه البخاري وغيره من أن زيد بن ثابت لَمَّا قام بجمع القرآن في الصحف بأمر الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه، قال: (فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القرآن أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب، ومن صدور الرجال)، وهو ما سنتحدث عنه في المبحث الآتي، إن شاء الله.

وصَرَّحَ عدد من العلماء المسلمين المتقدمين بأن القرآن الكريم كُتِبَ كُلُّهُ

---

(١) فضائل الصحابة ١/٣٩٠، وأخرجه السيوطي في الإتقان (٢/٣٧٧) مختصرًا بلفظ: «قُبِضَ النبي ﷺ ولم يكن القرآن جُمِعَ في شيء».

(٢) ينظر: ابن قتيبة: غريب الحديث ٣/٦٦٨، وتأويل مختلف الحديث (له) ص ٤٤٠، والطبري: جامع البيان ١/٦٣.

في زمن النبي ﷺ، فقال العلامة ابن حجر العسقلاني في فتح الباري: «وقد كان القرآن كُلُّهُ كُتِبَ في عهد النبي ﷺ، لكنْ غير مجموع في موضع واحد، ولا مرتب السور»[١]، وكَرَّرَ السيوطي في كتابه (الإتقان في علوم القرآن) مقولة ابن حجر، مع تغيير طفيف في بعض الكلمات، حيث قال: «وقد كان القرآن كُتِبَ كُلُّهُ في عهد رسول الله ﷺ، لكن غير مجموع في موضع واحد، ولا مرتب السور»[٢].

إن الباحث المنصف الذي يؤمن بأن القرآن الكريم تنزيل من لدن حكيم عليم، وهو كِتَابُ آخِرِ نَبِيٍّ وآخِرِ رسالةٍ، أنزله الله تعالى رحمة للعالمين، وليكون مصدرًا لهداية البشرية حتى قيام الساعة، وقد أمر الله تعالى نبيه بتبليغه للناس، لا يمكنه أن يهمل دلالة الروايات التي تقدَّم ذكرها في المباحث السابقة على حصول كتابة القرآن في عهد النبي ﷺ على نطاق واسع ومنظم، ولا يمكن أن ينفي حصول الكتابة، ولا يمكنه أن يتجرأ على رد ما قاله زيد ابن ثابت كاتب الوحي من أن القرآن كان مكتوبًا مفرقًا في الرقاع، ولم يكن قد جمع في صحف منظمة، حين توفي رسول الله ﷺ.

وتكاد كلمة المستشرقين الذي درسوا تاريخ القرآن تجتمع على التشكيك في كتابة القرآن الكريم في زمن النبي ﷺ، ونَفْيِ أن يكون قد كُتِبَ كله قبل وفاته ﷺ[٣]، لكن من غير أن يأتوا بدليل ينقض ما تقدمه المصادر

---

(١) فتح الباري ٩/١٢.

(٢) الإتقان ٢/٣٧٨.

(٣) تتلخص وجهة نظرهم في نَفْيِ كتابة القرآن في زمن النبي ﷺ، وإن حصل ذلك فعلى نطاق ضيق، ولم يتجاوز كتابة نتف من القرآن، وفي نَفْيِ أن يكون هناك قصد لكتابة القرآن كله،

الإسلامية من روايات تؤكد على كتابة القرآن الكريم على نطاق واسع في زمنه ﷺ، وما كَتَبَهُ المستشرقون عن القرآن العظيم والنبي الكريم، هنا وفي كتاباتهم الأخرى، إذا وُضِعَ بجانب الروايات التي ترويها المصادر الإسلامية، يبعث على الأسى والشفقة في الوقت نفسه، الأسى والحزن على الفهم السقيم لأحداث التاريخ الإسلامي، أو التشويه المتعمد لأحداثه التي غَيَّرَتْ مسار التاريخ، والشفقة على هؤلاء الباحثين الذين يتبنون مناهج نقدية علمية بزعمهم، لكنها لم تمنعهم من الوقوع في التعصب والتضليل المتعمد بقصد الصد عن سبيل الله، ويكون قُرَّاء هؤلاء الكُتَّابِ ضحية لتضليلهم، إلا مَن تمكن من الخروج من ربقة التقليد لهم، وسَلَكَ سبيل البحث الحر في الأديان، وانكشفت له الحقائق المتعلقة بتاريخ القرآن والإسلام، ويرجع كثير من التعصب الذي يطغى على كتابات المستشرقين حول القرآن، والتحامل الذي يظهر في كتاباتهم على سيرة النبي ﷺ وتاريخ الإسلام إلى الخلفية الدينية والثقافية لهم، والمنهج والأدوات التي استخدموها[1].

إن ثبوت كتابة أجزاء من القرآن الكريم في زمن البعثة النبوية في روايات صحيحة لا تقبل الشك ولا التأويل دليل على كتابة القرآن الكريم كله في ذلك العهد، إذ لا يعقل أن يأمر النبي ﷺ بكتابة سور من القرآن، على الرغم من

= وإنما كان ذلك متروكًا للمصادفة، والاجتهاد الشخصي لبعض الصحابة، فلم يُدَوَّنْ إلا القليل، وفُقِدَ منه الكثير، فكان الحفظ هو الوسيلة لحفظ القرآن، وقد نُسِيَ كثير منه بزعمهم. (ينظر: نولدكه: تاريخ القرآن ٣٢٩-٢٤٠، وبروكلمان: تاريخ الأدب العربي ١/١٣٩، وبلاشير: القرآن، نزوله، تدوينه، ترجمته ص ٢٧-٢٩).

(١) ينظر: عبد الرحمن بدوي: دفاع عن القرآن ٧-٨.

قلة الكتبة وصعوبة الوسائل، ويترك أخرى، فكتابة البعض دليل على كتابة الكل في مثل تلك الظروف، لأن الهدف كان حفظ القرآن مكتوبًا.

وخلاصة القول في هذا الموضوع هي أن النبي ﷺ أمر بكتابة القرآن، واتخذ له كُتَّابًا يكتبون له الوحي، وكان كُلَّمَا نزل عليه الوحي دعا بعض مَن يكتب له، فيملي عليه ما نَزَلَ من الوحي، وكان يُـرَاجِعُ المكتوب ويدققه مع الكاتب، وكان يلتقي بكُتَّاب الوحي لمراجعة الرقاع، وترتيبها وفق قراءته، وأنه لم يمت ﷺ إلا والقرآن كله مكتوب، لكنه مُفَرَّقٌ في الرقاع، غيرُ مجموع في صحف مرتبة، وأنَّ جمعه في صحف منظمة تم بعد سنة من وفاته ﷺ في خلافة أبي بكر رضي الله عنه.

** ** **

المبحث الثاني

جَمْعُ الرقاع التي كُتِبَ فيها القرآن في الصحف

إذا كانت الرقاع التي كُتِبَ فيها القرآن الكريم في عصر النبوة قد حَقَّقَتْ حِفْظَ ألفاظ الوحي مكتوبةً فإنها ليست كافية لمواجهة حاجة الأمة في السنين اللاحقة، وهي أكثر عرضة للتلف أو الضياع، ومن ثَمَّ كانت فكرة جمع القرآن في صُحُف منظمة تشغل بال بعض الصحابة، وكانت الحروب التي وقعت في أول خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ومقتل عدد من حُفَّاظ القرآن فيها من أهم العوامل التي أدَّت إلى التفكير في جمع القرآن في الصحف بدل الرقاع.

فقد قُتِلَ مئاتٌ من الصحابة في محاربة المرتدين عن الإسلام في أول خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وبخاصة في معركة اليمامة التي قُتِلَ فيها نَحْوُ خمسِ مئة من المسلمين، فيهم خمسون أو ثلاثون من حملة القرآن[1]، ولم تكن كتابة القرآن الكريم مفرَّقًا في الرقاع تُشَكِّلُ حرزًا آمنًا لنصه من الفقدان أو النسيان لأمد طويل، وجاء مقتل الحُفَّاظِ في معركة اليمامة لِيُذَكِّرَ المسلمين بمستقبل القرآن، وأثار ذلك في نفوسهم القلقَ من ذهاب الحُفَّاظ بالموت، أو فقدان شيء من الرقاع، فيؤدي ذلك إلى ضياع شيء من القرآن.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد حَزِنَ حزنًا شديدًا بعد مقتل أخيه زيد

---

(١) ينظر: تاريخ خليفة ص ١١١، وأكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة ص ٤٠٨.

ابن الخطاب في اليمامة[١] ، وكان بين القتلى صَدِيقُهُ سالمٌ مولى أبي حذيفة ، وكان من حُفَّاظ القرآن ، وكان يَؤُمُّ المهاجرين في المدينة قبل هجرة النبي ﷺ إليها وفيهم عمر بن الخطاب ، لأنه كان أكثرهم قرآنًا[٢] ، وقال فيه عمر لمَّا طُعِنَ: لو كان سالم مولى أبي حذيفة حَيًّا استخلفته[٣] .

وكان زيد بن ثابت قد أُصِيبَ بسهم في معركة اليمامة ، ونَجَّاهُ الله منه فلم يَضُرَّهُ[٤] ، وأُصِيبَ أخوه يزيد بن ثابت فيها ، وتوفي في طريق العودة إلى المدينة[٥] .

وفي ظل هذا المناخ الحزين تقدَّم عمر بن الخطاب إلى أبي بكر الصديق بأن يأمر بجمع القرآن الكريم في صحف منظمة خشية من ذهاب الحُفَّاظ بالقتل في الحروب أو الوفاة ، وخوفًا من تعرض الرقاع للتلف أو الضياع ، فيذهب شيء من القرآن ، ولم تلق الفكرة في بادئ الأمر موافقة الخليفة الذي كان شديد الحرص على أَلَّا يعمل عملًا لم يعمله رسول الله ﷺ ، لكن إلحاح عمر جعله يقتنع بالفكرة ويوافق على جمع القرآن في الصحف ، ونقل البخاري وغيره من المؤرخين والمُحَدِّثِينَ عن زيد بن ثابت قصة جمع القرآن ، ولعل من الأفضل

---

(١) ينظر: تاريخ خليفة ص ١٠٨ ، وابن سعد: الطبقات الكبرى ٣٧٨/٣ ، وتاريخ الطبري ٢٩٢/٣ ، وابن عبد البر: الاستيعاب ٥٥٠/٢-٥٥١ .

(٢) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢٢٥/١ ، و٨٧/٣ .

(٣) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣٤/٣ ، وتاريخ الطبري ٢٢٧/٤ .

(٤) ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٥٣٨/٢ ، وابن الأثير: أسد الغابة ١٢٧/٢ ، والنووي: تهذيب الأسماء واللغات ٢٠١/١ .

(٥) ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ١٥٧٢/٤ ، وابن حجر: تهذيب التهذيب ٣١٧/١١ .

هنا أن ننقل الرواية كما وردت على لسان زيد، كما رواها البخاري، لِمَا فيها من دقة التعبير وصدق التصوير.

قال البخاري: «حدثنا موسى بن إسماعيل، عن إبراهيم بن سعد، حدثنا ابن شهاب، عن عُبَيْدِ بن السَّبَّاق، أن زيد بن ثابت ﷺ قال: أَرْسَلَ إليَّ أبو بكر الصديق مقتلَ أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب عنده، قال أبو بكر ﷺ: إن عمر أتاني فقال: إنَّ القتل قد استحرَّ[1] يوم اليمامة بقرَّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرَّ القتل بقراء القرآن في المواطن كلها، فيذهب كثير من القرآن، إلَّا أن تجمعوه، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قال أبو بكر: قلتُ لعمر: كيف نفعل شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال عمر: هو واللهِ خيرٌ، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت الذي رأى عمر.

قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ، عاقل، لا نتهمك، وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فَتَتَبَّعِ القرآن فاجمعه، قال زيد: فواللهِ لو كلفوني نقل جبل من الجبال ما كانَ أثقل عليَّ مما أمرني به من جمع القرآن، قلت: كيف تفعلون شيئًا لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال أبو بكر: هو واللهِ خيرٌ، فلم يزل يراجعني حتى شرح الله صدري للذي شرح له صدر أبي بكر وعمر، ﷺ.

قال زيد: فقمتُ فتتبَّعتُ القرآن، أجمعه من الرقاع والأكتاف والعسب وصدور الرجال[2]، حتى وجدت آخر سورة التوبة: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ

---

(١) قال ابن حجر في فتح الباري (١/١٠٤): «استحرَّ، بتشديد الراء: كَثُرَ واشتدَّ».

(٢) قال ابن حجر العسقلاني (فتح الباري ٩/١٥): إن الواو في قوله: (وصدور الرجال) بمعنى (مع)، أي: أكتبه من المكتوب الموافق للمحفوظ في الصدور.

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] حتى خاتمة براءة، مع خزيمة بن ثابت الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره[١]، فألحقتها في سورتها.

وكانت الصحف التي جُمِعَ فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياتَهُ حتى توفاه الله، ثم عند حفصة بنت عمر[٢].

إن هذه الرواية المفصلة استوفت معظم ما يتعلق بعملية جمع القرآن في الصحف، وهي تشير إلى مجموعة أمور، منها:

الأول: أَنَّ عمل زيد ﷺ في جمع القرآن لم يكن كتابةً مُبْتَدَأةً، ولكنه جمعٌ وترتيبٌ ونسخٌ لِمَا كُتِبَ في عصر النبوة مفرقًا، في موضع واحد.

والثاني: أن زيد بن ثابت في عمله أخرج نسخة من صحف منظمة تجمع القرآن الكريم كله، حُفِظَتْ في بيت الخليفة أبي بكر الصديق، ولا تعني تسميتها بالصحف أنها لم تكن على شكل كتاب، فقد جاء في بعض الروايات أنها كانت محفوظة بين لوحين[٣].

والثالث: اعتماد زيد على الرقاع التي كُتِبَ عليها القرآن الكريم في زمن

---

(١) أي: لم يجدها مكتوبة مع أحد غيره، لأنه كان لا يكتفي بالحفظ دون الكتابة (ينظر: الكرماني: الكواكب الدراري ١٩/٧، والسيوطي: الإتقان في علوم القرآن ٢/٣٨٤).

(٢) صحيح البخاري ٦/٧١ (رقم الحديث ٤٦٧٩)، و٦/١٨٣، (رقم الحديث ٤٩٨٦)، و٩/٧٤، (رقم الحديث ٧١٩١)، وسنن الترمذي ٥/١٣٤، (رقم الحديث ٣١٠٣)، ومسند الإمام أحمد ١/٢٣٨، (رقم الحديث ٧٦)، والنسائي: السنن الكبرى ٧/٢٤٩، (رقم الحديث ٧٩٤١)، والطبراني: المعجم الكبير ٥/١٤٦-١٤٨، (رقم الحديث ٤٩٠١)، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/١٥٨-١٦٥.

(٣) ينظر: ابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/١٥٣-١٥٥.

النبي ﷺ، وعلى حفظ الحفاظ من الصحابة للقرآن، فكان المحفوظ يؤيد المكتوب.

والرابع: أن زيد بن ثابت كان فيه من الصفات ما جعله موضع ثقة الخليفة، والصحابة من حوله، ليقوم بهذه المهمة، وهي: كونه: شابًا، عاقلًا، أمينًا، كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ.

ولا شك في أن الصحف كانت من مادة يمكن أن يُعمل منها قطع متساوية يَسْهُل ضمها بين دفتين، وجاء في بعض الروايات أنها كانت من القرطاس(١)، وهو الورق الذي يصنع من قصب البَرْدِيِّ في مصر قديمًا(٢).

ويبدو أن زيد بن ثابت لم يكن يعمل وحده في جمع القرآن، فقد جاء في بعض الروايات أن أبا بكر الصديق طلب من عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت أن يقعدا على باب المسجد، وينادیا: من كان تلقى من رسول الله ﷺ شيئًا من القرآن فَلْيَأْتِ به، وكانوا يكتبون ذلك في الصحف والألواح والعُسُب، وكانا لا يقبلان من أحد شيئًا حتى يشهد شهيدان(٣). قال بعض العلماء: إن المراد بالشهيدين أن يشهدا على أن ذلك المكتوب كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ(٤). وقال أبو شامة المقدسي: «إنما كان قصدهم أن ينقلوا من عين المكتوب بين يدي النبي ﷺ، ولم يكتبوا من حفظهم»(٥).

---

(١) ينظر: ابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/١٦٩، والسيوطي: الإتقان ٢ ٣٨٦.

(٢) ينظر: النديم: كتاب الفهرست ١/٤٧، وابن منظور: لسان العرب ٦/١٧٢.

(٣) ينظر: ابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/١٥٧.

(٤) ينظر: أبو شامة المقدسي: المرشد الوجيز ص ٥٥، وابن حجر: فتح الباري ٩/١٥.

(٥) المرشد الوجيز ص ٥٧.

وجاء في بعض الآثار أن أبي بن كعب أسهم في كتابة الصحف في زمن أبي بكر، فكان يملي على الكاتب، وكان أُبَيٌّ من كُتَّاب الوحي، وحُفَّاظ القرآن[١].

ويتبين من ذلك أن زيد بن ثابت اتبع في جمع القرآن طريقة التحقيق العلمي التي تنأى عن الخطأ، وقد اتبع الطريقة بدقة دونها كل دقة، فقد طلب أبو بكر إلى كل من كان عنده شيء مكتوب من القرآن أن يأتي به إلى زيد بن ثابت، واجتمع لزيد من الرقاع والأكتاف والعسب، ومن كل ما كَتَبَ أصحاب رسول الله ﷺ القرآنَ عليه، الشيءُ الكثيرُ، عند ذلك جعل يرتبه ويوازنه ويستشهد عليه بحفظ الحفاظ، حتى أنجز كتابة الصحف على أحسن وجه[٢].

ويمكن أن نستنتج من القرائن التاريخية أن عملية جمع القرآن قد تمت في سنة اثنتي عشرة من الهجرة، بعد معركة اليمامة التي وقعت في أواخر السنة الحادية عشرة، ومرت شهور بعد ذلك لاتخاذ قرار الجمع، وشفاء زيد من جراحه في معركة اليمامة، وتمت قبل وفاة الصديق رضي الله عنه في جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة[٣]، وبقيت الصحف بعد كتابتها محفوظة في بيت الصديق حتى وفاته، لتنتقل بعد ذلك إلى بيت الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إنَّ جَمْعَ القرآن في الصحف كان من جلائل الأعمال التي ازدان بها

---

(١) ينظر: مسند الإمام أحمد ١٥٠/٣٥، (رقم الحديث ٢١٢٢٦)، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ١٦٧/٢.

(٢) ينظر: محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر ص ٣٢٢.

(٣) ينظر: تاريخ خليفة ص ١٢١، وتاريخ الطبري ٤١٩/٣.

عهد الصديق، إن لم يكن أجلها[١]، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أعظم الناس أجرًا في المصاحف أبو بكر، فإنه أول مَن جَمَعَ القرآن بين اللوحين»[٢].

ومما يدل على عظم الإنجاز الذي تحقق بجمع القرآن في الصحف ملاحظة الظروف التي تم فيها ذلك، فقد كان أكثر الصحابة قد خرجوا من المدينة في الجيوش الأحد عشر التي عقدها أبو بكر الصديق رضي الله عنه لتأمين الجزيرة العربية من المرتدين ومُدَّعِي النبوات الكاذبة[٣]، واستشهد عدد كبير منهم قبل أن تعود قبائل العرب إلى الإسلام، لتتوجه الجيوش بعد ذلك إلى العراق وبلاد الشام، وكان زيد بن ثابت كاتب الوحي قد أُصِيبَ في وقعة اليمامة بسهم، ولم يَضُرَّهُ، وعاد إلى المدينة بعد مقتل مسيلمة الكذاب، ليقوم بجمع القرآن الكريم في الصحف.

وكانت هذه الصحف موضع عناية وتقدير من الخليفة، فاحتفظ بها في مكان آمن في بيته، وبعد مبايعة عمر بن الخطاب بالخلافة نُقِلَتِ الصحف إلى داره، لتكون تحت نظره، وموضع عنايته[٤]، وانتقلت بعد استشهاده إلى بيت حفصة بنت عمر، أم المؤمنين زوج رسول الله ﷺ، لكنها لم تُنْسَ أو تندثر بتقادم

---

(١) محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر ص ١٦.

(٢) ينظر: ابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/١٥٣-١٥٥.

(٣) ينظر: تاريخ الطبري ٣/٢٥٠.

(٤) أخرج أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ١٠٥) عن ابن عباس أن عمر بن الخطاب كان إذا دخل بيته نَشَرَ المصحف فقرأ فيه، وقد يكون المصحف الذي كان يقرأ فيه هو الصحف التي جَمَعَ فيها زيد بن ثابت القرآن.

السنين، فحين حَدَثَ اختلاف في القراءة وأراد الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ أن يجمع المسلمين على مصحف موحد طلب تلك الصحف ونسخها في المصاحف، كما سنبين ذلك في المبحث الآتي، إن شاء الله تعالى.

❊❊ ❊❊ ❊❊

وبين جمع القرآن في الصحف في خلافة أبي بكر الصديق، ونسخها في المصاحف في خلافة عثمان بن عفان، حوالي خمس عشرة سنة، استجدت خلالها أمور مهمة، منها:

١. اتساع بلاد المسلمين لتشمل العراق وبلاد فارس، والشام ومصر، وازدياد أعداد المسلمين، وحاجتهم إلى تَعَلُّمِ القرآن، وهذه صورة لخارطة تبين ما بلغته الفتوح في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ:



٢ . إرسال المعلمين إلى الأمصار لتعليم الناس القرآن ، فأرسل عمر بن الخطاب عددًا من كبار الحفاظ من الصحابة ، فأرسل عبادة بن الصامت ، ومعاذ بن جبل ، وأبا الدرداء إلى بلاد الشام[١] ، وعبد الله بن مسعود إلى الكوفة[٢] ، وأبا موسى الأشعري إلى البصرة[٣] ، فكانوا يعلمون القرآن[٤] ، وكان لهؤلاء الصحابة تلامذة أخذوا عنهم القراءات في هذه الأمصار .

٣ . ظهور المصاحف في الأمصار ، كتبها أهل تلك الأمصار على قراءة من نَزَلَ عندهم الصحابة ، قال ابن عطية في تفسيره: «وانتشرت في خلال ذلك صحف في الآفاق كُتِبَتْ عن الصحابة ، كمصحف ابن مسعود ، وما كُتِبَ عن الصحابة بالشام ، ومصحف أُبَيٍّ وغير ذلك ، وكان في ذلك اختلاف حسب السبعة الأحرف التي أُنْزِلَ القرآن عليها»[٥] .

٤ . بروز الاختلاف في القراءة بين أهل الأمصار ، باختلاف قراءات الصحابة الذين نزلوا فيها ، بحسب رخصة الأحرف السبعة ، وكان ذلك الاختلاف هو السبب المباشر لنسخ الصحف البكرية في المصاحف في خلافة عثمان بن عفان ، وهو موضوع المبحث الآتي .

---

(١) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/٣٥٦ .

(٢) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٢٥٥ ، و٦/٧و١٣ ، وتاريخ الطبري ٤/١٣٩ ، والحاكم: المستدرك ٣/٤٣٨ .

(٣) ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٤/١٧٦٣ .

(٤) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٢/٣٤٥ .

(٥) المحرر الوجيز ١/٤٩ .

المبحث الثالث

نَسْخُ الصُّحُفِ في المصاحفِ في خلافة عثمان

ظهر الاختلاف في قراءة القرآن في خلافة عثمان بن عفان على نَحْوٍ لَفَتَ نظر كبار الصحابة، روى الطبري عن أبي قِلَابةَ[1] أنه قال: «لَمَّا كان في خلافة عثمان جَعَلَ المُعَلِّمُ يُعَلِّمُ قراءة الرجل، والمُعَلِّمُ يُعَلِّمُ قراءة الرجل، فجعل الغلمان يلتقون فيختلفون حتى ارتفع ذلك إلى المعلمين... فبلغ ذلك عثمان، فقام خطيبًا، فقال: أنتم عندي تختلفون فيه فتلحنون، فَمَنْ نأى عني مِن الأمصار أشد فيه اختلافًا، وأشد لحنًا، اجتمعوا، يا أصحاب محمد، واكتبوا للناس إمامًا»[2].

ولاحظ حذيفة بن اليمان ذلك في حملة فتح أرمينية وأذربيجان، حين التقى الجند من أهل الشام وأهل العراق، وتجادلوا في قراءة القرآن، فجاء إلى الخليفة وناشده أن يدرك الأمة قبل أن تختلف في كتاب الله، فقام الخليفة وخطب الناس في المدينة، وقال: «بلغني أن بعضكم يقول: قراءتي خير من قراءتك، وهذا يكاد يكون كفرًا، وإنكم إن اختلفتم اليوم كان لَمَنْ بعدكم أشدَّ

---

(١) أبو قلابة: عبد الله بن زيد الجَرْمِيُّ، كان ثقة كثير الحديث، من تابعي أهل الشام، توفي سنة ١٠٤، وقيل ١٠٥هـ. (ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ١٨٣/٧-٨٥، وابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ٥٧/٥-٥٨).

(٢) تفسير الطبري ٦٢/١، وينظر: ابن أبي داود: كتاب المصاحف ٢٠٣/١-٢٠٤، والداني: المقنع ص ١١٩، وابن حجر: فتح الباري ١٨/٩.

اختلافًا، قلنا: فما ترى؟ قال: أن أجمع الناس على مصحف واحد فلا تكون فرقة ولا اختلاف، قلنا: فنعم ما رأيت»[١].

قَرَّرَ الخليفة عثمان بن عفان، ﷺ، جَمْعَ المسلمين على مصحف موحد بالاعتماد على الصحف البكرية، والرواية المشهورة التي تحكي خطوات ذلك العمل هي التي رواها كثير من المُحَدِّثِين والمؤرخين، ونص هذه الرواية كما نقلها البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك، قال: «إن حذيفة بن اليمان قَدِمَ على عثمان، وكان يُغَازِي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزعَ حذيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحف، ننسخها في المصاحف، ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان.

فَأَمَرَ زيدَ بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل القرآن بلسانهم.

حتى إذا نَسَخُوا الصُّحُفَ في المصاحف رَدَّ عثمان الصحف إلى حفصة، وأرسل إلى كل أُفُقٍ بمصحف مما نَسَخُوا، وأَمَرَ بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يُحْرَقَ»[٢].

---

(١) ينظر: ابن شبة: تاريخ المدينة ٣/٩٩٥، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/٢٠٦.

(٢) ينظر: صحيح البخاري ٦/١٨٣، (رقم الحديث ٤٩٨٧)، وسنن الترمذي ٥/١٣٥-١٣٦، (رقم الحديث ٣١٠٤)، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/١٩٥-١٩٦، و١/٢٠٠، والداني: المقنع ص ١١٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/٤٨٢.

والناظر في هذه الرواية يجد أنها أشارت إلى جملة أمور مهمة، منها:

١. السبب الذي حَمَلَ عثمان على الأمر بنسخ الصحف في المصاحف، وهو الاختلاف الذي حصل في قراءة القرآن، وعدم وجود مصاحف موحدة بأيدي الناس يرجعون إليها في ضبط قراءتهم.

٢. بَيَّنَتِ الرواية المصدر الذي ٱعْتُمِدَ عليه في كتابة المصاحف، وهو الصحف التي جَمَعَ فيها زيد بن ثابت القرآن في خلافة أبي بكر الصديق، معتمدًا على الرقاع التي كُتِبَ عليها القرآن في حياة النبي ﷺ، وبذلك تكون المصاحف التي نُسِخَتْ في خلافة عثمان نسخة مرتبة للقرآن الذي كُتِبَ بإملاء النبي ﷺ.

٣. تحدَّثت الرواية عن وسائل حسم الخلاف بين المسلمين في قراءة القرآن الكريم، الذي ظهر في الأمصار الإسلامية، وهي:

- نشر المصاحف الموحدة التي نسخها زيد بن ثابت ومن معه في الأمصار الإسلامية.

- كتابة المصاحف على لغة قريش التي نَزَلَ بها القرآن، ليكون المكتوب موافقًا في رسمه لنطق النبي ﷺ.

- إحراق ما سوى المصاحف التي كتبها الصحابة في المدينة، سواء كانت صحفًا أو مصاحف كاملة، ولولا هذه الخطوة لَمَا أعطى ذلك العمل ثماره ولا حَقَّقَ أهدافه.

٤. ذَكَرَتِ الرواية أسماء الذين قاموا بالعمل، وهم أربعة من شباب الصحابة:

- زيد بن ثابت الأنصاري، كاتب الوحي للرسول ﷺ، الذي سبق الحديث عن دوره في تدوين القرآن الكريم، وكان معه ثلاثة من قريش هم:

- عبد الله بن الزبير بن العوام، الذي كان أول مولود للمهاجرين يولد في المدينة في السنة الأولى بعد الهجرة(١).

- وسعيد بن العاص بن سعيد الذي ولد عام الهجرة، وكان من فصحاء قريش، ولهذا نَدَبَهُ عثمان لكتابة المصاحف في مَن نَدَبَ مع زيد(٢).

- وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام، نشأ في حجر عمر بن الخطاب، بعد وفاة أبيه بالشام، بطاعون عمواس سنة ١٨ هـ، وكان ممن ندبه عثمان من شباب قريش لكتابة المصاحف(٣).

وروى ابن سعد، وابن أبي داود، أن محمد بن سيرين قال: «جَمَعَ عثمان، لَمَّا أراد أن يكتب المصاحف، اثني عشر رجلًا من قريش والأنصار، فيهم أبي بن كعب وزيد بن ثابت»(٤)، وكأن ابتداء الأمر كان للجماعة الأربعة الذين انتدبهم عثمان أولًا، ثم احتاجوا إلى من يساعد في الكتابة، بحسب

---

(١) ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٣/٩٠٥، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/١٣٨، وابن حجر: الإصابة ٤/٧٨.

(٢) ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/٦٢١-٦٢٤، وابن الأثير: أسد الغابة ٢/٢٣٩-٢٤١، وابن حجر: الإصابة ٣/٩٠-٩٢.

(٣) ينظر: ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/٨٢٧، وابن الأثير: أسد الغابة ٣/٣٢٧-٣٢٨، وابن حجر: الإصابة ٥/٢٣-٢٤.

(٤) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣/٥٠٢، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/٢١٣، وابن حجر: فتح الباري ٩/١٩.

الحاجة إلى عدد المصاحف التي ترسل إلى الآفاق[١].

٥ . لم تحدد الرواية السابقة عدد المصاحف التي كُتِبَتْ، لكنها أشارت إليها بهذه العبارة: «حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف أرسل إلى كل أُفُقٍ بمصحف مما نسخوا»، وهي عبارة تدل على أن عدد المصاحف لم يكن قليلًا.

وجاء في بعض الروايات أن المصاحف التي نسخها الصحابة كانت أربعة، وفي رواية أخرى أنها سبعة، أُرْسِلَتْ إلى مكة، والشام، واليمن، والبحرين، والبصرة، والكوفة، وبقي واحد في المدينة[٢]. ومهما يكن عدد المصاحف التي كُتِبَتْ أولًا في المدينة فإن المسلمين في الأمصار أقبلوا ينتسخون منها نسخًا جديدة تخرج عن العد والحصر، فتوحدت بذلك المصاحف التي بأيدي المسلمين.

٦ . لم تُحَدِّدِ الرواية السابقة السنة التي نُسِخَتْ فيها المصاحف، لكن من العلماء مَن حَدَّدَ ذلك بسنة خمس وعشرين من الهجرة، وهو الوقت الذي ذَكَرَ أهل التأريخ أن أرمينية فُتِحَتْ فيه أولًا، وقال ابن حجر: «وغَفَلَ بعض مَن أدركناه فزعم أن ذلك كان في حدود سنة ثلاثين، ولم يذكر لذلك مستندًا»[٣].

وليس من غرضنا في هذا الكتاب تتبع جميع الروايات المتعلقة بنسخ

---

(١) ينظر: ابن حجر: فتح الباري ٩/١٩، والقسطلاني: لطائف الإشارات ١/١١١.

(٢) ينظر: ابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/٢٣٨-٢٣٩، ومكي بن أبي طالب: الهداية ٤/٣١٢٩، والداني: المقنع ص ١٢٣-١٢٤، والقسطلاني: لطائف الإشارات ١/١١٢-١١٣.

(٣) ينظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/٤٧٧، و٢/٤٨١-٤٨٢، وابن حجر: فتح الباري ٩/١٧.

المصاحف، ومناقشتها، فلا يُغَيِّرُ اختلاف المؤرخين في عدد المصاحف التي كُتِبَتْ أولًا في المدينة، أو اختلافهم في السنة التي وقع فيها ذلك الحدث، من النتيجة التي تحققت بذلك العمل، وهي توحيد المصاحف التي يقرأ فيها المسلمون القرآن، منذ خلافة عثمان إلى زماننا هذا، بالاستناد إلى الصحف التي جَمَعَ فيها زيد بن ثابت القرآن من الرقاع التي كُتِبَتْ بين يدي النبي ﷺ، وقد تكفلت كتب علوم القرآن القديمة والحديثة بمناقشة تلك الأمور.

٧. **عَرْضُ المصاحف وتدقيقها:**

كان الصحابة وهم ينسخون المصاحف يدركون قيمة العمل الذي يقومون به وما يتطلب من الأناة والدقة، وكانوا يعملون على أساس القاعدة التي حددها لهم الخليفة عثمان، رضي الله عنه، وهي قوله: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش»، وذلك أن زيد بن ثابت كان من أهل المدينة، فربما تأثر رسمه لكلمات القرآن ببعض خصائص لهجته، أو تقاليد الكتابة في المدينة، قال الزهري: «فاختلفوا يومئذ في (التابوت) و(التابوه)، فقال القرشيون: (التابوت)، وقال زيد: (التابوه) فَرُفِعَ اختلافهم إلى عثمان، فقال: اكتبوه (التابوت)، فإنه نزل بلسان قريش»[1].

وجاء في بعض الروايات عن أبي قلابة، قال: حدثني أنس بن مالك قال: كنت في مَن يُمْلِي عليهم، فربما اختلفوا في الآية، فيتركون مكانها فارغًا، ولا يثبتونها حتى يسألوا عنها، وربما يذكرون الرجل قد تلقاها عن رسول الله ﷺ،

---

(١) ينظر: ابن شبة: تاريخ المدينة ٣/١٠٠٠، وسنن الترمذي ٥/١٣٦، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/١٩٩، والداني: المقنع ص ١١٦، والبيهقي: السنن الكبرى ٢/٥٣٨.

ولعله أن يكون غائبًا أو في بعض البوادي، فَيُرْسَلُ إليه أو يَجِيءُ، فيسألونه عنها، حرصًا منهم على الدقة في كتابة كلمات القرآن الكريم[١].

وكان الصحابة يُدَقِّقُونَ في كتابة المصاحف في أثناء العمل، وبعد إنجازهم كتابتها، فإن المصاحف لم ترسل إلى الأمصار إلا بعد عرضها ومراجعتها، وجاء في بعض الروايات أمثلة للكلمات التي توقف عندها الصحابة وهم يعرضون المصاحف، وهي مروية عن هانئ البربري الدمشقي، مولى عثمان بن عفان، ولدينا روايتان في ذلك هما:

الرواية الأولى: قال هانئ: «كنتُ الرسولَ بين عثمان وزيد بن ثابت، فقال زيد: سَلْهُ عن قوله: (لَمْ يَتَسَنَّ)، أو (لَمْ يَتَسَنَّهْ) [البقرة: ٢٥٩]، فقال عثمان: اجعلوا فيها هاء»[٢].

الرواية الثانية: قال هانئ: «كنتُ عند عثمان، وهم يعرضون المصاحف، فأرسلني بكتف شاة إلى أُبَيٍّ بن كعب، فيها: (لَمْ يَتَسَنَّ)، و(فَأَمْهِلْ الكافرين)، و(لا تبديل للخلق). قال: فَدَعَا بالدواة فَمَحَا إحدى اللامين، وكَتَبَ (لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ) [الروم: ٣٠]، ومَحَا (فأمهل) وكَتَبَ (فَمَهِّلِ الْكافِرِينَ) [الطارق: ١٧]، وكَتَبَ (لَمْ يَتَسَنَّهْ) [البقرة: ٢٥٩] ألحق فيها الهاء»[٣].

وكانت ثمرة هذا الحرص والتدقيق في رسم كلمات القرآن قطع الشك

---

(١) ينظر: الطبري: جامع البيان ١/٦٢، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/٢٠٤، والداني: المقنع ص ١٢٠.

(٢) ينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن ص ٢٨٧، والطبري: جامع البيان ٥/٤٦٣.

(٣) ينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن ص ٢٨٦، والطبري: جامع البيان ٥/٤٦٣-٤٦٤.

في كتابة كلمات القرآن، ويدل ذلك أن القرآن الكريم قد حُفِظَ نصه كما تلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ، وأنه حَظِيَ في جميع مراحل كتابته بالمراجعة التي لا تدع مكانًا للنسيان والوهم في عمل يتعلق بالقرآن الكريم.

٨. **تأليف القرآن وترتيبه:**

التأليف يعني جَمْعُ الشيء بعضه إلى بعض، وأَلَّفَ الشيء تأليفًا إذا وصل بعضه ببعض، ومنه تأليف الكتب(١)، وتأليف القرآن يعني ترتيب آياته في السور، وترتيب السور في المصحف، روى عبد الله بن وهب عن الإمام مالك ابن أنس أنه قال: إنما أُلِّفَ القرآن على ما كانوا يسمعون من قراءة رسول الله ﷺ (٢)، يعني ترتيبه.

ولا خلاف بين العلماء في أن ترتيب الآيات في سورها توقيفي من النبي ﷺ، قال السيوطي: «الإجماع والنصوص المترادفة على أن ترتيب الآيات توقيفي لا شبهة في ذلك...»(٣)، والراجح في ترتيب السور أنه توقيفي أيضًا(٤)، وقد قال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور: «ٱتِّسَاقُ الحروفِ، وٱتِّسَاقُ الآياتِ، وٱتِّسَاقُ السورِ، كُلُّهُ عن رسول الله ﷺ»(٥).

---

(١) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ٩/١٠.

(٢) ينظر: الداني: المقنع ص ١٢٢، والبيان في عد آي القرآن ص١٥٨، والقرطبي: الجامع لأحكام لقرآن ١/٦٠، وأبو شامة المقدسي: المرشد الوجيز ص ٤٦-٤٧، والسيوطي: الإتقان ٢/٤٠٣.

(٣) الإتقان ٢/٣٩٤.

(٤) ينظر: السيوطي: الإتقان ٢/٤٠٥.

(٥) التحرير والتنوير ١/٧٩.

وقد تكفلت كتب علوم القرآن بتناول هذا الموضوع على نحو مفصل، ومن ثم فإني اكتفيت بهذه الإشارة إليه لتذكير القارئ بأن ترتيب القرآن الكريم لم يكن متروكًا للمصادفة أو لاجتهاد الصحابة، وإنما كان بتوقيف من النبي ﷺ.

قال القاضي أبو بكر الباقلاني: «والذي نذهب إليه في ذلك القولُ بأن جميع القرآن الذي أنزله الله تعالى، وأمر بإثبات رسمه، ولم ينسخه، ويرفع تلاوته بعد نزوله، هو الذي بين الدفتين، الذي حواه مصحف عثمان، رضي الله عنه، وأنه لم ينقص منه شيء، ولا زيد فيه شيء، وأن بيان الرسول ﷺ كان بجميعه بيانًا شائعًا ذائعًا، وواقعًا على طريقة واحدة، ووجه تقوم به الحجة، وينقطع العذر، وأَنَّ الخَلَفَ نقله عن السلف على هذه السبيل»[1].

** ** **

(١) الانتصار ١/٥٩.

المبحث الرابع

خصائص الرسم العثماني، ودلالته على أصالة النص القرآني

نُسِبَتِ المصاحف التي كتبها زيد بن ثابت ومن معه من الكُتَّابِ إلى الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ لأنه هو الذي أمر بكتابتها، وكذلك سُمِّيَ الرسم الذي كُتِبَتْ به تلك المصاحف بالرسم العثماني، وحافظ المسلمون على كتابة المصاحف بذلك الرسم في العصور اللاحقة، ويلفت نَظَرَ القارئ في المصحف عَدَدٌ من الظواهر الإملائية التي لا يتطابق فيها الرسم مع النطق، مِثْلُ حذف بعض الحروف، كما في كلمة (العـلمين، مـلك)، أو زيادتها كما في (أولئك، وبأييد)، أو رسم بعض الأصوات بغير رموزها المعروفة، كما في (الصلوة، والزكوة).

وأثارت تلك الظواهر التساؤل في نفوس بعض الدارسين عن سبب مجيئها على غير ما اعتاده الناس في الرسم القياسي من مطابقة المرسوم للمنطوق، وحَمَلَها بعضهم على ضعف صنعة الكتابة في ذلك الزمان، وادَّعَى آخرون بأنها مظهر من مظاهر الإعجاز، ويلزم إزاء ذلك دراسة موضوع الرسم العثماني للوقوف على أصل تلك الظواهر، ومحاولة فهمها في سياقها التاريخي، ونفي مظنة الخطأ عنها، أو ضعف صنعة الكِتَابة والكُتَّاب في ذلك الزمان، وإبراز دلالة تلك الظواهر على أصالة النص القرآني ووثاقته، على العكس مما يظنه البعض من أنها مظهر من مظاهر القصور، وسوف أتناول

النقاط الأساسية المتعلقة بموضوع الرسم العثماني من خلال المطالب الآتية:

المطلب الأول: أصل الرسم العثماني، وأهم خصائصه.

أقدم الخطوط التي دُوِّنَ بها القرآن الكريم في المصاحف هو الخط الحجازي (المكي، والمدني)[١]، ويرجع أصل هذا الخط، عند أكثر الدارسين المعاصرين، إلى الخط النبطي الذي كان منتشرًا في شمالي الجزيرة العربية، وهو فرع من الخط الآرامي، وللنظر في أصل الخط العربي فائدتان في الأقل:

الأولى: الكشف عن أصل الخط الذي كُتِبَ به القرآن الكريم، مفرقًا في الرقاع، ومجموعًا في الصحف، ومنسوخًا في المصاحف.

الثانية: الوقوف على خصائص الكتابة العربية في عصر التدوين، لِمَا في ذلك من فائدة في تعليل الظواهر الإملائية التي نجدها في الرسم العثماني.

ولا أجد ضرورة لتتبع النظريات المتعلقة بأصل الخط العربي في هذا المقام، فقد كُتِبَتْ في بحوث كثيرة، وتناولتُ ذلك سابقًا في أكثر من عمل علمي[٢]، وأكتفي هنا بذكر أهم خصائص الكتابة العربية في عصر التدوين التي وَرِثَتْ معظمَها عن الكتابة النبطية، وهي:

١. خُلُوُّ الكتابة من علامات الحركات، ونقاط الإعجام المُمَيِّزَة للحروف

---

(١) ينظر: ابن النديم: الفهرست ١/١٤.

(٢) ينظر: رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية ص ١٧-٧٥، وعلم الكتابة العربية ص ٢٧-٥٢، والميسر في رسم المصحف ص ١١-٢٠، وأبحاث في رسم المصحف وضبطه ص ٨-١٤.

المتشابهة في الرسم، وغيرها من العلامات، التي يُنْسَبُ اختراعها إلى أبي الأسود الدؤلي وتلامذته.

٢. حَذْفُ حروف المد: (ا و ي) في بعض المواضع.

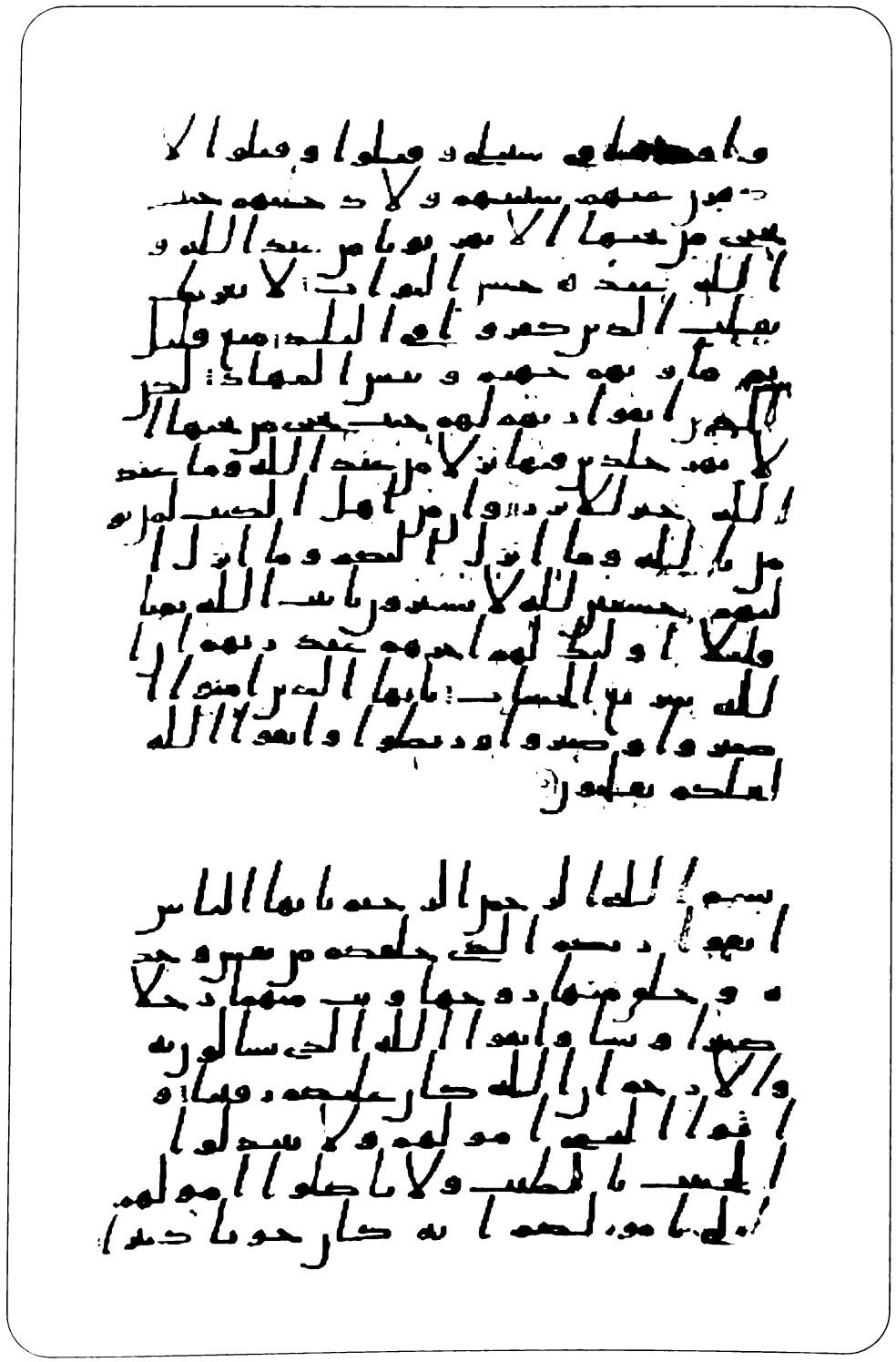
٣. رَسْمُ بعض الأصوات بغير رموزها، مثل رسم الألف واوًا، أو ياءً، ورسم هاء التأنيث تاء.

٤. زيادة بعض الحروف في رسم بعض الكلمات.

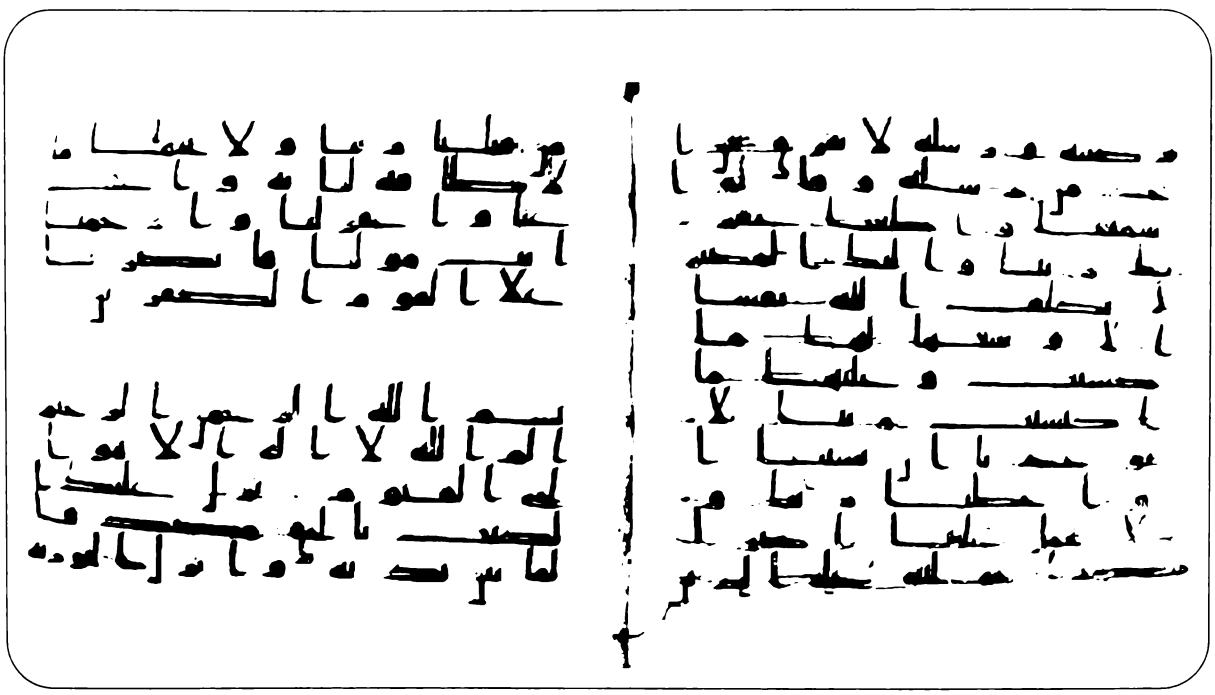
٥. اتصال حروف الكلمة الواحدة، إلا ما تعذر اتصاله من الحروف الستة: (ر، ز، د، ذ، و، ا)، وتوزيع مقاطع الكلمة على سطرين أحيانًا، إذا ضاق آخر السطر عن استيعاب رسم الكلمة كاملة.

وإذا كنا لا نملك نماذج كتابية مؤكدة من المصاحف العثمانية الأولى، فإننا نملك نماذج كثيرة من مصاحف قريبة من عصر تلك المصاحف، وتحاكيها رسمًا وشكلًا، وهذه صورة صحيفة من مصحف مخطوط قديم بالخط الحجازي (آخر سورة آل عمران وأول سورة النساء)[1]:

(١) من مصحف المكتبة الوطنية بباريس (رقم ٣٢٨)، الذي نشره الدكتور طيار آلتي قولاج في إستانبول ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م.



وهذه صورة صحيفة بالخط الكوفي القديم (آخر سورة البقرة، وأول سورة آل عمران)[١]:



وكانت المصاحف العثمانية الأولى موضع عناية العلماء بعد عصر الصحابة، وكان رسم الكلمات فيها أحد الجوانب التي حظيت بالاهتمام، خاصة بعد ظهور علماء العربية، وتأسيسهم علم الرسم القياسي، الذي يقوم على أساس رسم الكلمة بحروف هجائها مبدوءًا بها وموقوفًا عليها، فاجتهد العلماء بالقرآن في دراسة المصاحف العثمانية، ووصف رسم الكلمات فيها، في رسائل مفردة، منذ عصر تابعي التابعين، فنشأ من خلال ذلك (علم رسم المصحف)، الذي عُرِفَ في القرون الهجرية الأولى بعلم هجاء المصاحف.

---

(١) من مصحف جامع الحسين بالقاهرة، الذي نشره أيضًا الدكتور طيار آلتي قولاج في إستانبول ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.

وبلغت مؤلفات رسم المصحف العشرات، لكن أشهر المؤلفات في زماننا في علم رسم المصحف كتاب: (المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار) لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ)، وكتاب (مختصر التبيين لهجاء التنزيل) لتلميذ الداني أبي داود سليمان بن نجاح (ت ٤٩٦هـ)، ومن المنظومات: منظومة عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد، لأبي محمد القاسم بن فِيرُّهْ الشاطبي (ت ٥٩٠هـ)، التي نَظَمَ فيها كتاب المقنع للداني، ومنظومة (مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن) لمحمد بن محمد بن إبراهيم الشريشي الشهير بالخراز (ت ٧١٨هـ)، التي زاد فيها على ما ذكره الشاطبي أحرفًا أخذها من سليمان بن نجاح وغيره من علماء الرسم.

وصَنَّفَ علماء الرسم المتأخرون ما وَقَعَ في رَسْمِ المصحف من ظواهر، لا يتطابق رسمها مع نطقها، في خمسة فصول، قال ابن وثيق الأندلسي (ت ٦٥٤هـ): «اعلم، وَفَّقَكَ اللهُ، أن رسم المصحف يفتقر أوَّلًا إلى معرفة خمسة فصول، عليها مداره:

الأول: ما وقع فيه من الحذف.

الثاني: ما وقع فيه من الزيادة.

الثالث: ما وقع فيه من قلب حرف إلى حرف.

الرابع: أحكام الهمزات.

الخامس: ما وقع فيه من القطع والوصل»[1].

---

(١) الجامع ص ٣١-٣٢.

وزاد بعض العلماء المتأخرين فصلًا سادسًا، وهو ما فيه قراءتان، وكُتِبَ على إحداهما[١]، وتندرج أكثر أمثلته في باب الحذف والزيادة، ولا تخفى أمثلة هذه الظواهر للناظر في المصاحف المطبوعة في زماننا.

وثمة أمران يلزم التذكير بهما هنا، من غير حاجة للدخول في تفصيلهما، فقد تكفلت بذلك بحوث ودراسات سابقة، وهما:

الأول: إجماع العلماء على وجوب الالتزام بالرسم العثماني في كتابة المصاحف، نظرًا لكونه الرسم الذي كتبه الصحابة، لتمثيل ألفاظ الوحي القرآني الذي سمعوه عن النبي ﷺ، ولكون القراءات القرآنية ارتبطت به، وصارت موافقة القراءة للرسم أحد شروط قبولها والقراءة بها.

الثاني: مذهب بعض العلماء المتأخرين إلى أن رسم المصحف توقيفي، بمعنى أن النبي ﷺ هو الذي أمر الصحابة أن يكتبوه بزيادة بعض الحروف أو حذفها أو إبدالها، واجتهد هؤلاء العلماء في إبراز إعجاز ظواهر الرسم، بناء على ذلك، لكن ليس هناك ما يدعم القول بكون رسم المصحف توقيفيًا، ولا يصلح إجماع العلماء على وجوب الالتزام بالرسم العثماني دليلًا على القول بالتوقيف، وقامت الشواهد على أن الصحابة رضي الله عنهم كتبوا القرآن الكريم في المصاحف بالرسم الذي كان أهل زمانهم يكتبون به.

المطلب الثاني: تعليل ظواهر الرسم

كانت المؤلفات الأولى في رسم المصحف تُرَكِّزُ على وصف الظواهر، ونادرًا ما تُعْنَى بتعليلها، لكن علماء الرسم بعد أن أحاطوا بالرسوم وصفًا

---

(١) ينظر: السيوطي: الإتقان ٦/٢٢٠٠، والضباع: سمير الطالبين ١/٦٧.

وتقعيدًا اشتغلوا ببيان علل الرسوم التي جاءت مخالفة للنطق، بزيادة أو حذف أو بدل أو وصل أو فصل، وجَمَعَ كثير منهم وصف الظواهر وتعليلها في مؤلَّف واحد، وأفرد بعضهم علل الرسوم بمؤلفات مستقلة، ويمكن ملاحظة ثلاثة اتجاهات في تعليل الرسوم، هي[١]:

الاتجاه الأول: التعليل اللغوي للرسوم، بالاستناد إلى أسس لغوية، كتابية أو نطقية، وهو ما نلمس آثاره عند كبار علماء الرسم في القرن الخامس الهجري، مثل مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، وأبي عمرو عثمان ابن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ)، وأبي العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت ٤٤٢هـ)، وتتلخص وجهة نظرهم في أن كثيرًا من ظواهر الرسم بُنِيَ على الوصل، كما بُنِيَ بعضها على الوقف، وأن كثيرًا منها بُنِيَ على اللفظ، كما أن بعضها بُنِيَ على الأصل.

الاتجاه الثاني: التعليل بنسبة تلك الظواهر إلى ضعف الكُتَّاب وعدم رسوخ قواعد الإملاء في تلك الفترة المبكرة، قبل نشأة علوم اللغة العربية، وهو ما يمكن أن نلمس آثاره في بعض كلام الفراء (ت ٢٠٧هـ) في معاني القرآن، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) في كتابه تأويل مشكل القرآن، وفي كلام ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) في مقدمة تاريخه الكبير.

الاتجاه الثالث: التعليل لظواهر الرسم بوجود أسرار خفية أو معان

---

(١) ينظر في تفصيل ذلك: كتابي: الميسر في علم رسم المصحف وضبطه ص ١٨٠-٢٤٠، وبحث: رسم المصحف بين التعليل اللغوي والتوجيه الدلالي، ضمن كتاب: أبحاث في رسم المصحف وضبطه ص ٣٨-٨٩.

إضافية تدل عليها تلك الظواهر، وهو ما ذهب إليه ابن البناء المراكشي (ت ٧٢١هـ) في كتابه (عنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل)، وما نَسَبَهُ أحمد بن المبارك إلى شيخه عبد العزيز الدباغ (ت ١١٣٢هـ)، في كتابه (الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز)، الذي يَعْتَقِدُ أن أسرار الرسم لا تنكشف للدارسين إلا بالفتح الرباني.

وثمة خطأ منهجي وقع فيه كثير من الدارسين من القدماء والمحدثين، وهو النظر إلى ظواهر الرسم العثماني من خلال قواعد الرسم القياسي، وتركيز الضوء على ظواهر الرسم التي خالفت قواعد الرسم الإملائي، المبنية على القاعدة التي صاغها علماء العربية، وهي: «تصوير اللفظ برسم حروف هجائه بتقدير الابتداء به والوقف عليه»[١]، معتقدين وجود نظامين للكتابة في عصر تدوين القرآن الكريم، وهما: قواعد الإملاء القياسي، وقواعد الرسم العثماني، قائلين بأن الرسم العثماني جاء مخالفًا لقواعد الرسم القياسي، ولا شك في عدم دقة هذه المقولة.

وقد صَرَّحَ ابن درستويه في مقدمة كتاب (الكُتَّاب) أنه اختار فيه مِن مذاهب الكُتَّاب في الإملاء «ما وافَقَ النَّظَرَ، وأوْجَبَهُ قياسُ النحو»[٢]، ثم قال: «ووجدنا كتابَ الله ﷻ لا يُقَاس هجاؤه ولا يُخَالَفُ خَطُّهُ، ولكنه يُتَلَقَّى بالقبول على ما أُودِعَ المصحف، ورأينا العروض إنما هو إحصاء ما لُفِظَ به من ساكن

---

(١) ينظر: الأستراباذي: شرح الشافية ٣/٣١٢، والسيوطي: همع الهوامع ٦/٣٠٥-٣٠٦، ونصر الهوريني: المطالع النصرية ص ٣٩.

(٢) كتاب الكُتَّاب ص ١٦.

ومتحرك، وليس يَلْحَقُهُ غَلَطٌ، ولا فيه اختلافٌ بين أحد، فلم نعرض لذكرهما في كتابنا هذا»[١].

وأَسَّسَ ابن درستويه بقوله هذا لفكرة تعدد النظم الكتابية، وهي فكرة صحيحة بالنسبة لزمانه، وكذلك بالنسبة لزماننا، لكنها ليست صحيحة بالنسبة لعصر التنزيل، فلم يكن هناك إلا نظام كتابي واحد، ٱلْتَزَمَ به الكُتَّاب في كتابة القرآن الكريم في المصحف، وفي كتابة غيره من النصوص، لكن فكرة ابن درستويه هذه تطورت إلى نظرية صار بعض الدارسين ينظرون من خلالها إلى ظواهر رسم المصحف، ويبحثون عن سَبَبٍ لمخالفة كُتَّابِ المصاحف لقاعدة (رسم الكلمة بحروف هجائها، مبدوءًا بها وموقوفًا عليها)، وحين عَجَزَ بعضهم عن الوقوف على تعليل واضح ذهب إلى أن رسم المصحف توقيفي، وفيه من الأسرار ما لا يوقف عليه إلا بالفتح الربانية، وذهب آخرون إلى نسبة ذلك إلى ضعف قواعد الإملاء في ذلك الوقت.

واشتهر عند المتأخرين القول بتعدد النظم الكتابية، قال أبو حيان الأندلسي: «فقد صار الاصطلاح في الكتابة على ثلاثة أنحاء: اصطلاح العروض، واصطلاح كتابة المصحف، واصطلاح الكُتَّابِ في غير هذين»[٢]، وقال وهو يوضح قواعد الإملاء: «في القرآن أشياء كُتِبَتْ على غير القياس»[٣]، وصَرَّحَ بعضهم أن الخط له قوانين، وصار يقيس رسم المصحف على تلك القوانين، فقال المالقي: «ٱعْلَمْ أنَّ الخط له قوانين وأصولًا يُحْتَاجُ إلى معرفتها...

---

(١) كتاب الكُتَّاب ص ١٦.

(٢) الهجاء ص ٤٣، وينظر: الزركشي: البرهان ٣٧٦/١، والقلقشندي: صبح الأعشى ١٦٨/٣.

(٣) الهجاء ص ٨٩.

وٱعْلَمْ أَنَّ أكثر خط المصحف موافق لتلك القوانين، وقد جاء فيه أشياء خارجة عن ذلك، يلزم ٱتباعها ولا تُتَعَدَّى، منها ما عرفنا سببه ومنها ما غاب عنا»[١].

إن دراسة ما بَقِيَ من نصوص كتابية عربية قديمة، مما يرجع إلى عصر ما قبل الإسلام، وما كُتِبَ في القرن الهجري الأول، يشير إلى أن تلك الكتابات كانت تحمل الخصائص الكتابية التي ٱتَّسَمَ بها رسم المصحف، من حذف وزيادة وبدل وغيرها، ويعني ذلك أن كُتَّابَ الوحي ﷺ استعملوا في تدوين القرآن الكريم ما كان يستعمله الناس في كتابتهم، وأن الرسم العثماني يمثل مرحلة من مراحل الكتابة العربية، حَمَلَ خصائص تلك المرحلة، وهو يمثلها خير تمثيل، واستمر الحال على ذلك إلى أن ظهر علماء العربية وأسسوا للكتابة ضوابط تستند إلى أقيستهم النحوية وأصولهم الصرفية[٢]، ومن ثم ظهر نظامان للكتابة العربية: رسم المصحف الذي يمثل تقاليد الكتابة العربية القديمة، وعلم الإملاء والخط الذي صاغ قواعده علماء العربية في القرن الثاني الهجري وما بعده، وينبغي أن يتجه البحث عن تفسير ظواهر رسم المصحف إلى المرحلة التي تسبق ظهور علماء العربية، وليس من خلال القوانين التي وضعوها للكتابة العربية في حقب لاحقة[٣].

---

(١) الدر النثير ص ٥٨٩.

(٢) ينظر: نصر الهوريني: المطالع النصرية ص ٢٦.

(٣) ينظر في تفصيل هذه الفكرة البحث الموسوم (موازنة بين رسم المصحف والنقوش العربية القديمة)، لكاتب هذه السطور، وهو منشور في مجلة المورد، المجلد ١٥، العدد ٤، بغداد ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م، وأعيد نشره ضمن كتاب: أبحاث في علوم القرآن (ص ١٦١-٢٠٨)، عمان ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٦م.

المطلب الثالث: دلالة الرسم العثماني على أصالة النص القرآني

إن بقاء رسم المصحف كما كَتَبَهُ الصحابة في المصاحف العثمانية، بكل ما فيه من ظواهر كتابية لا يتطابق فيها الرسم مع النطق، مثل زيادة حرف، أو حذف حرف، أو إبدال حرف، دليل أن ذلك الرسم لم يتغير منذ الكِتْبَةِ الأُولى، ولو كان قد تغير لجاءت ظواهره على نحو ما تقتضيه قواعد الإملاء التي وَضَعَ أسسها علماء العربية في القرن الثاني الهجري وما بعده، بناء على قاعدة رسم الكلمة مبدوءًا بها وموقوفًا عليها.

وإننا حين نتحدث عن أصالة النص القرآني فإن ذلك يشمل الحديث عن تنزيل القرآن الكريم، وقد تقدم الحديث عن ذلك في الفصل الأول الخاص بالحديث عن ظاهرة الوحي، وحفظ القرآن، ويشمل أيضًا الحديث عن تدوينه في الرقاع، وفي الصحف والمصاحف، وقد تقدم الحديث عن ذلك في الفصل الثاني، وكانت الوسيلة لذلك التدوين هي الرسم العثماني بما يحمل من خصائص كتابية، ومهما اختلفت وجهات النظر في تفسيرها، فإنها تؤكد بقاء الرسم بصورته الأولى التي كُتِبَ بها في المصاحف العثمانية.

وقد يتساءل البعض عن دليل يؤكد له أن المصحف الذي يقرأ فيه القرآن الكريم اليوم هو ذات المصحف الذي كتبه الصحابة بين يدي النبي ﷺ مفرقًا في الرقاع، ثم مجموعًا في الصحف ومنسوخًا في المصاحف في زمن خلفائه الراشدين؟

إن الرسم العثماني الذي كُتِبَتْ به المصاحف الأولى، ووصفه العلماء في كتبهم التي أَلَّفُوها في علم رسم المصحف، وتجري عليه كتابة المصاحف

في زماننا، هو واحد من أدلة كثيرة تؤكد ما ذكرته من أن المصحف الذي نقرأ فيه اليوم هو عين المصحف الذي كتبه الصحابة، فهذا الرسم بظواهره كافة ينتمي إلى تلك الحقبة المباركة، لم يلحقه تغيير، ولم يتجرأ على محو آثاره عالم أو جاهل، وكانت كل كلمة فيه موضع نظر وتدقيق، على نحو ما تقدمت الإشارة إليه من تدقيق الكَتَبَةِ رسم كلمة (التابوت)، ورسم كلمة (يَتَسَنَّهْ)، وبعض الكلمات الأخرى.

وثمة كلمات في المصحف لفتتْ إليها الأنظار من ناحية عدم التطابق الإعرابي بينها وبين ما عُطِفَتْ عليه، مثل قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢].

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٦٩].

واعتنى النحويون بالتوجيه الإعرابي لنصب كلمة (المقيمين) في الآية الأولى، ورفع كلمة (الصابئين) في الآية الثانية، والاحتجاج لها من كلام العرب[1]،

---

(١) استبعد العلماء بالقرآن واللغة أن تكون هذه الكلمات الثلاث من الخطأ في القراءة أو الكتابة، مستدلين بأمرين، **الأول**: إجماع القراء على قراءتها كذلك، **والثاني**: توجيه أهل النحو لها بناء على مذاهب العرب في الكلام، فقال الطبري في تفسيره (٩/٣٩٨): «مع أنَّ ذلك لو كان خَطأً من جهة الخط، لم يكن الذين أُخِذَ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يُعَلِّمُونَ مَن عَلَّمُوا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولأصلحوه بألسنتهم، ولقنوه الأمة تعليمًا على وجه الصواب، وفي نقل المسلمين جميعًا ذلك قراءةً، على ما هو به في الخط مرسومًا، أَدَلُّ الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأنْ لا صنع في ذلك للكاتب».

ومع ذلك فإن هناك من قال بأن ذلك قد يكون من خطأ الكاتبين[١]، لكن أحدًا

---

(١) روى أبو معاوية، عن هشام بن عروة، عن أبيه أنه سأل عائشة رضي الله عنها عن لَحْنِ القرآن، عن قوله: ﴿إِنْ هَٰذَانِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ [طه: ٦٣]، وعن ﴿وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [النساء: ١٦٢]، وعن ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: ٦٩]، فقالت: يا ابن أختي، هذا عمل الكُتَّاب، أَخْطَؤُوا في الكِتَاب». تعني: في الكتابة. (ينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن ص٢٨٧، وابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/٢٣٥، والداني: المقنع ص ٢٩٧).

ونص السيوطي على صحة سندها (الإتقان ٤/١٢٣٦) لكن من علماء الحديث من ضَعَّفَ رواية أبي معاوية عن هشام، وأنَّ في أحاديث هشام اضطراب. (ينظر: الإتقان ٤/١٢٣٦ هامش٣)، وقال الطبري في تفسيره (٩/٣٩٨): «(مع أن ذلك لو كان خطأ من جهة الخط، لم يكن الذين أُخِذَ عنهم القرآن من أصحاب رسول الله ﷺ يُعَلِّمُونَ مَن عَلَّمُوا ذلك من المسلمين على وجه اللحن، ولأصلحوه بألسنتهم، ولقنوه للأمة تعليمًا على وجه الصواب. وفي نقل المسلمين جميعا ذلك قراءة على ما هو به في الخط مرسومًا أدل الدليل على صحة ذلك وصوابه، وأنْ لا صنع في ذلك للكاتب).

وروى أبو عبيد في فضائل القرآن (ص ٢٨٧ و٣٤١): «عن عكرمة، قال: لمَّا كُتِبَتِ المصاحف عُرِضَتْ على عثمان، فوجد فيها حروفًا من اللحن، فقال: «لا تغيروها فإن العرب ستغيرها، أو قال: ستعربها بألسنتها، لو كان الكاتب من ثقيف، والمملي من هُذَيْلٍ لم توجد فيه هذه الحروف»، وأخرجه ابن شبة في تاريخ المدينة (٣/١٠١٣)، عن يحيى بن يعمر، قال: قال عثمان رضي الله عنه: إن في القرآن لحنًا، ستقيمه العرب بألسنتها).

وقال الداني في المقنع (ص ٢٩٤-٢٩٥): «قلت: هذا الخبر عندنا لا يقوم بمثله حجة ولا يصح به دليل من جهتين: إحداهما أنه مع تخليط في إسناده واضطراب في ألفاظه مرسل، لأن ابن يعمر وعكرمة لم يَسْمَعَا من عثمان شيئًا ولا رأياه، وأيضًا فإن ظاهر ألفاظه ينفي وروده عن عثمان رضي الله عنه لِمَا فيه من الطعن عليه مع محلِّه من الدين ومكانه من الإسلام وشدَّة اجتهاده في بذل النصيحة واهتباله بما فيه الصلاح للأمة، فَغَيْرُ متمكن أن يتولى لهم جمع المصحف مع سائر الصحابة الأتقياء الأبرار نظرًا لهم ليرتفع الاختلاف في القرآن بينهم، ثم يترك لهم فيه مع ذلك لحنًا وخطأ يتولى تغييره من يأتي بعده ممن لا شك أنه لا يدرك مداه ولا يبلغ غايته ولا غاية من شاهده، هذا ما لا يجوز لقائل أن يقوله، ولا يحل لأحد أن يعتقده».

=

من العلماء وكُتَّابِ المصاحف لم يُـقْدِمْ على تغيير الياء واوًا، أو الواو ياء، وفي هذا أكبر الدليل على أن الرسم العثماني بظواهره كافة يدل دلالة قاطعة على وثاقة النص القرآني وأصالته، والرسم هو الركن الأعظم في إثبات قرآنية القرآن، كما قال الشوكاني(١)، وظل رسم المصحف كما خطته أيدي الكتاب من الصحابة رضي الله عنهم.

وقد روى البخاري في صحيحه، والبيهقي في السنن الكبرى، عن عبد الله ابن الزبير، وهو أحد كُتَّابِ المصاحف العثمانية، قال: «قلت لعثمان بن عفان رضي الله عنه: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: ٢٤٠] قد نسختها الآية الأخرى [٢٣٤] فَلِمَ تَكْتُبُهَا؟ قال: **يا ابن أخي، لا أُغَيِّرُ شيئًا منه من مكانه**»(٢). قال أبو حيان الأندلسي: «يعني عثمان: من مكانه الذي رَتَّبَهُ رسول الله ﷺ فيه»(٣). وقال الطاهر بن عاشور: «اتساق الحروف، واتساق

= ثم قال الداني (المقنع ص ٢٩٥): «فإن قال: فما وجه ذلك عندك لو صحَّ عن عثمان رضي الله عنه؟ قلتُ: وجهه أن يكون عثمان رضي الله عنه أراد باللحن المذكور فيه التلاوة دون الرسم، إذ كان كثير منه لو تُلِيَ على رسمه لانقلب بذلك معنى التلاوة، وتغيرت ألفاظها... فأعَلَمَ عثمانُ رضي الله عنه، إذ وَقَفَ على ذلك، أَنَّ مَن فاته تمييز ذلك وعَزَبَتْ معرفته عنه، ممن يأتي بعده، سيأخذ ذلك عن العرب، إذ هم الذين نزل القرآن بلغتهم، فَيُعَرِّفُونَهُ بحقيقة تلاوته، ويَدُلُّونَهُ على صواب رسمه، فهذا وجه عندي، والله أعلم».

(١) ينظر: إرشاد الفحول ٨٩/١.

(٢) صحيح البخاري ٢٩/٦ و٣١ (رقم الحديث ٤٥٣٠ و٤٥٣٦)، والنسائي: السنن الكبرى ٧٠١/٧ (رقم الحديث ١٥٤٦٠).

(٣) البحر المحيط ٥٥٢/٢.

الآيات، واتساق السور، كله عن رسول الله ﷺ»[١].

وقد أَثْبَتَتِ الوثائق الكتابية التي تعود إلى عصر التنزيل، وعصر صدر الإسلام أن ظواهر الرسم العثماني تعكس تقاليد الكتابة العربية في ذلك العصر، مثل حذف بعض الحروف أو زيادتها أو إبدال بعضها ببعض، ومن أشهر الظواهر الكتابية المعروفة آنذاك عدم رسم الألفات في وسط الكلمات، وهي ظاهرة واضحة في الرسم العثماني، لكننا نجد أيضًا شيوع إثبات تلك الألفات في كثير من الكلمات، ولا يمكن تخطئة من أثبت الألفات، أو تخطئة من حذفها، فمن أثبتها فإنه كان يستجيب لمتطلبات النطق، ومن حذفها فإنه كان يحافظ على تقليد كتابي راسخ لرسم تلك الكلمات، وكنت قد بينت ذلك بالتفصيل في بعض ما كتبته عن رسم المصحف من قبل[٢]، والحمد لله رب العالمين.

*** *** ***

ولا يخفى على القارئ الكريم أننا كنا نتحدث في هذا المبحث عن الرسم العثماني المجرد من العلامات الكتابية، كما كانت المصاحف الأولى مجردة، وقد اخترع علماء التابعين وتابعيهم علامات الحركات ونقاط الإعجام، ومَرَّ استعمال العلامات بمرحلتين:

المرحلة الأولى: النَّقْطُ الْمُدَوَّر، الذي اخترعه أبو الأسود الدؤلي (ت٦٩هـ) حين قال لكاتبه: «خُذِ المصحفَ وصبغًا يخالف لون المداد، فإذا

---

(١) التحرير والتنوير ١/٧٩.

(٢) ينظر في ذلك كتابي: (حقائق عن رسم المصحف) خاصة الفصل الرابع (ص ٩٩-١٣٥): (بيان زيف دعاوى بدائية الخط، وعدم انتظام قواعده).

فتحتُ شفتيَّ فانْقُطْ واحدةً فوق الحرف، وإذا ضَمَمْتُهُمَا فاجعل النقطة إلى جانب الحرف، وإذا كسرتُهما فاجعل النقطة في أسفله، فإن أَتْبَعْتُ شيئًا من هذه الحركات غُنَّةً فانْقُطْ نقطتين»[١].

وقام بعض تلامذة أبي الأسود الدؤلي باستعمال النِّقاط بلون مداد الكتابة لتمييز الحروف المتشابهة في الصورة، والتي تسمى بنقاط الإعجام، تمييزًا لها عن نقاط الإعراب التي اخترعها أبو الأسود، ويُنْسَبُ هذا العمل إلى نصر بن عاصم الليثي (ت٩٠هـ)[٢].

المرحلة الثانية: الشَّكْلُ المستطيل، وهو استعمال الحركات من فتحة وضمة وكسرة، بدلًا من نِقاط الإعراب، ونقل الداني عن محمد بن يزيد المبرد أنه قال: «الشَّكْلُ الذي في الكتب مِن عَمِلِ الخليل، وهو مأخوذ من صُوَرِ الحروف، فالضمة واوٌ صغيرةُ الصورة في أعلى الحرف، لئلا تلتبس بالواو المكتوبة، والكسرة ياء تحت الحرف، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف»[٣].

وأَلَّفَ العلماء في علم النقط والشكل، الذي صار يُعْرَفُ في وقت متأخر بعلم الضبط، مؤلفات كثيرة، من أشهرها في زماننا كتاب (المحكم في علم نقط المصاحف) لأبي عمرو الداني، وكتاب (أصول الضبط وكيفيته على جهة الاختصار) لأبي داود سليمان بن نجاح تلميذ الداني.

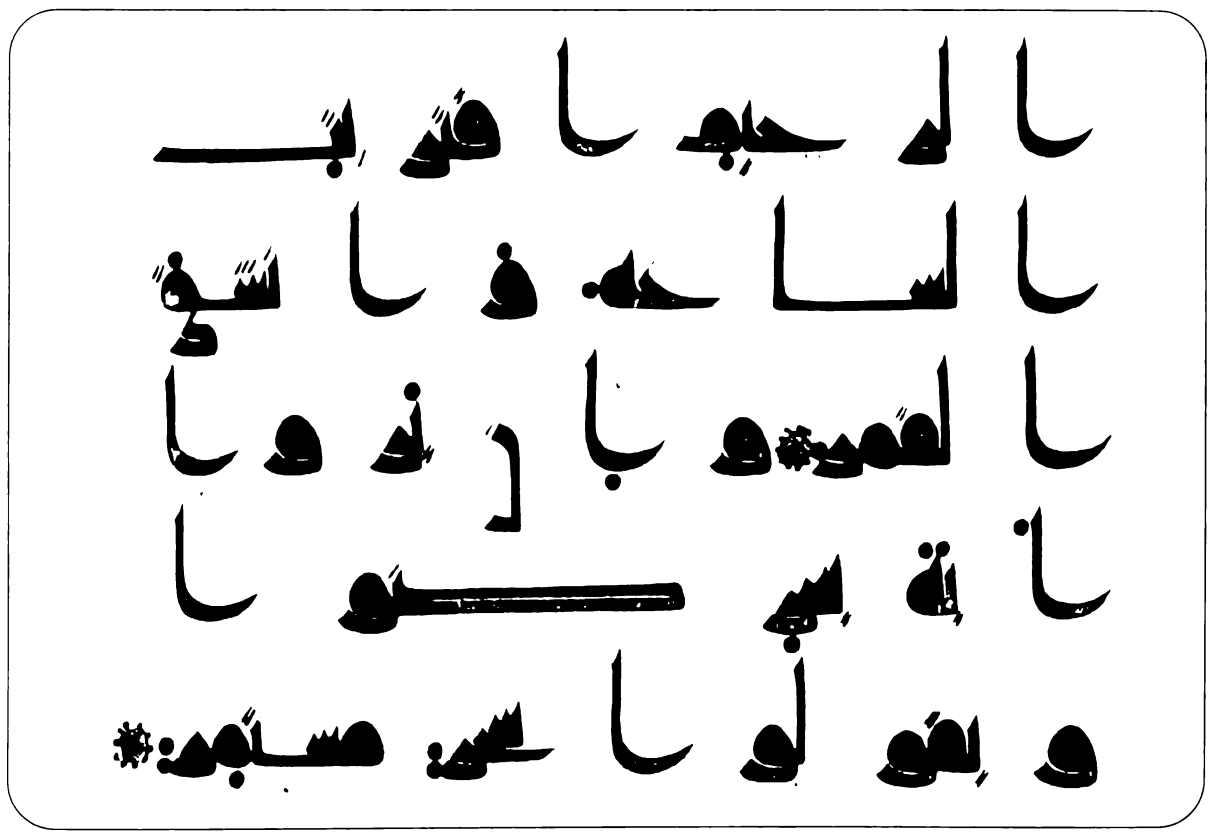
---

(١) ابن الأنباري: إيضاح الوقف والابتداء ١/٢٤١، وينظر: النديم: كتاب الفهرست ١/١٠٥، والداني: المحكم ص ٦٤.

(٢) ينظر: حمزة الأصفهاني: التنبيه على حدوث التصحيف ص٢٧، والعسكري: شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص١٣.

(٣) المحكم ص ٧١.

ولا أجد هاهنا حاجة لتفصيل القول في موضوع الضبط، لعدم تعلق الحديث عن أصالة النص القرآني به بشكل مباشر، كتعلق الرسم العثماني به، وأكتفي بنقل صورة لمصحف منقوط بِنَقْطِ الإعراب، وأخرى لمصحفٍ مضبوط بشكل الخليل، توضح للقارئ هذا الجانب من تاريخ المصحف، ومن أراد الوقوف على تفاصيل الموضوع يمكنه مراجعه المصادر الأخرى فيه[١].



صحيفة من بقايا مصحف بالخط الكوفي، وبنقط الإعراب

(أول سورة القمر ١-٢)

(المكتبة الوطنية بباريس ٣٥٠)

(١) ينظر عن موضوع النقط والشكل: كتبي: رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية ص ٤٦٥-٦٠٩، والميسر في علم رسم المصحف وضبطه ص ٢٨٥-٣٤٣، وعلم النقط والشكل: التاريخ والأصول ص ٩-٨٣، وأبحاث في رسم المصحف وضبطه.



صحيفة من مصحف ابن البواب (خط ٣٩١هـ)

(سورة الفاتحة وأول سورة البقرة)

(مكتبة جستربتي رقم ك/١٦)

المبحث الخامس

المصاحف المخطوطة ودلالتها على أصالة النص القرآني

تحتفظ المكتبات العالمية اليوم بآلافٍ من المصاحف المخطوطة، كثير منها يعود إلى القرون الهجرية الأولى، والقرون اللاحقة حتى عصرنا الحاضر، وتُمَثِّلُ تلك المصاحف ثروة علمية عظيمة الأهمية من نواح عدة، وقد يتبادر إلى ذهن بعض الدارسين أن تلك المصاحف فَقَدَتْ أهميتها بعد أن دخل المصحف عصر الطباعة، وصارت آلاف النسخ المطبوعة طباعةً أنيقةً تَحْجِبُ تلك النسخَ المخطوطة، فلم يَعُدْ أَحَدٌ يقرأ بها، فَوُضِعَتْ على رفوف المكتبات وفي خزائنها، وقد يَتَصَوَّرُ بعض الدارسين أن تلك المصاحف فَقَدَتْ قيمتها التاريخية والعلمية أيضًا بعد دخول المصحف عصر الطباعة، شَأْنُهَا في ذلك شَأْنُ مخطوطاتِ الكتب التي طُبِعَتْ ولم يَعُدْ أحدٌ يَرْجِعُ إليها.

وإذا كانت المصاحف المخطوطة قد فَقَدَتْ وظيفتها، فلم يَعُدْ أحدٌ يستخدمها في القراءة، فإنها في الواقع لم تفقد أهميتها التاريخية والعلمية والفنية، فمن الناحية التاريخية تحكي تلك المصاحف قصة الحِفْظِ المُوَثَّقِ للمصحف منذ عصر الصحابة إلى زماننا هذا، ومن الناحية العلمية تُبَيِّن تلك المصاحف جوانب مهمة من علوم القرآن التي خَدَمَتِ المصحفَ والقراءةَ فيه، وتتمثل بعلم رسم المصحف، وعلم الضبط، وعلم العد والتحزيب، وعلم القراءة، وعلم الوقف

والابتداء، كما تكشف تلك المصاحف ما بذله كُتَّابُ المصاحف من جهد في تحسين الخط العربي، وما بذله الفنانون من جهد في تزيين المصاحف بأجمل اللوحات الفنية الخاصة بأطر الصفحات وفواتح السور وحاويات أعداد الآيات والأجزاء والأحزاب ومواضع السجدات ونحوها.

وما يعنينا الحديث عنه في هذا المقام الدلالة التاريخية لتلك المصاحف، إذ إنَّ أَمْرَ النبي ﷺ بكتابة القرآن الكريم، ونهيه في أول عصر البعثة عن كتابة شيء عنه غير القرآن(١)، يدل على حرصه على تقييد النص القرآني بطريقة لا يتطرق إليها النسيان أو التلف، لأن الكتابة قَيْدٌ يمنع من ضياع المكتوب، وورد في الأثر: «قَيِّدُوا العلم بالكِتَاب»(٢)، ومعناه ضَبْطُهُ حتى لا يَتَفَلَّتْ(٣).

وقد تَكَفَّلَ الله تعالى بحفظ القرآن الكريم، فقال تعالى في سورة الحجر: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾، وذلك بأنْ هَيَّأَ أسباب حفظه في صدور الحُفَّاظ، وفي سطور المصاحف، وقد «رُوعِيَ في تسميته قرآنًا كونه مَتْلُوًّا بالأَلْسُنِ، كما رُوعِيَ في تسميته كتابًا كونه مُدَوَّنًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية الشيء بالمعنى الواقع عليه، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا، أَنْ تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى، فلا ثقة لنا بحفظِ حافظٍ حتى يوافق الرسمَ المُجْمَعَ عليه

(١) تقدَّم تخريجه في المبحث الأول من هذا الفصل.

(٢) تقدَّم تخريجه في المبحث الأول من هذا الفصل.

(٣) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ص ٣/٣٧٣.

من الأصحاب، المنقولَ إلينا جيلًا بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة، ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر»[١]، فلم يقتصر النص المُنَزَّلُ «على كونه قرآنًا أو مجموعةً من الآيات التي تُتْلَى أو تُقْرَأُ وتُحْفَظُ في الصدور، وإنما كان أيضًا كتابًا مُدَوَّنًا بالمداد، فهاتان الصورتان تتضافران وتصحح كل منهما الأخرى»[٢].

إن وجود آلاف النسخ من القرآن الكريم في شتى بقاع العالم، ومن أزمنة تمتد على مدى أربعة عشر قرنًا من الزمان وهي متفقة في النص الذي تتضمنه أعظم دليل وخير شاهد على الحفظ المُوَثَّقِ لهذا الكتاب الكريم كما تلقاه الصحابة عن رسول الله ﷺ وكتبوه عنه، وهذه الحقيقة سَلَّمَ لها الباحثون المحققون من أهل الملة الإسلامية، وكذلك من غيرهم من المستشرقين، مع حرص هؤلاء الشديد على الوقوف على أيِّ ثغرة تمكنهم من الطعن في سلامة نصه[٣].

«وننظر نحن اليوم من وراء القرون إلى وَعْدِ الله الحق بحفظ هذا الذكر، فنرى فيه المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب - إلى جانب غيرها من الشواهد الكثيرة - ونرى أن الأحوال والظروف والملابسات والعوامل التي تَقَلَّبَتْ على هذا الكتاب في خلال هذه القرون ما كان يمكن أن تتركه مصونًا محفوظًا لا تتبدل فيه كلمة، ولا تُحَرَّفُ فيه جملة، لولا أنَّ هنالك قدرةً خارجة عن إرادة

(١) محمد عبد الله دراز: النبأ العظيم ص ١٢-١٣.

(٢) محمد عبد الله دراز: المدخل إلى القرآن الكريم ص ٣٤.

(٣) ينظر: المصدر نفسه ص ٣٩-٤٠.

البشر، أكبرَ من الأحوال والظروف والملابسات والعوامل، تحفظ هذا الكتاب من التغيير والتبديل، وتصونه من العبث والتحريف.

لقد جاء على هذا القرآن زمانٌ في أيام الفتن الأُولى كَثُرَتْ فيه الفرق، وكَثُرَ فيه النزاع، وطَمَّتْ فيه الفتن، وتماوجت فيه الأحداث، وراحت كل فرقة تبحث لها عن سند في هذا القرآن وفي حديث رسول الله ﷺ ودخل في هذه الفتن وساقها أعداء هذا الدين... ولقد أَدْخَلَتْ هذه الفرق على حديث رسول الله ﷺ ما احتاج إلى جهد عشرات العلماء الأتقياء الأذكياء عشراتٍ من السنين لتحرير سُنَّةِ رسول الله ﷺ وغربلتها وتنقيتها من كل دخيل عليها من كيد أولئك الكائدين لهذا الدين. كما استطاعت هذه الفرق في تلك الفتن أنْ تُؤَوِّلَ معاني النصوص القرآنية، وأن تحاول أن تلويَ هذه النصوص لتشهد لها بما تريد تقريره من الأحكام والاتجاهات.

ولكنها عجزت جميعًا - وفي أشد أوقات الفتن حلوكة واضطرابًا - أن تُحْدِثَ حدثًا واحدًا في نصوص هذا الكتاب المحفوظ، وبقيت نصوصه كما أنزلها الله حجةً باقيةً على كل مُحَرِّفٍ وكل مُؤَوِّلٍ، وحجةً باقية كذلك على ربانية هذا الذكر المحفوظ.

ثم جاء على المسلمين زمان - ما نزال نعانيه - ضعفوا فيه عن حماية أنفسهم، وعن حماية عقيدتهم، وعن حماية نظامهم، وعن حماية أرضهم، وعن حماية أعراضهم وأموالهم وأخلاقهم، وحتى عن حماية عقولهم وإدراكهم! وغَيَّرَ عليهم أعداؤهم الغالبون كل معروف عندهم، وأحلوا مكانه كُلَّ منكر فيهم، كُلَّ منكر من العقائد والتصورات، ومن القيم والموازين، ومن

الأخلاق والعادات، ومن الأنظمة والقوانين... ولكن أعداء هذا الدين - بعد هذا كله - لم يستطيعوا تبديل نصوص هذا الكتاب ولا تحريفها، ولم يكونوا في هذا من الزاهدين، فلقد كانوا أحرص الناس على بلوغ هذا الهدف لو كان يُبْلَغُ، وعلى نيل هذه الأمنية لو كانت تُنَالُ!... فَدَلَّ هذا مرة أخرى على ربانية هذا الكتاب، وشهدتْ هذه المعجزة الباهرة بأنه حَقًّا تنزيل من عزيز حكيم.

لقد كان هذا الوعد على عهد رسول الله ﷺ مجرد وَعْدٍ، أما هو اليوم، من وراء كل تلك الأحداث الضخام، ومن وراء كل تلك القرون الطوال، فهو المعجزة الشاهدة بربانية هذا الكتاب، والتي لا يماري فيها إلا عنيد جهول، ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، وصدق الله العظيم»[1].

إن دراسة عدد محدود من المصاحف القديمة المخطوطة أظهرت التطابق التام بينها وبين النص الذي نقرؤه في أحدث المصاحف المطبوعة في عصرنا، وهذا من أعظم الشواهد على ثبات نص القرآن الكريم على مر العصور، وأنه لم يتعرض للتغيير لا من ناحية تلاوته ولا من ناحية رسمه، وهذه النتيجة بلا شك ستكون مصدر سعادة لمن يؤمنون به، كما أنها ستكون مصدر هداية لغيرهم.

وكنتُ قد قرأتُ ودرستُ عددًا من المصاحف المخطوطة القديمة، وقت دراستي لموضوع رسم المصحف في رسالة الماجستير، منها مصحف جامع عمرو بن العاص المحفوظ بدار الكتب المصرية برقم (١٣٩)، ومصحف طشقند المحفوظ نسخة مصورة منه بدار الكتب المصرية برقم (٢٠٤)، وهما مكتوبان

---

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن ٤/٢١٢٧-٢١٢٩.

بالخط الكوفي القديم المجرد[١]، ودرست مصحف المخلصي المخطوط سنة (٣٥٣هـ)، وكتبت حوله بحثًا سنة ١٤٣٤هـ (٢٠١٢م)[٢]، وكذلك راجعت عشرين مصحفًا، من فترات متعددة، تمتد من القرن الأول الهجري إلى سنة ١٣١١هـ، وقت تأليفي كتاب (علوم القرآن بين المصادر والمصاحف)[٣].

وقد أظهرتْ تلك القراءة في تلك المصاحف، ودراسة جوانب متعددة فيها، تطابق النص القرآني فيها، وموافقة المصاحف المطبوعة في عصرنا للنص القرآني فيها أيضًا، ولا يغير اختلاف الخطوط فيها، وتباين رسم بعض الكلمات، وتنوع علامات الضبط، وتنوع القراءات القرآنية التي ضبطت بها، من تلك الحقيقة، وهذا كله يدل دلالة واضحة على أصالة النص القرآني، وثباته خلال العصور المتعاقبة، طيلة ما يقرب من خمسة عشر قرنًا من الزمان.

ودَرَسَ الدكتور طيار آلتي قولاج عددًا من المصاحف القديمة، وقام بنشرها، مع دراسة تفصيلية مع كل مصحف من تلك المصاحف[٤]، وصَرَّحَ

---

(١) ينظر: كتابي: رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية ص ١٩٢-١٩٤، وكتابي: ظواهر كتابية في مصاحف مخطوطة (بالاشتراك مع د. إياد سالم السامرائي) ص ١١-٢٣.

(٢) ينظر: كتابي: علم المصاحف (مجموعة أبحاث) ص ١٢٩-١٧٢.

(٣) ينظر: علوم القرآن بين المصادر والمصاحف ص ٣٠٩-٣٣٠.

(٤) المصاحف التي قام بنشرها دكتور طيار هي:

- المصحف الشريف المنسوب إلى عثمان بن عفان (نسخة مكتبة طوب قابي سرايي)، إستانبول ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

- المصحف الشريف المنسوب إلى عثمان بن عفان ﷺ (مصحف متحف الآثار التركية والإسلامية بإستانبول)، ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م. =

في أكثر من دراسة منها بأنَّ «أهم الموضوعات في تاريخ القرآن الكريم هو الجانب الذي يعنى بمسألة الصفاء والنقاء الذي فاض بها ينبوع الوحي، هل حافظت على وجودها أم لا أو بتعبير آخر مسألة الحِفَاظ أو عدم الحِفَاظ على القرآن الكريم»[١]، وأكد هذا المعنى بقوله: «لا ريب أن مسألة موثوقية القرآن الكريم تتصدر الموضوعات التي يعنى بها الباحثون في تاريخ القرآن الكريم، والواقع أن هذه المسألة تحوز أهمية علمية عظيمة في معتقدات المسلمين كافة»[٢].

وقال أيضًا: «والهدف الذي نسعى إليه نحن من تحقيق هذا المصحف وغيره هو تقديم ذلك لنظر الباحثين في تاريخ القرآن الكريم والاستفادة منه، ثم مساعدتهم على تطوير طروحاتهم في مواجهة ظلال الشك التي يحاول البعض إلقاءها حول موثوقية الكتاب العزيز (القرآن الكريم)، لأن شهادة هذه المصاحف التي وصلتنا من عصور الإسلام الأولى وإثباتها لموثوقية القرآن

= – المصحف الشريف المنسوب إلى عثمان بن عفان ﷺ (مصحف جامع الحسين بالقاهرة)، إستانبول ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.

– المصحف الشريف المنسوب إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (نسخة صنعاء)، إستانبول ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.

– المصحف الشريف (نسخة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة)، إستانبول ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م).

– المصحف الشريف (نسخة المكتبة الوطنية، باريس)، إستانبول ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م.

– المصحف الشريف (نسخة توبنجن)، إستانبول ١٤٣٧هـ = ٢٠١٦م.

– المصحف الشريف (نسخة المكتبة البريطانية في لندن)، إستانبول ١٤٣٩هـ = ٢٠١٧م.

(١) مصحف متحف طوب قابي سرايي ص ٢٢.

(٢) المصحف الشريف (نسخة توبنجن) ص ١١.

الكريم هي في رأينا أمر عظيم الأهمية»[١].

وقال أيضًا: «ويجدر بي وأنا أتصدى لهذا العمل أن أقول: إني بدأت الطريق مؤمنًا (بالحكم المسبق حول أن القرآن نتاج الوحي)، ورغم انعدام الشك في أن القرآن وصلنا دون تغيير أو تحريف، وأن ذلك يتأكد من خلال مصاحف سيدنا عثمان التي وصلتنا أو من خلال نسخ المصاحف المكتوبة في عهد قريب إلى جيل الصحابة، فإني لم أتصور أن ذلك سوف يُنْظَرُ إليه على أنه نتيجة غير عادية، ورأيت أنه إذا وجدنا تطابقًا بين تلك المصاحف وبين المصاحف المطبوعة في عصرنا فإنه سوف يكون أمرًا رائعًا حول موثوقية القرآن»[٢]. ثم قال: «وكما ذكرنا عند نشرنا للمصاحف التي أشرنا إليها سابقًا، فإن كون القرآن الكريم أقدم كتاب وصلنا كما هو، دون أن يتعرض لأي تغيير، واقع وحقيقة... والمصاحف التي قمنا بتحقيقها ونشرها وكذلك المصاحف الأخرى (التي تنتظر فوق أرفف المتاحف والمكتبات) إنما هي الدليل الملموس على ذلك»[٣].

وذكر الدكتور طيار في الدراسة التي كتبها عن كل مصحف من تلك المصاحف دلالتها على موثوقية النص القرآني، وكرر القول بأنه «مهما كانت نسبة النقص في أوراق تلك المصاحف فليست هناك إمكانية للحديث عن وجود أي تغيير في الآيات والسور الواردة في تلك المصاحف، باستثناء بعض

---

(١) المصحف الشريف (نسخة توبنجن) ص ١٧.

(٢) مصحف متحف الفن الإسلامي ص ٢٧، وينظر: المصحف الشريف المنسوب إلى علي بن أبي طالب (نسخة صنعاء) ص ١٦٩.

(٣) مصحف متحف الفن الإسلامي ص ٢٩.

المواضع القليلة التي سها فيها الكاتب، وفروق الإملاء البسيطة التي لا تؤثر في المعنى»[١].

ومن الدراسات الحديثة التي تُقَدِّمُ لنا شهادة أخرى على أصالة النص القرآني من خلال المصاحف المخطوطة كتاب (النص القرآني الخالد عبر العصور)[٢] للدكتور محمد مصطفى الأعظمي، رحمه الله تعالى، الذي صدر سنة ١٤٣٨هـ = ٢٠١٧م، والذي دَرَسَ فيه سورة الإسراء في سبعة عشر مصحفًا مخطوطًا، تغطي كل العصور الإسلامية من منتصف القرن الأول الهجري، إلى القرن الحالي، مُصَدَّرَةً بمصحف المدينة النبوية [٣]، وأَدْرَجَ كلمات السورة البالغة (١٥٥٩) كلمة من جميع المصاحف المذكورة في جداول تستغرق ١٥٠ صحيفة[٤]، وتؤكد موازنة نص سورة الإسراء في هذه المصاحف على وحدة النص فيها، باستثناء تباين رسم بعض الكلمات، مما تسمح به طبيعة الرسم العثماني، ووجود بعض الأخطاء في بعضها، ناتجة عن سهو الكاتب، وليست قراءة جديدة للنص[٥]. وهذه صورة صحيفة من تلك الجداول، للآية الأولى من سورة الإسراء في الكتاب:

---

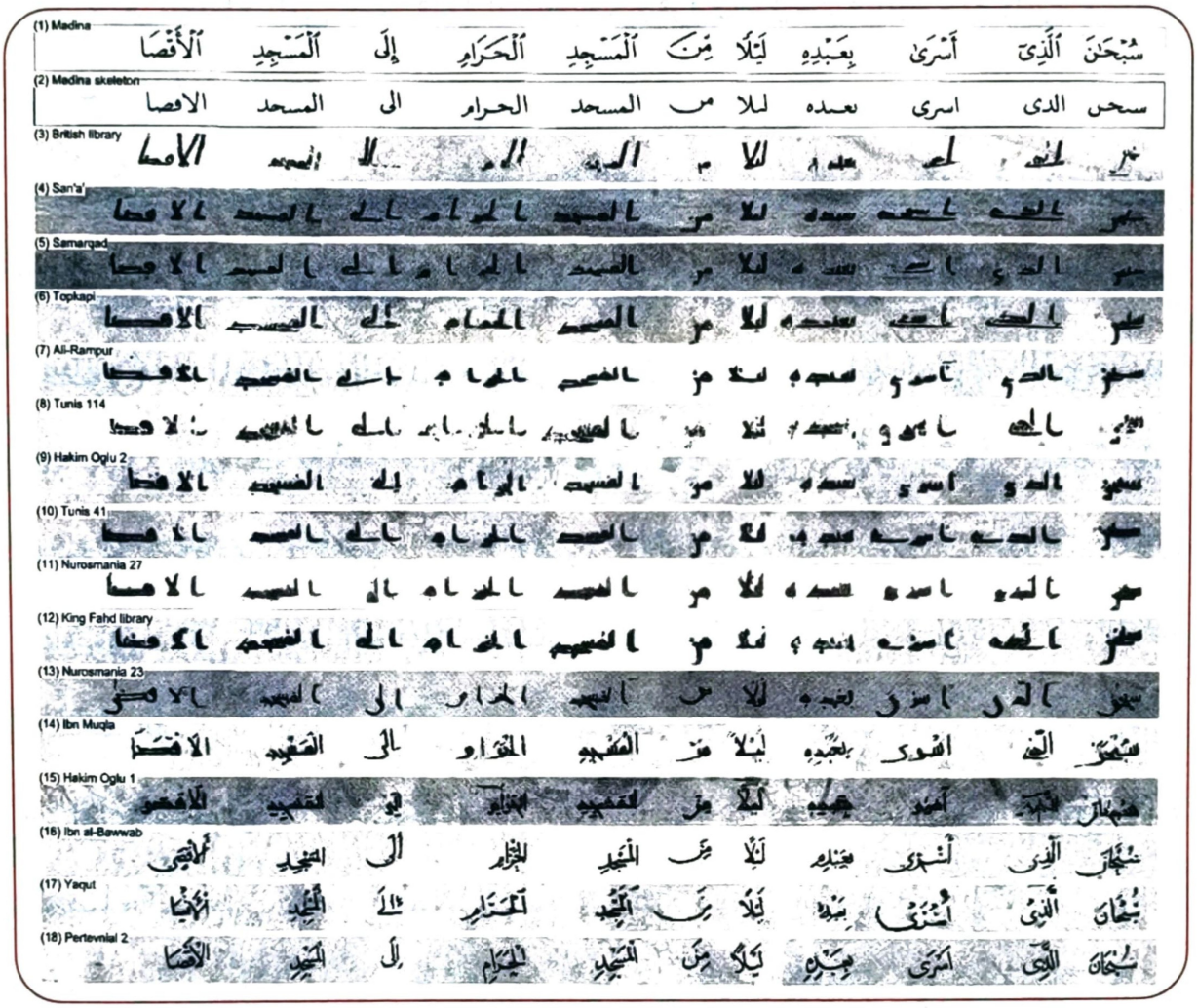
(١) المصحف الشريف (نسخة توبنجن) ص ٣٦، وينظر: المصحف الشريف (المكتبة الوطنية، باريس) ص ١٨، والمصحف الشريف (نسخة المكتبة البريطانية في لندن) ص ٣٠.

(٢) يتكون الكتاب من المقدمة والدراسة في ٥١ صحيفة، ثم جداول كلمات سورة الإسراء في ١٤٦ صحيفة، والقسم المكتوب باللغة الإنكليزية في ٤٤ صحيفة.

(٣) ينظر: النص القرآني الخالد ص ٥-٦، و١٣، و٢٤.

(٤) ينظر: النص القرآني الخالد ص ٢٤.

(٥) ينظر: النص القرآني الخالد ص ٢٥.



إن الاختلافات التي تظهر في هذا الجدول تقتصر على ظواهر إملائية محدودة لا تخل بوحدة النص، ولا بالنطق للكلمات المنقول مشافهة بالرواية المتصلة، فكلمة (سبحان) تبدو في المصاحف القديمة بدون ألف، بينما تبدو في بعض المصاحف الحديثة بالألف، وكلمة (الأقصا) كُتِبَتْ في بعض المصاحف بالألف المقصورة (الأقصى)، ولا يؤثر ذلك شيئًا في النطق أو المعنى.

إن النظر في عشرات المصاحف المخطوطة القديمة يؤكد الحقيقة المعروفة بأن القرآن الكريم قد تحقق حفظه من التغيير أو الزيادة أو النقص، من لدن نَزَلَ به جبريل على قلب النبي ﷺ، وتدوينه في الرقاع، وجمعه في

الصحف، ونسخه في المصاحف، إلى زماننا الحاضر، ولا شك في أن النظر في مئات المصاحف الأخرى، أو الآلاف منها، لن يغير هذه النتيجة، بل سوف يزيدها تأكيدًا ووضوحًا.

ولا يخفى على القارئ أن خطاطي المصاحف بشر، قد يلحقهم السهو، فيقع منهم الخطأ وهم يكتبون القرآن، خاصة إذا كانوا يقومون بذلك بشكل فردي، «فمن الطبيعي أن يقع هذا النوع من الأخطاء في جميع الكتابات التي تخطها يد الإنسان، ولا سيما في النصوص الطويلة مثل نص القرآن الكريم»[١]، ولكن ذلك لا يعني وقوع تغيير في القرآن الكريم، ولا يقدح في أصالة النص القرآني، فهي أخطاء فردية، وسوف يتداركها من يقرؤون في المصحف، في العصور المتلاحقة، من خلال حفظ القرآن الكريم في قلوب المؤمنين، وتلاوته المستمرة ليل نهار بألسنتهم، ومن خلال شهادة آلاف النسخ المخطوطة من المصاحف على صحة النص القرآني وسلامته، والحمد لله رب العالمين[٢].

---

(١) طيار آلتي قولاج: المصحف الشريف (نسخة المكتبة البريطانية في لندن) ص ٣٣، وينظر: المصحف الشريف (نسخة توبنجن) ص ١٩.

(٢) قال الدكتور طيار آلتي قولاج في الدراسة الخاصة بمصحف المكتبة البريطانية في لندن (ص ٣١): «إن المصاحف الصادرة عن أقلام جميع الخطاطين قديمهم وحديثهم تنطوي كلها تقريبًا على قدر من الأخطاء قد يقل أو يزيد، وبينما يكون من الطبيعي أن نتقبل ذلك نرى بعض المستشرقين قد جعلوا من الأخطاء التي وجدوها في المصاحف أو أوراق المصاحف التي ترجع إلى عهد مبكر دليلًا على أن القرآن الكريم مر بمرحلة من التغيير على مدى الزمن، وراحوا يختلقون السيناريوهات حول ذلك... لا شك أن هناك اختلافًا كبيرًا في المنهج بين بعض المستشرقين الغربيين المعاصرين ممن تناولوا موضوع موثوقية القرآن الكريم وبين الكُتَّاب المسلمين، وذلك الاختلاف إنما يتعلق بمسألة كون الأمر =

** ** **

= من الأمور يؤثر سلبًا أو لا يؤثر في مفهوم الموثوقية، وعند النظر في الأمثلة الخاصة بذلك نشاهد بأن الأخطاء الكتابية الموجودة في أي كلمة في أوراق المصاحف القديمة أو التصحيحات (التغييرات) التي أجريت على كلمة من الكلمات يعتبرها البعض من المستشرقين دليلًا على وقوع التغيير في القرآن، بينما ينظر المؤلفون المسلمون إلى الأمر على أنه خطأ وقع من المستنسخ (الكاتب) نفسه».

وقال في الدراسة الخاصة بمصحف مكتبة توبنجن (ص ١٩): «إن الكتبة سوف يواصلون الكتابة، بينما يقوم آخرون أو يقوم الكاتب نفسه بتصحيح الأخطاء التي يعثر عليها، والشاهد على ذلك أن كل المصاحف القديمة التي قمنا بدراستها ونشرها حتى اليوم تحتوي عددًا من الأخطاء الكتابية، حتى وإن كانت محدودة، وعلينا أن نرى في ذلك أمرًا طبيعيًا جدًا، والربط بين مثل هذه الأمور وموثوقية القرآن الكريم شيء لا يصل بنا إلى نتيجة سليمة». (وينظر: مصحف متحف الفن الإسلامي ص ١٦، و ص ٢٥).

الفصل الثالث

لغة القرآن الكريم

قد يستغرب القارئ من الحديث عن لغة القرآن الكريم، وتخصيص فصل كامل لذلك، بعد ما شاع واشتهر أن القرآن مُنَزَّلٌ باللغة العربية، وصَرَّحَتْ بذلك آيات كثيرة، ولم ينكر ذلك أحد من الدارسين من القدماء والمحدثين، ولكن ثمة مسائل تستدعي الحديث عن بعض الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع، قد لا يتعلق بعضها بوثاقة النص القرآني مباشرة، لكنها تُشَكِّلُ مدخلًا لبعض الشُّبَهِ التي يثيرها بعض الكُتَّاب المعاصرين.

من تلك المسائل الحديث عن نزول القرآن باللغة العربية وكون رسالته للناس كافة بمختلف لغاتهم، وكذلك الحديث عن اللغة التي نزل بها القرآن من لغات العرب، لأن لغاتهم (أي لهجاتهم) كانت متعددة وقت التنزيل، كما هي اليوم، شأنها في ذلك شأن اللغات البشرية الأخرى، ومنها الوقوف عند بعض الشبهات التي تداولها بعض الدارسين المُحْدَثِينَ حول عربية القرآن وخصائصها، مما يُشَوِّشُ على أهل القرآن ذلك الصفاء والنقاء الذي تميز به تاريخ النص القرآني.

ومن القضايا الكبرى التي تلفت نظر الدارسين اليوم حيوية لغة القرآن، فعلى الرغم من تقادم الزمان على نزول القرآن الكريم بها، فلا تزال حية قوية معطاء، وعلى الرغم من حملات التشوية، والدعوات إلى التخلي عنها، وإحلال

العاميات مكانها، فلا تزال اللغة الرسمية لمئات الملايين من الناس، واللغة الدينية لأكثر من مليار ونصف من المسلمين، ولا يخفى على القارئ أنَّ سر هذه الحيوية يكمن في ارتباطها بالقرآن الكريم، ومن ثم فإن هذا الموضوع يستحق الدراسة والنظر.

وجاء هذا الفصل يتناول عددًا من القضايا المتعلقة بلغة القرآن الكريم في أربعة مباحث، هي:

المبحث الأول: عربية القرآن وعالمية رسالته

المبحث الثاني: نزول القرآن بلغة قريش

المبحث الثالث: شبهات حول عربية القرآن

المبحث الرابع: سر حيوية اللغة العربية

وسبق لي كتابة عدد من البحوث في موضوعات تتعلق بهذه المباحث، ولكني وفق الخطة التي ألزمت نفسي بها في هذا الكتاب لا أنقل تلك البحوث بحذافيرها إلى هذا الفصل، وسوف أعيد صياغة مادتها، وأُثْبِتُ منها ما يتناسب وموضوع الكتاب، وأراجع ما يحتاج إلى مراجعة لتضمين ما استجد عندي من معلومات جديدة تعزز ما كنت قد رجحته في بحوثي السابقة.

** ** **

المبحث الأول

عربية القرآن وعالمية رسالته

لابد أنْ تكون لغة الرسالة التي يحملها الرسول هي لغة قومه الذين يدعوهم إليها، حتى تتحقق الغاية من إرساله، وقد أكد القرآن الكريم هذه القاعدة في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝٤﴾ [إبراهيم]، ومعنى (بلسان قومه) أي: بلغتهم(١).

وقد جاء القرآن عربيًا لأن الله تعالى أنزله على النبي العربي محمد ﷺ، وأَمَرَهُ أن ينذر عشيرته الأقربين أَوَّلًا، في مكة، فقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وأُمُّ القرى هي مكة(٢).

وقال الإمام الشافعي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن قال قائل: الرُّسُلُ قبل محمد ﷺ كانوا يُرْسَلُونَ إلى قومهم خاصة، وإن محمدًا بُعِثَ إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن يكون بُعِثَ بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما أطاقوا منه، ويحتمل أن يكون بُعِثَ بألسنتهم، فهل من دليل على أنه بُعِثَ بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟

---

(١) ينظر: الطبري: جامع البيان ١٦/٥١٧.

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان ٢١/٥٠٣.

فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعًا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتَّبَع على التابع، وأولى الناس بالفضل في اللسان مَن لسانه لسان النبي ﷺ، ولا يجوز، والله أعلم، أن يكون أهل لسانه أتباعًا لأهل لسانٍ غير لسانه في حرف واحد، بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه، وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابه، منها: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) الآية، قال الشَّافِعِي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فأقام حجته بأن كتابه عربي»[١].

قال صديق حسن خان: إن النبي ﷺ أُرْسِلَ إلى الناس جميعًا، بل إلى الجن والإنس، ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة، لكن لَمَّا كان قومه العرب، وكانوا أخص به وأقرب إليه، كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم ويوضحونه حتى يصير فاهمًا له كفهمهم إياه، ولو نَـزَلَ القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم وبَـيَّـنَهُ رسول الله ﷺ لكل قوم بلسانه، لكان ذلك مَظِنَّةً للاختلاف، وفتحًا لباب التنازع، لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها، وربما كان ذلك أيضًا مُفْضِيًا إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوى الباطلة التي يقع فيها المتعصبون[٢].

وبلغ عدد الآيات الكريمة التي تؤكد نزول القرآن باللغة العربية، ووصفه بأنه عربي، عشر آيات، وهذه حقيقة واضحة لمن قرأ القرآن أو سمعه، لكن

---

(١) الرسالة ص ٣٤، وتفسير الإمام الشافعي ٢/٩٨٧-٩٨٨.

(٢) ينظر: فتح البيان ٧/٨٢.

تأكيد القرآن عليها لا بد أن يكون لمعنى مقصود، وهو أن القرآن عربي، وأن قراءته لا تجوز بغير العربية، ومن ثم ذهب جمهور العلماء إلى عدم جواز قراءة القرآن بغير العربية، في الصلاة وخارجها[١]، ولا تُسَمَّى ترجمة معاني القرآن قرآنًا، كما لا يسمى التفسير في العربية قرآنًا، فالقرآن وحي باللفظ والمعنى.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء]. (وينظر: النحل: ١٠٣).

وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]. (وينظر: طه: ١١٣، والزمر: ٢٨، وفصلت: ٣، والشورى: ٧، والزخرف: ٣).

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ [الرعد: ٣٧].

فاللَّهُ تعالى جعل القرآن عربيًا، وأنزله عربيًا، لأن المخاطبين به من قوم النبي ﷺ كانوا عربًا، ليعقلوا معانيه، ويفهموا ما فيه من مواعظ، ولم ينزله بلسان العجم فيقولوا: نحن عرب، وهذا كلام أعجمي لا نفقه معانيه، فأنزله بلسانهم، حتى يفقهوا ما فيه، فيتقوا ما حذَّرهم الله منه، وينيبوا إلى عبادته وطاعته[٢].

ومما يلفت النظر في الآيات السابقة قوله تعالى: (وَكَذلِكَ أَنْزَلْناهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) [الرعد: ٣٧]، قال الطبري: «وكما أنزلنا عليك الكتاب، يا محمد،

---

(١) ينظر: الماوردي: الحاوي الكبير ٩٦/٢، والسرخسي: المبسوط ٣٧/١، والكاساني: بدائع الصنائع ١١٢/١، وشيخي زاده: مجمع الأنهر ٩٣/١.

(٢) ينظر: الطبري: جامع البيان ٢٨٣/٢١، و٥٦٢.

فأنكره بعض الأحزاب، كذلك أيضًا أنزلنا الحكم والدين حكمًا عربيًا، وجعل ذلك عربيًا، ووصفه به لأنه أنزل على محمد ﷺ، وهو عربي فَنُسِبَ الدين إليه»[١].

*** *** ***

إن رسالة القرآن ودعوة الإسلام جاءت للناس كافة، تشهد بذلك النصوص ووقائع التاريخ، ولا يتناقض ذلك مع كون القرآن أُنْزِلَ باللغة العربية، على النبي العربي محمد ﷺ، وفي بلاد العرب، لأن البشرية لا تملك لغة عالمية يفهمها الجميع، فكان لا بد من أن تكون الرسالة الخاتمة بإحدى اللغات البشرية، ثم على المؤمنين من أبناء اللغات الأخرى أن يتعلموا من تلك اللغة ما يُعَرِّفُهم بمضمون تلك الرسالة، «فالوحي كله إنما نزل بلسان العرب، ولا يَرِدُ على هذا كونه ﷺ بُعِثَ إلى الناس كافة عربًا وعجمًا وغيرهم، لأن اللسان الذي نزل عليه به الوحي عربي، وهو يبلغه إلى طوائف العرب، وهم يترجمونه إلى غير العرب بألسنتهم»[٢].

وجاءت آيات القرآن الكريم تؤكد هذا المعنى وتوضحه، قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء]، وقال ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [سبأ]، وقال: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]،

---

(١) جامع البيان ١٦/٤٧٥.

(٢) ابن حجر: فتح الباري ٩/١٠، وينظر: ابن بطال: شرح صحيح البخاري ١٠/٢١٨.

قال أهل التفسير: «يقول تعالى ذكره: وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة، ولكنا أرسلناك كافة للناس أجمعين، العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود...»[١].

وقد بَيَّنَ رسول الله ﷺ هذا المعنى أيضًا، فجاء في حديث جابر بن عبد الله، الذي رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: (أُعْطِيتُ خمسًا لم يُعْطَهُنَّ أحدٌ من الأنبياء قبلي)، وذكر منهن: (وكان النبي يُبْعَثُ إلى قومه خاصة، وبُعِثْتُ إلى الناس كافة)[٢].

وخُتِمَتِ الرسالات ببعثة النبي محمد ﷺ، قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾ [الأحزاب]، «فهو رسول الله، وخاتم النبيين الذي خَتَمَ النبوة فَطُبِعَ عليها، فلا تُفْتَحُ لأحد بعده إلى قيام الساعة»[٣]. وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [آل عمران]، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده، لا يَسْمَعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرْسِلْتُ به إلا كان من أصحاب النار»[٤]. قال

---

(١) الطبري: جامع البيان ٢٠/٤٠٥.

(٢) صحيح البخاري ١/٧٤، (رقم الحديث ٣٣٥)، و١/٩٥، (رقم الحديث ٤٣٨)، وصحيح مسلم ١/٣٧٠، (رقم الحديث ٥٢١).

(٣) تفسير الطبري ٢٠/٢٧٨.

(٤) صحيح مسلم ١/١٣٤، (رقم الحديث ١٥٣).

الإمام النووي في شرح هذا الحديث: «فيه نَسْخُ المِلَلِ كلها برسالة نبينا ﷺ... وقوله: (لا يسمع بي أحد من هذه الأمة)، أي ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته»[١].

ومع أن رسالة الإسلام ناسخة للرسالات السابقة لها فإنها جاءت امتدادًا لها، ومكملة لأحكامها، وقد مَثَّلَ ذلك رسول الله ﷺ بقوله: «إنَّ مَثَلِي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي كمَثَلِ رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لَبِنَةٍ من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له، ويقولون: هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَة! قال: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتم النبيين»[٢].

وقد أمر الله تعالى المؤمنين بقوله: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾ [البقرة].

إن عالمية رسالة الإسلام لا تُلْغِي موقع العرب المتميز في حملها، فقد اختار الله تعالى العرب ليتلقوا هذه الدعوة أولًا، ثم يبلغوها إلى أبعد أنحاء العالم، لأن ألواح قلوبهم كانت صافية، لم تُكْتَبْ عليها كتابات دقيقة عميقة يصعب محوها وإزالتها، فلم تكن على ألواح قلوبهم إلا كتابات بسيطة خطتها يد الجهل والبداوة، ومن السهل محوها وغسلها، ورسم نقوش جديدة مكانها، وكانوا أصحاب إرادة قوية، وجِدٍّ وصراحة وصرامة، اعتادوا القول

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم ٢/١٨٨.

(٢) صحيح البخاري ٤/١٨٦، (رقم الحديث ٣٥٣٥)، وصحيح مسلم ٤/١٧٩١، (رقم الحديث ٢٢٨٦).

السديد والعزم الأكيد، وقد أثبت العرب الأولون حكمة هذا الاختيار بفهمهم العميق لطبيعة الإسلام، وإساغتهم الكاملة لتعاليمه، وتجردهم النادر عن كل ما ينافيها، وحماستهم المنقطعة النظير في نشر الإسلام، وتفانيهم الغريب في إعلاء كلمته، ورفع شأنه، وأمانتهم الدقيقة في حفظ روحه ونفسيته، ونجاحهم المدهش في تسخير القلوب والعقول لقبول عقيدته وثقافته[١].

لقد ربط الله تعالى بين العرب والإسلام إلى الأبد، وربط مصير أحدهما بالآخر، فلا عز للعرب إلا بالإسلام، ولا يظهر الإسلام في مظهره الصحيح إلا إذا قاد العرب ركبه وحملوا مشعله[٢]، كما أن الله تعالى ربط بين القرآن والعربية، فالقرآن أكبر عوامل حياة هذه اللغة واستمرارها وانتشارها ووحدتها، وتظل اللغة العربية أساسًا لتلاوة القرآن وفهمه وتفسير آياته، ومن ثَمَّ فإن ما لا يحصى من المسلمين من غير العرب يحبون هذه اللغة الكريمة ويحرصون على تعلمها وإتقانها في القديم وفي الحديث، لأنها لغة القرآن، ولغة العبادة والدين.

وقد أحسن أبو منصور الثعالبي (ت ٤٣٠هـ) التعبير عن العلاقة الخالدة بين العربية والقرآن بقوله: «مَنْ أحَبَّ الله تعالى أَحَبَّ رسوله المصطفى ﷺ، ومَن أَحَبَّ النبيَّ العربيَّ أَحَبَّ العربَ، ومَن أَحَبَّ العرب أَحَبَّ العربية، التي بها نزل أفضل الكتب على أفضل العجم والعرب، ومن أحب العربية عُنِيَ بها، وثابر عليها، وصَرَفَ همته إليها، ومَن هَدَاهُ الله للإسلام، وشرح صدره للإيمان، وآتاه حُسْنَ سريرةٍ فيه، اعتقد أنَّ محمدًا ﷺ خيرُ الرسل، والإسلام

(١) ينظر: الندوي: السيرة النبوية ص ٤٢-٤٥.

(٢) ينظر: الندوي: العرب والإسلام ص ٤.

خيرُ الملل، والعرب خير الأمم، والعربية خير اللغات والألسنة، والإقبال على تفهمها من الديانة، إذ هي أداة العلم ومفتاح التفقه في الدين، وسبب إصلاح المعاش والمعاد»[١].

** ** **

(١) فقه اللغة وأسرار العربية ص ٢٩.

المبحث الثاني

نزول القرآن بلغة قريش

من المعلوم أنَّ لغة العرب في عصر التنزيل لم تكن موحدة، شأنها في ذلك شأن اللغات الأخرى، فالعرب «وإن جَمَعَ جميعَها اسمٌ أنهم عَرَبٌ، فهم مختلفو الألسن بالبيان، متباينو المنطق والكلام»[(١)]، فكان لكل قبيلة من قبائل العرب لغة تنفرد بها، وتؤخذ عنها، وقد اشتركوا في الأصل[(٢)]، وإن الله تبارك وتعالى بَعَثَ نبيه ﷺ والعرب متناؤون في المَحَالِّ والمقامات، متباينون في كثير من الألفاظ واللغات، ولكل عَمَارَةٍ لغةٌ دلت بها ألسنتهم[(٣)].

وإذا كان الأمر كذلك فإن من العلماء من تساءل: أَبِأَلْسُنِ العرب جميعها نَزَلَ القرآن الكريم، أم بِأَلْسُنِ بعضها؟[(٤)]، وقد اختلفوا في الإجابة على هذا السؤال على قولين:

القول الأول: منهم من قال: نزل القرآن بلغة جميع العرب، لأن اسم العرب يتناول الجميع، وانعكس هذا الاختلاف على تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ

---

(١) الطبري: جامع البيان ٢١/١.

(٢) ينظر: ابن النديم: الفهرست ١٢/١.

(٣) ينظر: أبو شامة المقدسي: المرشد الوجيز ص ١٢٨.

(٤) ينظر: الطبري: جامع البيان ٢١/١.

﴿أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فذهب البعض إلى القول: إن القرآن أُنْزِلَ بلسان جميع العرب(١)، قال الآلوسي: «وكون المتبادر من (قومه)، عليه الصلاة والسلام قريشًا، مما لا أظن أن أحدًا يمتري فيه، ويليه في التبادر العرب»(٢).

القول الثاني: ومنهم من قال: نزل القرآن بلسان قريش خاصة، لأنهم قوم النبي ﷺ وعشيرته الأقربون الذين خوطبوا بالقرآن قبل غيرهم، وأَخَذَ عدد من العلماء بهذا القول، مستدلين بمجموعة من الشواهد التاريخية، ونظرًا لأهمية هذا الموضوع وارتباطه بالقراءات القرآنية من جانب، وبتفسير عدد من الظواهر المرتبطة بها، مثل ظواهر الرسم القرآني، فإني سوف أعرض لتلك الأدلة بالتفصيل، حتى تتضح أبعاد هذه القضية، وحتى لا تنعكس سلبًا على فهم وثاقة النص القرآني.

المطلب الأول: الشواهد التاريخية على نزول القرآن بلغة قريش

حفظ لنا التاريخ شهاداتٍ لعدد من صحابة رسول الله ﷺ تؤكد أن القرآن الكريم نزل بلغة قريش، منها رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حين بلغه أنه يُعَلِّمُ الناس القرآن في الكوفة بلغة قومه هُذَيْل، ونصها: «أما بعد فإن الله تعالى أنزل القرآن بلغة قريش، فإذا أتاك كتابي هذا

---

(١) ينظر: القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ١/٤٤، وأبو شامة: المرشد الوجيز ص ٩٤، وابن حجر: فتح الباري ٩/١٠، والعيني: عمدة القاري ٢٠/١٥.

(٢) روح المعاني ١٣/١٨٦.

فَأَقْرِئِ الناسَ بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هذيل»[١].

ومنها قول عثمان بن عفان ﷺ للثلاثة القرشيين الذين نسخوا الصحف في المصاحف مع زيد بن ثابت: «إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم»[٢].

ومنها أقوال عدد من علماء التابعين تؤكد ذلك أيضًا، مثل قول مجاهد ابن جبر المكي (ت ١٠٢هـ) المفسر، تلميذ ابن عباس، في تفسير قوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه): نزل القرآن بلسان قريش[٣]. ومنها قول عكرمة بن خالد بن العاص المخزومي القرشي (ت ١١٦هـ): نزل القرآن بلساننا، يعني قريش[٤].

وسمع خالد بن سلمة بن العاص المخزومي (ت ١٣٢هـ) قَتَادَةَ بنَ دِعَامَةَ السَّدُوسِيَّ (ت ١١٧هـ) يُحَدِّثُ عن أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ) أنه قال: نَزَل القرآن بلسان الكعبين: كعب بن عمرو، وكعب بن لؤي، فقال خالد بن سلمة لسعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي (ت ١٢٦هـ): «أَلَا تَعْجَبُ من هذا الأعمى يزعم أن القرآن نَزَلَ بلسان

---

(١) ينظر: ابن شبة: تاريخ المدينة ٢/٧١١، و٣/١٠١٠، وابن الأنباري: إيضاح الوقف والابتداء ١/١٣، والداني: التحديد ص ٨٠، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ٤/٦٤١، وأبو شامة: المرشد الوجيز ص ١٠١، وابن حجر: فتح الباري ٩/٩.

(٢) تقدم تخريجه في الفصل الثاني، في المبحث الخاص بنسخ المصاحف.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنف ٦/١٢١، وابن شبة: تاريخ المدينة ٣/١٠١٠، وتفسير ابن أبي حاتم ٩/٢٨١٨، والسيوطي: الدر المنثور ٤/٤٩٦، و٥/٥.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنف ٦/١٢١.

الكعبين، وإنما نزل بلسان قريش!»[١].

المطلب الثاني: الاحتجاج بظاهرة الهمز في القراءات

المشهور في لغة قريش تسهيل الهمز، وبروز ظاهرة الهمز في قراءة القرآن الكريم جَعَلَتْ بعض العلماء يترددون في قبول القول بنزول القرآن بلغة قريش على إطلاقه، ولكنهم لم يتجرؤوا على رده لوروده بأسانيد صحيحة، فمن ثم قالوا: نزل معظمه بلسان قريش، ونزل بعضه بلغة غير قريش من العرب، قال القاضي أبو بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ): «ومعنى قول عثمان أنه أنزل بلسان هذا الحي من قريش أي معظمه وأكثره نزل بلغتها، ولم تقم حجة قاطعة على أن القرآن بأسره نزل بلغة قريش، بل ثبت أنَّ فيه همزًا، وقريش لا تهمز، وثبت أنَّ فيه حروفًا وكلمات بغير لغة قريش»[٢].

وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر (ت ٤٦٣هـ): «قول مَن قال: (إن القرآن نزل بلغة قريش) معناه عندي في الأغلب، والله أعلم، لأن غير لغة قريش موجودة في صحيح القراءات من تحقيق الهمزات ونحوها، وقريش لا تهمز»[٣]. وقال أبو عمرو الداني (ت ٤٤٤هـ): «وأن القرآن لم ينزل بلغة قريش فقط دون سائر العرب، وإن كان معظمه نزل بلغة قريش»[٤].

ولا يكفي وجود الهمز في قراءة القراء دليلًا على القول بأن القرآن نزل

---

(١) الطبري: جامع البيان ١/٦٦، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ١٠/٤٢٥.

(٢) نكت الانتصار ص٣٨٥، وينظر: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/٤٥.

(٣) التمهيد ٨/٢٨٠.

(٤) جامع البيان ١/١٣٠.

بلغة غير قريش من العرب، فهناك ما يشير إلى أن تسهيل الهمز كان سمة بارزة لقراءة أهل الحجاز، وأن المصاحف كُتِبَتْ بتسهيل الهمزة، يؤكد ذلك ما رواه ابن مجاهد عن عيسى بن مينا قالون (ت ٢٢٠هـ) تلميذ نافع وراوي قراءته، أنه قال: «كان أهل المدينة لا يهمزون حتى هَمَزَ ابن جندب، فهمزوا: (مستهزئون)، و(استهزئ)»[١]. وابن جندب هو مسلم بن جندب شيخ نافع، وما رواه ابن الأنباري عن خلف بن هشام البغدادي (ت ٢٢٩هـ) أنه قال: «وقريش لا تهمز، ليس الهمز من لغتها، وإنما هَمَزَتِ القراءُ بلغة غير قريش من العرب»[٢].

وقال أبو عمرو الداني: «والهمزةُ قد تُصَوَّرُ على المذهبين من التحقيق والتسهيل، دلالة على فُشُوِّهِمَا واستعمالهما فيها، إلا أن أكثر الرسم ورد على التخفيف، والسبب في ذلك كونه لغة الذين وَلُوا نسخ المصاحف زمن عثمان، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وهم قريش، وعلى لغتهم أُقِرَّتِ الكتابة حين وقع الاختلاف بينهم وبين الأنصار فيها، على ما ورد في الخبر الثابت المذكور في كتاب المرسوم[٣]، فلذلك ورد أكثر الهمز على التسهيل، إذ هو المستقر في طباعهم والجاري على ألسنتهم»[٤].

---

(١) كتاب السبعة ص ٦٠.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ١/٣٩٢.

(٣) يريد الداني كتابه (المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار)، وهو يشير إلى اختلاف زيد بن ثابت الأنصاري ومن معه من الكَتَبَةِ من قريش في رسم كلمة (التابوت)، (ينظر: المقنع ص ١١٦).

(٤) المحكم ص ٢٨٢-٢٨٣.

فقضية وجود الهمز في معظم القراءات القرآنية لا تكفي في رد الروايات الصحيحة المنقولة عن الصحابة والتابعين والقائلة بنزول القرآن بلغة قريش، ويمكن تفسير شيوع الهمز في القراءات من خلال ظاهرة الاختيار في القراءة، ومن خلال النظر في تاريخ ظاهرة الهمز في اللغة العربية.

المطلب الثالث: ظاهرة الهمز في اللغة والقراءة

تتفق أقوال علماء العربية على أن أهل الحجاز، ومنهم قبيلة قريش قاطني مكة، كانوا يُسَهِّلُونَ الهمزات، أي ينطقونها واوًا أو ياء أو ألفًا في غير أول الكلمات، كما في قولهم: بِير، ورَاس، وسُول، وأن أهل نجد، ومنهم قبيلة تميم وقيس وأسد كانوا يحققون الهمزات، فيقولون: بِئْر، ورَأْس، وسُؤْل، ويستدلون على ذلك بقول أبي زيد الأنصاري (ت ٢١٥هـ): «أهل الحجاز وهذيل وأهل مكة والمدينة لا ينبرون، وَقَفَ عليها عيسى بن عمر (ت ١٤٩هـ) فقال: ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر وهم أصحاب النبر، وأهل الحجاز إذا اضطروا نَبَرُوا»[١]. والنَّبْر هو الهمز، قال أبو منصور الأزهري: «وللعرب مذاهب في الهمز، فمنهم مَن يُحَقِّقُ الهمز، ويسمونه النبر»[٢].

ويشير قول أبي زيد الأنصاري عن الهمز إلى أن لغات العرب في القرون الأولى كانت تنقسم على قسمين، لغة أهل التحقيق، وهم قبائل شرقي الجزيرة العربية، أي بلاد نجد، ولغة أهل التسهيل، وهم قبائل غربي الجزيرة، أي بلاد الحجاز، وقال ابن يعيش مبينًا ذلك: «اعْلَمْ أنَّ الهمزة حرفٌ شديدٌ

(١) ابن منظور: لسان العرب ١/٢٢.

(٢) معاني القراءات ١/١٢٩، وينظر: ابن منظور: لسان العرب ٥/١٨٩.

مستثقلٌ يخرج من أقصى الحلق، إذ كان أدخلَ الحروف في الحلق، فاستُثْقِلَ النطقُ به، إذ كان إخراجُه كالتهوع، فلذلك من الاستثقال ساغ فيها التخفيفُ، وهو لغةُ قريش، وأكثر أهل الحجاز، وهو نوعُ استحسان لثقل الهمزة، والتحقيقُ لغةُ تميم وقَيْس، قالوا: لأنَّ الهمزة حرفٌ، فوجب الإتيانُ به كغيره من الحروف، وتخفيفُها كما ذُكر بالإبدال والحذفِ، وأن تجعل بين بين»[١].

أما ظاهرة الهمز في القراءة فإنها تعكس ما كانت عليه الظاهرة في لغات العرب، قال ابن الجزري: «وكانت قريش وأهل الحجاز أكثرهم له تخفيفًا، ولذلك أكثر ما يرد تخفيفه من طرقهم، كابن كثير من رواية ابن فُلَيْحٍ، وكنافع من رواية ورش وغيره، وكأبي جعفر من أكثر رواياته، ولا سيما رواية العُمَرِيِّ عن أصحابه عنه، فإنه لم يكد يحقق همزة وصلًا، وكابن مُحَيْصِنٍ قارئ أهل مكة مع ابن كثير وبعده، وكأبي عمرو، فإن مادة قراءته عن أهل الحجاز»[٢].

وبروز ظاهرة الهمز في بعض قراءات أهل الحجاز جاء بأخذ بعضهم القراءة عن غيرهم من القراء، فقد نقل ابن الأنباري عن خلف بن هشام البغدادي أنه قال: «وقريش لا تَهْمِزُ، ليس الهمز من لغتها، وإنما هَمَزَتِ القراء بلغة غير قريش من العرب»[٣]. يؤيد ذلك ما رواه ابن مجاهد عن عيسى بن مِينا قالون، أحد الرواة عن نافع، أنه قال: «كان أهل المدينة لا يهمزون حتى همز ابن جُنْدُبٍ، فهمزوا (مستهزئون)، و(استهزئ)»[٤]. وابن جندب هذا

---

(١) شرح المفصل ٥/٢٦٥.

(٢) النشر ١/٤٢٨.

(٣) إيضاح الوقف والابتداء ١/٣٩٢.

(٤) كتاب السبعة ص ٦٠.

هو مسلم بن جندب الهذلي، أحد شيوخ نافع بن أبي نعيم المدني[١].

وإذا كان الغالب على قراءة أبي جعفر يزيد بن القعقاع تسهيل الهمزات، فإنه برزت في قراءة تلميذه نافع ظاهرة الهمز، من خلال تلقيه القراءة عن عدد كبير من شيوخ القراءة من التابعين، بلغوا سبعين قارئًا، وكان أشهرهم خمسة: عبد الرحمن بن هرمز الأعرج، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع، وشيبة بن نِصَاح، ومسلم بن جندب، ويزيد بن رومان[٢]، وكان فيهم من يهمز في قراءته، قال نافع: «أدركت هؤلاء الأئمة الخمسة وغيرهم... فنظرت إلى ما اجتمع عليه اثنان منهم فأخذته وما شذ فيه واحد فتركته، حتى أَلَّفْتُ هذه القراءة في هذه الحروف»[٣].

وتأليف نافع قراءته على ذلك النحو يسمى بالاختيار، وهو أن يختار القارئ من مجموع ما أخذه عن شيوخه قراءةً واحدةً يتمسك بها، ويعلمها فتنسب إليه، على سبيل الاختيار، لا على سبيل الاختراع، وكان نافع يقرئ الناس بجميع القراءات إلا أن يقول المتعلم له: أريد قراءتك، فَيُقْرِئُهُ حينئذ باختياره[٤].

ولم ينفرد نافع بهذه الظاهرة في القراءة، فلجميع القراء من السبعة والعشرة اختيار في القراءة، قال ابن مجاهد: «وكان علي بن حمزة الكسائي

---

(١) ينظر: ابن مجاهد: كتاب السبعة ص ٥٩، وابن الجزري: غاية النهاية ٢/٢٩٧.

(٢) ينظر: ابن مجاهد: كتاب السبعة ص ٦١، وابن الجزري: النشر ١/١١٢.

(٣) كتاب السبعة ص ٦١-٦٢.

(٤) ينظر: السخاوي: جمال القراء ص ٥٣٢، وابن الجزري: غاية النهاية ٢/٣٣٣.

قد قرأ على حمزة، ونَظَرَ في وجوه القراءات، وكانت العربية علمه وصناعته، واختار من قراءة حمزة وقراءة غيره قراءة متوسطة غير خارجة عن آثار مَن تقدَّم مِن الأئمة»[١].

ويتضح من خلال هذا العرض بأن الاحتجاج بوجود الهمز في قراءة القرآن الكريم لرد القول بنزول القرآن بلغة قريش، وقريش لا تهمز، مذهب ضعيف، لأن قراءة أهل الحجاز الأولى كانت بتسهيل الهمزات، ولأن شيوع الهمز في قراءة بعض قراء الحجاز ناتج عن ظاهر الاختيار، فقد كان الهمز معروفًا في القراءة من خلال رخصة الأحرف السبعة، قال ابن قتيبة: «فكان من تيسيره (ﷻ) أنْ أَمَرَهُ (ﷺ) بأن يُقْرِئَ كل قوم بلغتهم، وما جرت عليه عادتهم... التميمي يَهْمِزُ، والقرشي لا يَهْمِزُ... ولو أن كل فريق من هؤلاء أُمِرَ أن يزول عن لغته، وما جرى عليه اعتياده طفلًا وناشئًا وكهلًا، لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه، ولم يمكنه إلا بعد رياضة للنفس طويلة، وتذليل للسان، وقطع للعادة، فأراد الله، برحمته ولطفه، أن يجعل لهم مُتَّسَعًا في اللغات، ومُتَصَرَّفا في الحركات»[٢].

إن القول بنزول القرآن الكريم بلغة قريش يتوافق مع شواهد التأريخ وطبيعة اللغات البشرية، والعقل يقتضي أن تكون لغة أهل مكة ذات خصائص لغوية متجانسة، وأن لغة رسول الله ﷺ كانت متطابقة مع تلك اللغة، وأن معنى نزول القرآن بلغة قريش أن رسول الله ﷺ كان يتلو القرآن على نحو

---

(١) كتاب السبعة ص ٧٨، وابن النديم: الفهرست ١/٧٧.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٣٢.

يطابق نطق العربية السائد في مكة، وكان أهل مكة يسمعون منه القرآن، ولا يستشكلون ذلك النطق، كما أنهم لا يصعب عليهم تقليده.

ولا شك في أن القول بنزول القرآن بلغة قريش ينأى عن الإشكالات التي يثيرها القول بنزول القرآن بلغات العرب جميعًا، أو بلغة عدد من قبائل العرب، كما ذهب إلى ذلك عدد من علماء السلف، أو القول بنزول القرآن باللغة العربية الأدبية المشتركة التي يفترض بعض الباحثين المحدثين وجودها في عصر نزول القرآن. (وهو ما سوف أناقشه في الفقرة اللاحقة)، كما أن القول بنزول القرآن بلغة قريش لا يتعارض مع ما جاء في الروايات الصحيحة من نزول القرآن على سبعة أحرف، فالقرآن الكريم نزل بلغة قريش خاصة، وكُتِبَ بها، وقرئ بلغات العرب، من خلال رخصة الأحرف السبعة، وسوف نتحدث عن هذه الرخصة في الفصل الرابع الخاص بالقراءات القرآنية، إن شاء الله.

أما وجود ألفاظ في القرآن وردت في لغات بعض العرب فأمر طبيعي، لتوافق لغات العرب في معظم الألفاظ، ولا يمكن القول إن لفظةً ما في القرآن ليست من لغة قريش لمجرد وجودها في لغة أخرى من لغات العرب، وكذلك الشأن في الألفاظ التي وردت في القرآن مما وقع مثله في بعض اللغات الأعجمية، لا يمكن القول بناء على ذلك إن القرآن نزل بتلك اللغات، قال ابن قتيبة: «غير جائز أن يكون في القرآن لغة تخالف لغة قريش، لقوله تعالى: (وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه)، إلا أنْ يكون القائل لهذا أراد ما وافق هذه اللغات لغة قريش»[١].

---

(١) نقلًا عن أبي شامة: المرشد الوجيز ص ٩٤.

المطلب الرابع: اللغة الأدبية المشتركة

ذهب عدد من الدارسين المحدثين، من المستشرقين وغيرهم، إلى أن القرآن الكريم نزل باللغة الأدبية المشتركة التي يتصورون وجودها قبل نزول القرآن، وأنها اللغة التي كُتِبَ بها الشعر الجاهلي، وهم بهذا لا يتفقون مع وجهة النظر القائلة بنزول القرآن الكريم بلغة قريش، وليس هناك بأس في اختلاف وجهات النظر في هذا الموضوع، إذا أدى إليه النظر العلمي المبني على أدلة يراها الباحث كافية عنده، لكن بعض الباحثين بالغ في النكير على من قال بنزول القرآن الكريم بلغة قريش، وحَمَلَ هذا القول على أنه تعصب لقريش، وأن مبعثه أمور تتعلق بالسياسة والحكم، ولكن هذا الموقف ظاهر الضعف والبطلان، كما سيتبين من العرض الموجز لأقوال القائلين بهذا المذهب[١].

بَحَثَ عدد من المستشرقين هذا الموضوع، وهم يتحدثون عن لغة الشعر الجاهلي، وعن لغة القرآن الكريم، ويذهب أكثر مَن اطلعت على أبحاثهم التي تُرْجِمَتْ إلى العربية إلى أن هناك لغة أدبية مشتركة تنتظم الشعر العربي قبل الإسلام، ولكنهم كانوا مضطربين في تحديد أصل تلك اللغة، وفي تحديد اللغة التي أنزل بها القرآن الكريم، وسوف أعرض باختصار عددًا من النصوص التي تعبر عن وجهة نظرهم هذه[٢].

---

(١) يمكن الاطلاع على مناقشة مفصلة للموضوع في بحثي: (تكَوُّن العربية الفصحى) المنشور في مجلة مجمع اللغة العربية الأردني، العدد ٤٨، السنة ١٩٩٥، وفي كتابي: أبحاث في العربية الفصحى ص ٥٣-١١٨.

(٢) ينظر أيضًا: رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية ص ٧٦-٧٧.

قال المستشرق الألماني تيودور نولدكه: «وقد سيطرت في الجزيرة العربية نفسها، في القرن السادس الميلادي تلك اللغة التي يسميها المرء (اللغة العربية)، إلى حد بعيد جدًا، لأنها أهم لغة تكلم بها العرب مطلقًا، فالشعر الذي ازدهر حينذاك في كل وسط الجزيرة وشماليها، حتى أسفل الفرات وما وراء ذلك، هذا الشعر يستعمل لغة موحدة... ويمكن للمرء أن يظن أن لغة الشعر كانت على الأقل بالنسبة لمعظم العرب لغة فنية مصنوعة»(١).

وقال نولدكه عن علاقة لغة قريش باللغة الأدبية المفترضة التي يتحدث عنها: «وتسمية اللغة العربية (باللهجة القرشية) تلك التسمية التي غالبًا ما يستعملها الأوربيون تسمية خاطئة جدًا، ولا توجد أبدًا لدى أي مؤلف عربي، وقد يتكلم عن لهجة قريش في أحوال نادرة للتعبير عن الفروق اللغوية الخاصة لمكة... وقد اعتمد على هذه التسمية التي خانها الحظ الرأي الذي تكرر القول به في العصر الحديث بأن اللغة العربية الكلاسيكية هي لهجة قريش التي لم يتح لها تلك المكانة إلا بسبب نزول القرآن بها، غير أننا نعرف طريقة نطق مدن الحجاز ليست في كل المواضع متفقة مع لغة الشعر... أما الروايات التي تقول بأن لهجة قريش هي أحسن اللهجات العربية كلها فإن بعضها مخترع، وفي بعضها مجاملة للحكام الذين ينحدرون من قبيلة قريش»(٢).

وتعرض المستشرق الألماني كارل بروكلمان للموضوع على نحو موجز في كتابيه (تاريخ الأدب العربي)، و(فقه اللغات السامية)، فقال في الكتاب الأول: «ولا شك في أن لغة الشعر القديم هذه لا يمكن أن يكون الرواة

---

(١) اللغات السامية ص ٧٤-٧٥.

(٢) اللغات السامية ٧٨.

والأدباء قد اخترعوها على أساس كثرة من اللهجات الدارجة، ولكن هذه اللغة لم تكد تكون لغة جارية في الاستعمال العام، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات، وإن غذتها جميع اللهجات»[١]. وقال في الكتاب الثاني: «ويستخدم كل شعراء هذه البلاد لغة مشتركة، هي لغة الشعر بالطبع، مع أنهم ينتمون إلى قبائل مختلفة... وقد كان يعيش إلى جانب اللغة الشعرية في شمالي الجزيرة العربية لهجات القبائل كذلك، تلك اللهجات التي لا نعرف عنها إلا الشيء الضئيل، عن طريق النحويين المتأخرين، غير أننا نعرف إحدى هذه اللهجات وهي لهجة مكة عن قرب، فهي تُكَوِّنُ الأساس الذي بُنِيَ عليه القرآن الكريم»[٢].

وناقش المستشرق الفرنسي بلاشير الموضوع على نحو أكثر تفصيلًا في كتابه عن (القرآن)، وكتابه الآخر في (تاريخ الأدب العربي)، فأثار في الكتاب الأول سؤالًا عن دلالة الآية الكريمة: (بلسان عربي مبين) [الشعراء: ١٩٥]، حيث قال: «فهل كان المقصود لمحمد [ﷺ] وأبناء جيله اللهجة المحلية المحكية في مكة؟ أم كان المقصود لغة شعرية عامية[٣]، تستعمل إلى جانب اللهجات المحلية المحكية عند قبائل شرقي الجزيرة العربية حتى الحجاز؟ إن الإجابة عن هذا السؤال مستحيلة... إن كل شيء يؤدي إلى التفكير بأن القرآن لم يُنْقَلْ ويُدَوَّنْ باللهجة الخاصة بمكة، بل بلغة قريبة من اللغة الشعرية»[٤].

ويغلب على بلاشير التردد في إعطاء جواب محدد عن القضية في كتابه

---

(١) تاريخ الأدب العربي ١/٤٢.

(٢) فقه اللغات السامية ص ٢٩-٣٠.

(٣) كذا في النص المترجم، والمناسب: عامة.

(٤) القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته، تأثيره ص ٩٢-٩٣.

الثاني، مع أنه خصص فصلًا كاملًا لمناقشتها[١]، وقد صَرَّحَ «بأن القرآن لا يستند على اللهجة المكية، بل على لغة الشعر الجاهلي»، ولكنه يعترف أنه لا يزال مصدر تلك اللغة الشعرية مجهولًا[٢].

وتناول موضوع اللغة الأدبية المشتركة، وعلاقتها بلغة القرآن الكريم، عدد من الدارسين العرب المُحْدَثِينَ، وتأثر بعضهم بما قاله المستشرقون، وذهب بعضهم إلى أن اللغة الأدبية استمدت كثيرًا من خصائصها من لغة أهل مكة[٣]، واستبعد آخرون نزول القرآن بلغة قريش[٤]، وبالغ الدكتور إبراهيم السامرائي في النكير على من يقول بنزول القرآن الكريم بلغة قريش، في كتابه (تاريخ اللغة العربية)، ومما قاله في الكتاب: «يُكَرِّرُ المعنيون بالدراسات القرآنية أن القرآن جاء بلسان قريش، وهذه مقولة لا نجد لها مكانًا واضحًا يحققه البحث العلمي»[٥]، وقال أيضًا: «ولا نستطيع أن نسلم أن القرآن أُنْزِلَ بلغة قريش... فكيف نقول إن القرآن أُنْزِلَ بلغة قريش إذا عرفنا أن قريش تُسَهِّلُ الهمز، في حين أن نص القرآن قد احتفظ بالهمز»[٦].

وتجاوز الدكتور إبراهيم السامرائي حدود البحث اللغوي إلى المجال السياسي، فزعم أن ترديد الخلفاء الراشدين القول بنزول القرآن بلغة قريش

---

(١) هو الفصل الثالث من كتابه تاريخ الأدب العربي (ص ٧٧-٩١).

(٢) ينظر: تاريخ الأدب العربي ص ٨٥.

(٣) ينظر في ذلك: كتابي: أبحاث في العربية الفصحى ص ٦٠-٦٦.

(٤) ينظر: عبده الراجحي: اللهجات العربية في القراءات القرآنية ص ٤٣.

(٥) تاريخ اللغة العربية ص ٣٩.

(٦) تاريخ اللغة العربية ص ٤٢.

وراءه دوافع سياسية، وحَمَلَهُ ذلك على القول: «وقد دأبوا على مقولتهم الشهيرة: إن كتاب الله أنزل بلسان قريش، وذلك لِيُكَوِّنَ المسلمون إجماعًا عليه خشية أن تتفرق كلمتهم فينتهوا إلى شِيَعٍ وأحزابٍ... ولقد ظل هذا ديدن الحاكمين وأولي الأمر في المجتمع الإسلامي دهرًا طويلًا»[١].

وتقدَّم الحديث عن الشواهد التاريخية والأدلة اللغوية التي تؤيد نزول القرآن الكريم بلغة قريش، ولا أجد ضرورة لإعادة الحديث عنها هنا، وسوف أكتفي بالإشارة إلى موضوع اللغة الأدبية المشتركة (أو اللغة الشعرية)، التي قال بعض الدارسين المحدثين بنزول القرآن الكريم بها، للوقوف على مدى تحقق وجودها في عصر التنزيل، فقد دلت الشواهد على عدم وجود تلك اللغة وقت نزول القرآن الكريم، وهذا يوضح سبب عدم قولنا بنزول القرآن بها، لعدم وجودها أصلًا.

إن مجيء الشعر الجاهلي بلغة أدبية موحدة بشكلها العام قد حَمَلَ بعض الدارسين المحدثين على القول بنزول القرآن بتلك اللغة، ورَفْضِ القول بنزوله بلغة قريش، لكن تلك اللغة الشعرية الموحدة التي تظهر في دواوين الشعر العربي الجاهلي التي دَوَّنَها علماء اللغة في القرن الثاني الهجري قد لا تعكس طبيعة لغة ذلك الشعر الأصلية، فيبدو أن ذلك الشعر تَعَرَّضَ في رحلته من العصر الجاهلي إلى عصر التدوين في القرن الثاني الهجري إلى تغييرات على ألسنة الرواة من المحتمل أنها أدت إلى تنقية ذلك الشعر من الظواهر اللغوية المحلية، وصياغته بلغة أدبية موحدة أخفت كثيرًا من مظاهر التنوع اللغوي الذي كان سائدًا في العصر الجاهلي.

---

(١) تاريخ اللغة العربية ص ٤١-٤٢.

إن اختفاء الخصائص اللغوية اللهجية في الشعر الجاهلي لم يكن تامًا، فهناك بقايا من تلك الخصائص في ذلك الشعر، تدل على أن لغة الشعر الجاهلي لم تكن موحدة، أي أن لغة أدبية موحدة لم تكن موجودة أو متميزة في ذلك العصر، قال عبد الله بن هشام الأنصاري (ت ٧٦١هـ) في كتابه شرح الشواهد: «كانت العرب يُنْشِدُ بعضهم شعر بعض، وكُلٌّ يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها، ومن هاهنا كثرت الروايات في بعض الأبيات»[١].

وسبق لي أن درست هذه الظاهرة، في بحثي عن (تَكَوُّنِ العربية الفصحى)[٢]، وأوردت الشواهد على صحتها، ولا يتسع المقام لإيراد جميع ما يتعلق بهذه القضية، لا سيما أن ذلك لا يتعلق بموضوع أصالة القرآن الكريم بشكل مباشر، ولعل في هذه الإشارة ما يغني عن الإطالة في بيان ضعف القول بوجود اللغة الأدبية المشتركة وقت نزول القرآن الكريم، وتأكيد صحة القول بنزول القرآن الكريم بلغة قريش[٣].

---

(١) نقلًا عن السيوطي في المزهر ١/٢٦١، وينظر: البغدادي: خزانة الأدب ١/٤٦.

(٢) ينظر: بحث (تكون العربية الفصحى) ضمن كتاب أبحاث في العربية الفصحى، ص ٩٩-١٠٤.

(٣) ما نقوله هنا لا يعني نفي ظهور اللغة الأدبية المشتركة في القرون التالية لعصر التنزيل، بخصائصها المتميزة، والتي لا تزال موضع عناية الناطقين باللغة العربية، يستهدون بها، ويحرصون على تعلمها وتعليمها، وكان صديقي وتلميذي الدكتور عمر رشيد شاكر السامرائي قد كتب أطروحته للدكتوراه عن (العربية المشتركة: دراسة في ضوء المنهج اللغوي التاريخي) انتهى فيها (ص ٤٧٤) بعد دراسة عميقة ومطولة إلى أن نظرية نشأة العربية المشتركة في العصر الجاهلي لا تستند إلى أسس علمية دقيقة، وانتصر فيها للنظرية القائلة بنشأة اللغة العربية المشتركة في القرن الرابع الهجري (ص ٤٧٧)، حيث قال: إن هذه النظرية تحمل من الأدلة ما يجعلها حقيقة علمية يمكن التسليم بها والقول بمضمونها.

المبحث الثالث

شبهات حول عربية القرآن الكريم

تُعَدُّ لغةُ القرآن الكريم أرفعَ نَصٍّ لغوي عرفته العربية في تاريخها الطويل، وقد أدرك ذلك التميز في لغة القرآن الذين عايشوا زمن التنزيل، من المؤمنين ومن غيرهم، وقد بهر القرآن ببلاغته العرب الذين كانوا في ذلك الوقت أصحاب الفصاحة والبيان، وظلت لغة القرآن تحتل هذه المنزلة الرفيعة في نفوس المؤمنين، بعد أن ظهرت علوم اللغة، وتقدمت دراسات إعجاز القرآن، وظل الإعجاز البياني أحد أهم وجوه الإعجاز التي أطال الوقوف عندها الدارسون.

ولست بصدد الحديث عن أسرار التعبير القرآني في هذا المبحث، فقد كُتِبَتْ بحوث مستقلة لبيان تلك الأسرار، لكنني بصدد الحديث عن موقف بعض الدارسين الذين عجزوا عن إدراك ذلك السمو اللغوي للقرآن الكريم، فأثاروا بعض الشبهات التاريخية حول لغة القرآن، وادَّعَوْا حصول مراجعات لنصه وإعادة صياغة لغته لتكون بمستوى فصاحة النصوص الأدبية العربية بزعمهم.

ويقوم منهج هذا الكتاب، كما تقدَّم بيانه في التمهيد، على فكرة عدم التعرض لشبهات المستشرقين حول القرآن الكريم، وعدم إفرادها في عناوين مستقلة، لِمَا في ذلك من هدرٍ للوقت والجهد، وإزعاجٍ للقارئ وإشغاله بأوهام وافتراءات تُشَوِّهُ الصورة الناصعة لتاريخ القرآن الكريم، وجهود علماء الأمة

في خدمته وتدوين علومه، وقد دَرَسَ تلك الشبهات أساتذة متخصصون بأعمال علمية مفردة، يكمن الرجوع إليها والإفادة منها لمن رغب من قراء الكتاب.

وقد جعلني أُفْرِدُ هذا المبحث لدراسة بعض تلك الشبهات، خلافًا للمنهج الذي أشرت إليه وسرت عليه في الكتاب، شيوعُ بعض الشبهات في الأوساط العلمية حول عربية القرآن، وتضمينها في بعض الأعمال العلمية لأساتذة مشهورين لهم مكانتهم في الأوساط العلمية العربية، وقد تؤثر على بعض مَن يطلع عليها، ممن تغيب عنه تفاصيل تاريخ القرآن الكريم.

وقد اخترت موضوعين أو شبهتين تتعلقان بلغة القرآن الكريم للحديث عنهما في هذا المبحث، وهما: الشبهة الأولى: وهي التي أثارها المستشرق الألماني كارل فوللرز بزعمه أن القرآن الكريم كُتِبَ أولًا بلهجة شعبية غير معربة كانت سائدة في مكة، ثم أُعِيدَتْ صياغته لاحقًا وَفْقَ قواعد اللغة العربية الفصحى، والشبهة الثانية: هي التي أثارها الدكتور إبراهيم أنيس، في بحثه (قصة الإعراب)، وشَكَّكَ فيها بأصالة ظاهرة الإعراب في اللغة العربية.

وأحسب أن مناقشة مثل هذه الشبهات يحقق غرضين، الأول: بيان ضعف تلك الشبهات، وصدورها عن عقول قاصرة عن الإحاطة بتاريخ القرآن الكريم، وتنم عن معرفة محدودة بعلومه، والثاني: الكشف عن وثاقة لغة النص القرآني، وأصالتها: أصواتًا ومفرداتٍ وتراكيبَ، وهو ما يعطي القارئ الحصانة من أن يتشوش فكره بتلك الشبهات.

المطلب الأول: دعوى إعادة صياغة لغة القرآن الكريم

تُنْسَبُ هذه الدعوى إلى المستشرق الألماني كارل فوللرز (Karl Follers)، الذي عاش بين سنتي ١٨٥٧م، وسنة ١٩٠٩م، وكان قد دَرَسَ علم اللاهوت واللغات الشرقية، وحصل على شهادة الليسانس سنة ١٨٨٠م، وعمل في التعليم، ثم نال شهادة الدكتوراه سنة ١٨٨٢م من جامعة هالة، وعمل أستاذًا للغات الشرقية في جامعة يينا (jena)، بعد عودته من مصر سنة ١٨٩٦م، وقام بتحقيق عدد من النصوص العربية، منها ديوان المتلمس، وأخرج فهرس المخطوطات الشرقية في مكتبة جامعة لايبزغ[١].

وعُيِّنَ كارل فوللرز سنة ١٨٨٦م مديرًا للمكتبة الخديوية في القاهرة (دار الكتب المصرية)، وبقي في مصر عشر سنين، اعتنى خلالها بدراسة اللهجة المصرية، وأصدر سنة ١٨٩٠ كتابًا باللغة الألمانية عن (اللهجة المصرية العامية الحديثة)، ووصف فيه العربية الفصحى بالجمود، ويندرج هذا الكتاب ضمن الحملة التي رَوَّجَ لها بعض المستشرقين للدعوة إلى إحلال العامية محل الفصحى[٢].

وكَتَبَ كارل فوللرز سلسلة مقالات حول اللغة العربية بدأ بنشرها سنة ١٨٩٤م، منها (القرآن بلهجة مكة الشعبية)، وضمنها كتابه (اللغة الشعبية واللغة الأدبية في الجزيرة العربية القديمة) الذي صدر سنة ١٩٠٦م: (Volksprach e und Schriftsprach e im alt e n Arabi e n)،

---

(١) ينظر: نجيب العقيقي: المستشرقون ص ٦٣٣-٦٣٤، والزركلي: الأعلام ٥/٢١٢، والموسوعة الحرة (ويكيبديا).

(٢) ينظر: نفوسة زكريا سعيد: تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر وآثارها ص ٢٤-٢٥.

وادَّعى فيه أن القرآن الكريم كُتِبَ أولًا بلغة شعبية غير معربة، ثم أُعِيدَتْ صياغته لاحقًا باللغة العربية الفصحى[١].

ادَّعى فوللرز في تلك الدراسة أن النبي ﷺ كان يقرأ ما ينزل عليه من القرآن في بداية الوحي بلهجة عربية عامية، وبدون إعراب، وقال: وهكذا خالف محمد بين القرآن وبين الشعر الذي كان يكتب بالعربية الفصحى الممتازة، ومن ثم فإن القرآن الذي بأيدينا الآن ليس هو القرآن الذي كان يقرؤه محمد، بل هو من صنع اللغويين وتلفيقاتهم، ومن صنع اللاحقين لهم، الذين حاولوا كتابة الوحي باللغة العربية الفصحى، ليضمنوا له البقاء، ويخلعوا عليه أزهى رواء، ويمضي فوللرز في زعمه فيقول: «إن اللغة الأصلية التي نزل بها القرآن بقيت في بعض الأشكال أو الأنواع الإملائية الغريبة والقليلة، كحذف الألف، على سبيل المثال، من بعض الكلمات أو زيادتها عليها، والتي بقيت في القراءات الشاذة»[٢].

ويرى كارل فوللرز أن العربية الفصحى التي رواها لنا النحويون، والتي توجد الآن في القرآن، كما احتفظ بها الشعر في موازينه - هذه العربية يراها فوللرز مصنوعة، وهو ينكر على الإطلاق أن تكون هذه اللغة كانت حية في

---

(١) ينظر: رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية ص ٣٧٧، ومحمد محمد أبو ليلة: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي ص ٢٦٢-٢٦٣، وأمجد يونس الجنابي: آثار الاستشراق الألماني في الدراسات القرآنية ص ٢١٧-٢١٨.

(٢) محمد محمد أبو ليلة: القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي ص ٢٦٣، وأمجد يونس الجنابي: آثار الاستشراق الألماني في الدراسات القرآنية ص ٢١٨-٢١٩، وينظر: رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية ص ٣٧٧-٣٧٨.

مكة، في عهد النبي محمد ﷺ، كما يشك في أن يكون البدو الذين خرج من بينهم الشعراء كانوا يتكلمون هذه اللغة[١].

هذه خلاصة ما ادعاه فوللرز، وقد استخلصتُ هذه الخلاصة من عدد من المصادر التي لَخَّصَتْ وجهة نظره، ولم أطلع عليه في نصه الأصلي، ويمكن تلخيص دعواه في الأمور الآتية:

١. نزولُ القرآن وكتابتُهُ كانت باللهجة المحلية في مكة، وهي لغة غير معربة، أي خالية من الإعراب.

٢. أُعِيدَتْ صياغة النص القرآني في ما بعد بزعمه، لتوافق اللغة الفصحى المعربة التي هي من صناعة النحويين، ولم تكن لغة حية على ألسنة العرب.

٣. وبناء على ذلك فإنه يَدَّعِي بأن القرآن الذي بين أيدينا ليس القرآن الذي تلاه رسول الله ﷺ وأمر أصحابه بكتابته[٢].

ولا يخفى على القارئ الكريم عِظَمُ هذه الفرية التي قال بها فوللرز، والتي يترتب عليها إنكار وثاقة النص القرآني، وتعرضه للتغيير، ويكون القرآن بذلك عرضة للتشكيك في نصه، وفي معانيه وأحكامه، فما دام قد أُعِيدَتْ صياغته فلابد أن يكون ذلك قد أدى إلى تغيير فيه، واضطراب في معانيه.

---

(١) رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية ص ٣٧٨.

(٢) ظهرت هذه الفرية من جديد لدى جون وانسبرو، في كتابه (الدراسات القرآنية) الذي نشره بالإنكليزية سنة ١٩٧٥م، وقال فيه (ص ٢٠٢): (إن القرآن الذي نعرفه اليوم اكتمل ظهوره في القرن الثالث الهجري)، واستدرك قائلًا: (ما لم تظهر مخطوطة كاملة من القرآن من زمن النبي [ﷺ] فسأظل على رأيي).

وإذا صح ما قاله، فوللرز، وهو غير صحيح قطعًا، فإن ذلك يُعَدُّ من الأحداث العظيمة في تاريخ القرآن والإسلام، ومن المتوقع أن تتسرب وقائع ذلك الحدث إلى المؤرخين، ولكن لم ينقل إلينا شيء من أخبار ذلك الحدث الجسيم، في الوقت الذي نقل لنا المؤرخون أخبار تشاور الصحابة في إثبات حرف واحد في كلمة (يتسنه) أو حذفه، في زمن عثمان بن عفان ﷺ، قبل أن يظهر النحاة، ويرتكبوا فعلتهم المزعومة باختراع الإعراب في العربية، وإعادة كتابة القرآن الكريم بتلك اللغة المعربة المصنوعة!

ولعل القارئ يشاركني الشعور بأن نظرية كارل فوللرز، بشكلها الذي عَرَضْتُهُ، لا تستحق الذكر، ولا تستوجب المناقشة، لأن جميع ما تقدَّم في هذا الكتاب، وهو في معظمه حقائق تاريخية بلغت حد التواتر، ولأن ما هو معروف من تاريخ القرآن، وتاريخ اللغة العربية والأدب العربي، ينقض تلك النظرية ويردها جملة وتفصيلًا، ولكني نقلت خلاصة هذه النظرية ليتضح للقارئ أن هذه النظرية المتهالكة كانت أساسًا لادعاء بعض الباحثين في ما بعد بأن الإعراب في اللغة العربية لا أصل له، وأنه من قصة مختلقة من صناعة النحويين.

وقبل أن أعرض لنظرية اختلاق الإعراب في اللغة العربية، أُذَكِّرُ القارئ بجملة حقائق تتعلق بتاريخ القرآن الكريم، تمحو من ذهنه شبهات ودعاوى فوللرز حول لغة القرآن الكريم، فثمة شهادات تاريخية، ووثائق مدونة تدحض ما ادعاه جملة وتفصيلًا، فاللغة العربية كانت معربة وقت التنزيل، ونص القرآن لم يتعرض للتغيير منذ أن أملاه رسول الله ﷺ على الكَتَبَةِ، وفي أثناء جمعه في الصحف، ونسخه في المصاحف، وخلال تداوله بين المسلمين عبر القرون.

ومن تلك الحقائق التي تنقض نظرية فوللرز من الأساس:

أولًا: التدوين المبكر للقرآن، فلم يتأخر التدوين عن زمن التنزيل، وتقدَّم الحديث عن كتابة القرآن الكريم كله مفرقًا في الرقاع في زمن النبي ﷺ، وعن جمع الرقاع في الصحف، ونسخ الصحف في المصاحف، ولم يتجاوز إنجاز هذه الأعمال سنة ٣٠ هـ، وهو تاريخ متقدم على نشأة النحو العربي بعشرات، بل مئات السنوات، ولم يحدث أن غَيَّرَ أحد من علماء الصحابة أو التابعين شيئًا من نص القرآن، وكما قال سيدنا عثمان بن عفان لعبد الله بن الزبير: يا ابن أخي، لا أُغَيِّرُ شيئًا من مكانه!

ثانيًا: تواتر قراءة القرآن الكريم المُعْرَبَةِ، فقد تلقى الصحابةُ القرآن عن رسول الله ﷺ، وكان يأمرهم بقوله: «اقرؤوا كما علمتم»[(١)]، وكان عدد منهم قد حفظوا القرآن كاملًا، وتصدوا لتعليم القراءة للتابعين، وكانوا يقولون: القراءة سُنَّةٌ يأخذها الآخر عن الأول، واشتهر من بين التابعين في الأمصار الإسلامية عدد من القراء، أسسوا لظهور مدارس الإقراء، فاشتهر من تلامذتهم القراء السبعة، والثلاثة المكملين لهم عشرة.

وكان هؤلاء القراء متمسكين بسنن شيوخهم في الإقراء، قال أبو عمرو بن العلاء اللغوي النحوي البصري (ت ١٥٤هـ)، وأحد القراء السبعة: «لولا أنه ليس لي أَن أقرأ إلا بما قُرِئَ به لقرأتُ حرفَ كذا كذا، وحرفَ كذا كذا»[(٢)]، ورُفِضَتْ قراءة عيسى بن عمر الثقفي البصري (ت ١٤٩هـ)، وعُدَّتْ شاذة،

---

(١) ينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن ص ٣٦١، ومصنف ابن أبي شيبة ٦/١٢٧، ومسند الإمام أحمد ٢/٢٠٠، وابن مجاهد: كتاب السبعة ص ٤٧، والطبراني: المعجم الكبير ٩/١٣٨.

(٢) ينظر: ابن مجاهد: كتاب السبعة ص ٤٨، و٨٢.

لأنه اختار حروفًا تخالف في إعرابها ما قرأ به القراء[١]، ومثله محمد بن عبد الرحمن بن محيصن المكي (ت ١٢٣هـ) الذي كان له اختيار في القراءة على مذهب العربية، فخرج به عن إجماع أهل بلده، فَرَغِبَ الناس عن قراءته، وأجمعوا على قراءة ابن كثير لاتِّبَاعه[٢]، وسيأتي مزيد بيان لهذه القضية في الفصل الرابع الخاص بالقراءات القرآنية، إن شاء الله.

ثالثًا: قيام شواهد قطعية على أن القرآن كان معربًا، حين كُتِبَ في المصاحف العثمانية، وذلك قبل زمان ظهور النحويين بأكثر من قرن ونصف من الزمان، ولم يتغير رسم المصحف منذ أن كُتِبَتِ المصاحف العثمانية، وفيه شواهد الإعراب واضحة، مثل رسم كلمة (نبأ) بالواو في قوله تعالى: (وهل أتاك نَبَؤُا الخصم) [ص: ٢١]، ورسمها بالياء في قوله: (ولقد جاءك من نَبَإِي المرسلين) [الأنعام: ٣٤]، تبعًا لتغير الحركة الإعرابية في الآيتين، وسوف يأتي مزيد بيان لهذه القضية في الفقرة الآتية من هذا المبحث، الخاصة بدراسة ظاهرة الإعراب.

رابعًا: كان علماء العربية الأوائل من الثقات، فلم يُعْرَفْ عنهم أنهم كانوا يُزَوِّرُونَ الحقائق، أو يختلقون الأخبار، فقد كانوا من حملة القرآن، ورواة الحديث، ومن أهل الزهد والورع، من أمثال أبي عمرو بن العلاء، والخليل ابن أحمد، ويونس بن حبيب، وغيرهم، وهم أبعد عن التهمة التي حاول فوللرز إلصاقها بهم، من أنهم اخترعوا الإعراب، وأنهم أعادوا صياغة النص القرآني وفق ذلك الاختراع، من غير دليل ولا حجة، فمثل هذا الكلام لا يقبله باحث منصف.

---

(١) ينظر: ابن الجزري: غاية النهاية ١/٦١٣، وابن حجر: تهذيب التهذيب ٨/٢٢٤.

(٢) ينظر: ابن مجاهد: السبعة ص ٦٥، وابن الجزري: غاية النهاية ٢/١٦٧.

خامسًا: إن الفحص الكيميائي للمصاحف المخطوطة القديمة يدل على أن بعض هذه المصاحف يرجع إلى عصر الخلفاء الراشدين، والنصف الأول من القرن الهجري الأول، قبل نشأة النحو، وظهور كبار النحويين، والنص القرآني فيها هو هو كما نعرفه اليوم، فلو كان ثمة أي تغيير فيه لَبَانَ الفرق وظهر أثر التغيير، وعلى الرغم من أن نتيجة ذلك الفحص ليست دقيقة مئة في المئة، إذ تصل مدة الاحتمال فيه إلى خمسين سنة تقريبًا، إلا أنها مفيدة في التأكيد على وجود مصاحف ترجع إلى القرن الأول الهجري.

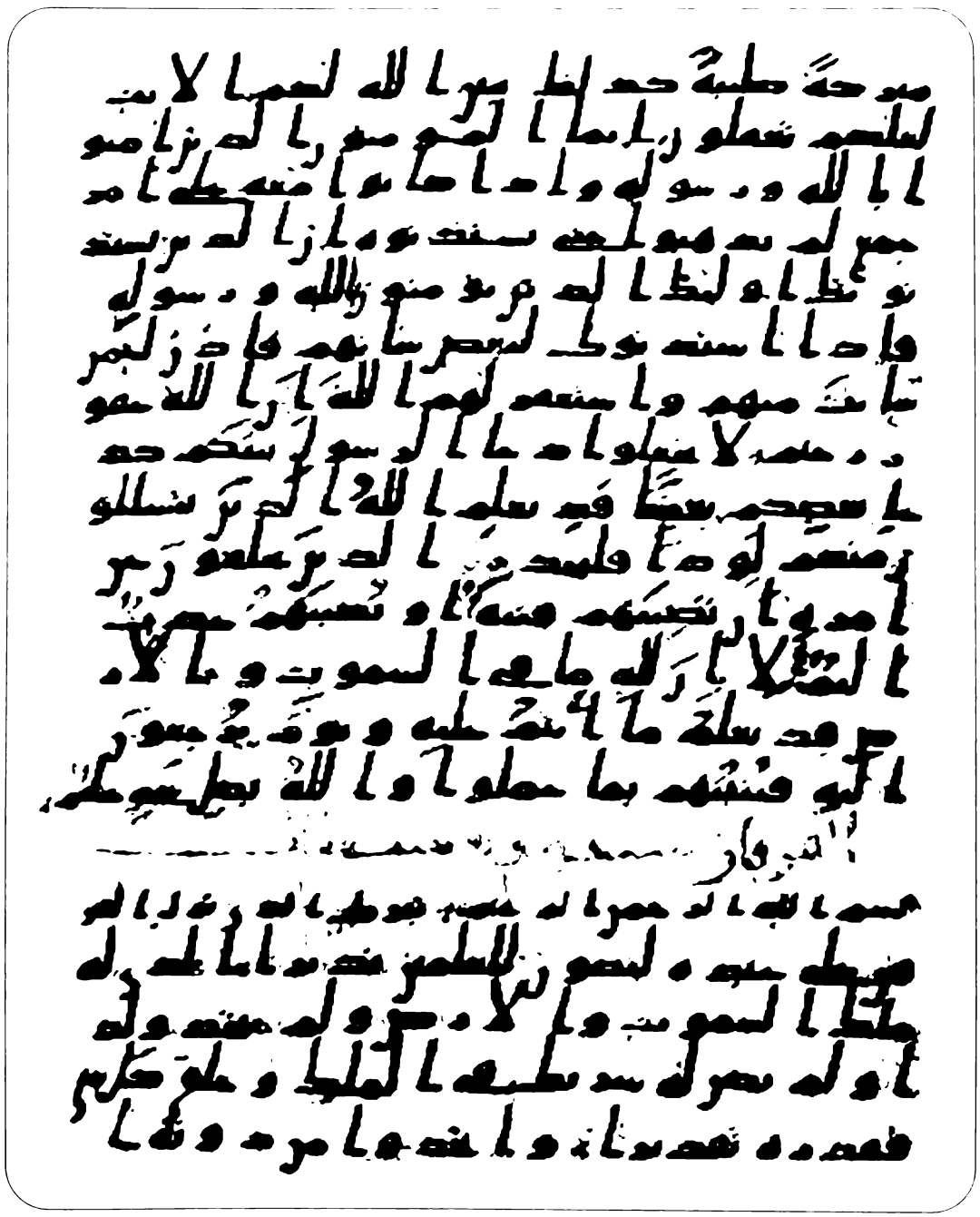
وأكتفي بالإشارة إلى نموذجين من تلك المصاحف التي جرى فحص الرقوق المكتوبة عليها بالكاربون، الأول: مصحف مكتبة جامعة توبنجن، والثاني صحائف مكتبة برمنگهام، وأظهر الفحص قِدَمَ هذه المصاحف، أو ما بَقِيَ منها.

(١) **مصحف مكتبة جامعة توبنجن:**

تحتفظ مكتبة جامعة توبنجن بألمانيا بمصحف ذَهَبَ كثير من أوراقه، ورقمه في المكتبة (Ma VI١٦٥)، وعدد أوراقه ٧٧ ورقة، في ١٥٤ صحيفة، وهو مكتوب على الرَّق، بالخط الحجازي ذي الألفات المائلة نحو اليمين، ومنقوط بالنقاط الحمر الدالة على الحركات، وزيدت عليه أيضًا علامات الحركات التي اخترعها الخليل بن أحمد لاحقًا بالسواد في بعض المواضع، ويبدأ هذا الجزء من المصحف من الآية ٣٥ من سورة الإسراء، إلى أول الآية ٥٧ من سورة يس، وهو ما يعادل ربع القرآن.

وكان الرأي السائد أن هذا الجزء من المصحف يعود تاريخ كتابته إلى القرن الثامن أو التاسع الميلادي، لكنْ تبين أنه مكتوب في القرن السابع

الميلادي ، فبعد إخضاع الرق المكتوب عليه للفحص بمادة (C 14) تبين أنه يرجع إلى ما بين سنة (٦٤٩-٦٧٥م) ، (وهو يقابل سنة ٢٩-٥٦هـ) ، كما أعلنت ذلك جامعة توبنجن في بيان لها على موقعها يوم (٢٠١٤/١١/١٠م) ، وقام الدكتور طيار آلتي قولاج بنشر المصحف مع دراسة عنه في إستانبول ١٤٣٦هـ = ٢٠١٦م ، وهو متاح أيضًا على موقع الجامعة ، وهذه صورة أول سورة الفرقان في المصحف:



(٢) صحائف مكتبة جامعة برمنگهام:

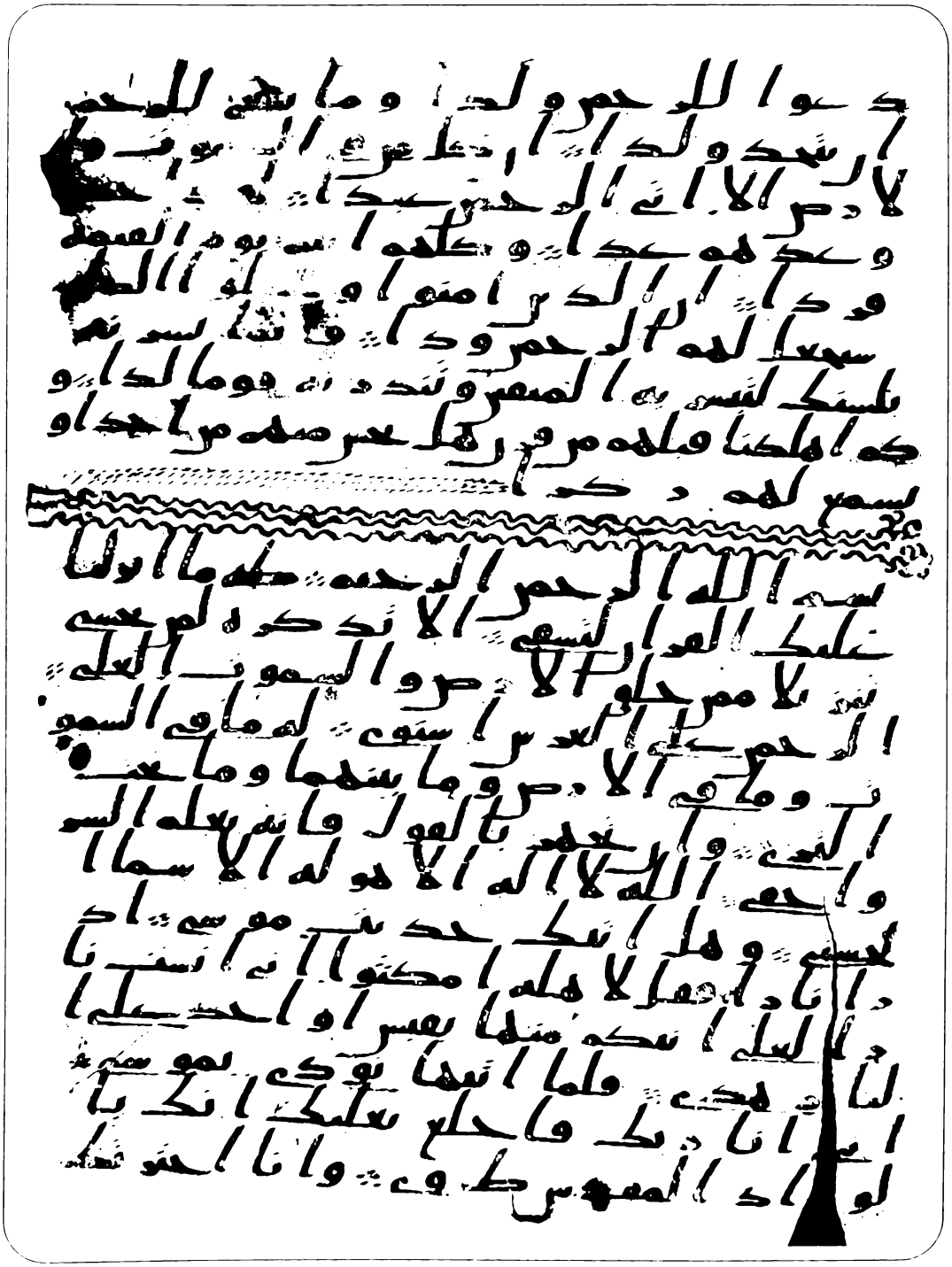
أعلنت جامعة برمنگهام على موقعها الرسمي بتاريخ ٢٢ تموز ٢٠١٥م عن نتائج الفحص الكربوني المشع (C 14) لواحدة من المخطوطات القرآنية القديمة التي تحتفظ بها مكتبة الجامعة في قسم الشرق الأوسط ضمن أرشيف القس الكلداني ألفونس منجانا (١٨٧٨-١٩٣٧)، وهي عبارة عن ورقتين (أربع صفحات) من الرَّقِّ ومكتوبة بالحبر، بالخط الحجازي، وتحتوي على أجزاء من سورة الكهف ومريم وطه، وتشكل المخطوطة جزءًا من مجموعة ألفونس منجانا لمخطوطات الشرق الأوسط التي تحتفظ بها مكتبة كادبوري للبحوث تحت كاتلوج (Islamic Arabic 1572a)، وأرجع الفحص الكربوني المشع الذي أُجْرِيَ في جامعة أكسفورد هذه المخطوطة إلى عصر صدر الإسلام (بين ٥٨٦ و٦٤٥م)، بنسبة دقة تصل إلى ٩٥ ٪.

ويعني ذلك أن الرَّقَّ الذي كُتِبَتْ عليه هذه الآيات الكريمة يعود إلى تلك الفترة، وسنة ٥٨٦م ترجع إلى ما قبل البعثة النبوية بخمس وعشرين سنة، وسنة ٦٤٥ تساوي سنة ٢٥ هجرية تقريبًا، وهناك احتمال كبير أن الكتابة على ذلك الرق لم تتأخر كثيرًا عن تاريخ صنعه، والنتيجة العامة لهذا الاكتشاف أن هذه الصحائف القرآنية تعود إلى فترة مبكرة جدًا من تاريخ الإسلام، وربما إلى فترة قريبة من تاريخ نسخ المصاحف العثمانية[١].

---

(١) تداولت المواقع الإلكترونية العلمية والإخبارية خبر صحائف مكتبة جامعة برمنگهام، منها موقع جامعة برمنگهام، وموقع بي بي سي (العربية)، وملتقى أهل التفسير (وينظر: الموسوعة الحرة (ويكيبديا): مخطوطة القرآن بجامعة برمنگهام).

وهذه صورة إحدى الصحائف الأربع المذكورة:



وتبدو نقاط الإعراب، ونقاط الإعجام، واضحة في صحيفة مكتبة جامعة توبنجن، كما تبدو نقاط الإعجام واضحة في صحيفة مكتبة برمنگهام، والمعروف أن اختراع نقاط الإعراب للدلالة على الحركات، ونقاط الإعجام

لتمييز الحروف المتشابهة، يرجع إلى النصف الثاني من القرن الهجري الأول، ولا تَعَارُضَ بين كون تاريخ هذه الصحائف يرجع إلى حقبة مبكرة جدًا، ووجود هذه النقاط، فلا يستبعد إضافة النقاط إلى هذه الصحف أو المصاحف في فترات لاحقة، ومهما كان الأمر بشأن هذه النقاط فإن وجود مؤشرات على قدم هذه الصحف وغيرها، ينفي نظرية فوللرز بإعادة صياغة النص القرآني على يد النحاة، والحمد لله رب العالمين.

المطلب الثاني: أصالة ظاهرة الإعراب في العربية

لم تشهد الدراسات اللغوية العربية القديمة اختلافًا في أن ظاهرة الإعراب أصيلة في اللغة العربية، وقد اختلف العلماء في وظيفة الإعراب، وهو اختلاف حركات أواخر الكلم، فذهب جمهور علماء العربية إلى أن الإعراب يدل على المعاني النحوية، من فاعل ومفعول ونحوها، قال أحمد بن فارس: «فأما الإعراب فبه تُمَيَّزُ المعاني ويوقف على أغراض المتكلمين»[(١)].

وذهب محمد بن المستنير الملقب بِقُطْرُبٍ إلى أن وظيفة الإعراب تخفيف النطق وتيسير إدراج الكلام، حيث قال: «وإنما أَعْرَبَتِ العرب كلامها لأن الاسم في حال الوقف يلزمه السكون للوقف، فلو جعلوا وصله بالسكون أيضًا لكان يلزمه الإسكان في الوقف والوصل، وكانوا يبطئون عند الإدراج، فلما وصلوا وأمكنهم التحريك جعلوا التحريك مُعاقبًا للإسكان، ليعتدل الكلام»[(٢)].

---

(١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ص ١٤٣، وينظر: ابن قتيبة: تأويل مشكل القرآن ص ١٨، والزجاجي: الإيضاح في علل النحو ص ٧٩.

(٢) الزجاجي: الإيضاح في علل النحو ص ٧٠.

ولَخَّصَ أبو البقاء العكبري مذهب الفريقين بقوله: «الإعراب دخل الكلام ليفرق بين المعاني من الفاعلية والمفعولية والإضافة ونحو ذلك، قال قطرب، واسمه محمد بن المستنير: لم يدخله لعلة، وإنما دخل تخفيفًا على اللسان»[١].

ولم يكثر الجدل بين علماء اللغة العربية المتقدمين حول قضية الإعراب، ولم تُذْكَر إلا في بعض كتب أصول النحو، لكنها حظيت في العصر الحديث بكثير من البحث والنقاش والجدل، منذ أن كتب الدكتور إبراهيم أنيس بحثه عن الإعراب بعنوان (قصة الإعراب)، ونشره في كتابه (من أسرار اللغة)[٢].

وذكر الدكتور إبراهيم أنيس في مقدمة كتابه (من أسرار اللغة): أنه يعرض فيه مسائل لغوية كان يَعُدُّهَا من المسلمات، ولكنه بعد أن سافر إلى أوربا واتصل بدراسات المستشرقين للغات السامية، ودراسات الغربيين للغاتهم الحديثة والقديمة، صار يَعُدُّهَا من المشكلات التي تحتاج إلى مزيد من الدراسة والتحقيق، ثم قال: «وقد يضيق بعض الناس في مصر بما جاء في هذا الكتاب، ويتنكرون له، ولا سيما الفصل الخاص (بقصة الإعراب)».

وقد ضاق الناس في مصر وخارجها بذلك الفصل الخاص بقصة الإعراب، لِمَا تضمنه من تصورات خيالية، واتهام علماء العربية بالتلاعب بعقول الأمة،

---

(١) مسائل خلافية في النحو ص ٩٥.

(٢) الدكتور إبراهيم أنيس لغوي مصري، ولد في القاهرة سنة ١٩٠٦م، ودَرَسَ بكلية دار العلوم، وحصل على الدكتوراه من جامعة لندن سنة ١٩٤١م، يوصف بأنه رائد الدراسات اللغوية الحديثة، وله عدد من المؤلفات في علم الأصوات، واللهجات، ومنها كتابه (من أسرار اللغة)، وتوفي سنة ١٩٧٧م، رحمه الله.

واختلاق قواعد ليس لها أصل في اللغة، في أكبر عملية تزوير لغوي في تاريخ اللغات، وقد تداعى الدارسون لتصحيح ما ترتب على ذلك من بلبلة للفكر اللغوي العربي الحديث، ومَرَّتْ قصة الإعراب، ولم تنل من صرح اللغة العربية، كما مَرَّتْ من قبل الدعوة إلى العامية، وإلى استعمال الحروف اللاتينية، وبقيت أوزار تلك الدعوات مسجلة على أصحابها في صحائف أعمالهم.

وسبق لي كتابة بحث عن (ظاهرة الإعراب في ضوء رسم المصحف)، لخصت فيه نظرية الدكتور إبراهيم أنيس، وأشرت إلى ما كتبه الدارسون في نقضها، واستندت إلى ظواهر الرسم العثماني في تأكيد أصالة ظاهرة الإعراب في اللغة العربية، ولا أجد ضرورة لنقل تفاصيل ما تضمنه ذلك البحث، وسوف أكتفي بذكر خلاصة تلك النظرية، ثم أعرض دلالة رسم المصحف على بطلانها.

أولًا: خلاصة نظرية الدكتور إبراهيم أنيس حول ظاهرة الإعراب

ٱدَّعَى الدكتور إبراهيم أنيس أن ظاهرة الإعراب التي نعرفها في اللغة العربية الفصحى ما هي إلا قِصَّةٌ مُخْتَلَقَةٌ حاك خيوطها علماء اللغة العربية الأوائل في أواخر القرن الأول الهجري، أو أوائل الثاني، ثم لم يكد ينتهي القرن الثاني الهجري حتى أصبح الإعراب حصنًا منيعًا، ٱمتنع على الكتاب والخطباء والشعراء من فصحاء العربية، وشق اقتحامه إلا على قوم سُمُّوا في ما بعد النحاة[١].

(١) من أسرار اللغة ص ١٨٣.

وقبل أن ألخص أهم معالم تلك النظرية ألفت نظر القارئ إلى أمرين:

الأول: تصريح الدكتور إبراهيم أنيس أنه تأثر بوجهات نظر المستشرقين في القضايا التي أثارها في كتابه (من أسرار اللغة)، ومنها قضية الإعراب التي سبق إلى التشكيك فيها بعض المستشرقين، من أمثال كارل فوللرز، كما تقدَّم في الفقرة السابقة من هذا البحث.

الثاني: أن الدكتور إبراهيم أنيس صرح بأن تلك القصة ٱخْتُرِعَتْ في نهاية القرن الأول الهجري، أو في أوائل الثاني، وهذا التصريح مفيد في دحض تلك النظرية، فالرسم العثماني كُتِبَ في سنة ثلاثين هجرية، أو قبل ذلك بخمس سنوات، وثَبَتَ الرسم على الكِتْبَةِ الأُولى، وهو يحمل في ظواهره ما يدل على أصالة الإعراب في القرآن الكريم وفي اللغة العربية، كما سنبين في الفقرة الآتية، إن شاء الله.

وتتلخص نظرية الدكتور إبراهيم أنيس حول ظاهرة الإعراب في ما يأتي[1]:

١. ليس للحركات الإعرابية دلالة، فهي لا تدل على الفاعلية أو المفعولية أو الإضافة، أو غيرها.

٢. لا تعدو الحركات أن تكون وسيلة لوصل الكلمات بعضها ببعض، مثل حركة التخلص من التقاء الساكنين، ويدل على الفاعلية والمفعولية موقع الكلمة في الجملة.

---

(١) ينظر: من أسرار اللغة ص ١٨٣-٢٥٨.

٣ . هناك عاملان تَدَخَّلا في تحديد حركة التخلص من التقاء الساكنين ، أولهما: إيثار بعض الحروف لحركة معينة ، مثل إيثار حروف الحلق للفتحة ، وثانيهما: الميل إلى تجانس الحركات المجاورة .

٤ . سَمِعَ النحاة القدماء هذه الحركات ، فأخطأوا تفسيرها ، حين عدوها علامات تدل على الفاعلية والمفعولية وغيرها ، في حين أنها لا تعدو أن تكون حركات وصل بين الكلمات ، حسب رأيه .

٥ . حين اعتقد النحاة أنها حركات إعرابية ، حركوا أواخر الكلمات التي لا داعي إلى تحريكها ، لتطرد قواعدهم ، فقالوا: (الرجلُ قائم) ، بضم اللام من (الرجل) ، وكان يكفيهم أن يقال: (الرجلْ قائم) بتسكين اللام ، إذ لا ضرورة تدعو إلى تحريكها بزعمه .

٦ . في الحالات التي ليس فيها ما يدعو إلى تحريك آخر الكلمات جاءت في النثر والشعر على السواء ، ولا يؤثر ذلك على وزن الشعر من الناحية الذوقية ، وإن كان يخالف ما يشترطه العروضيون في بعض الأحيان .

٧ . أما المُعْرَبُ بالحروف فكانت إحدى صوره تخص قبيلة معينة ، والصور الأخرى تخص قبائل أخرى ، ولكن النحاة جمعوا كل هذه الصور ، وخصوا كل صورة منها بحالة إعرابية معينة ، فهو يفترض مثلًا أن هناك قبائل عربية كانت تنطق المثنى بالياء في جميع الحالات ، ثم تطورت وصارت هذه الياء ألفًا عند بعض القبائل في جميع الحالات ، ولم يفهم النحويون بزعمه سر الموضوع ، فجمعوا بين الصورتين ، وخصوا الأولى بحالتي النصب والجر ، وخصوا الثانية بحالة الرفع .

تلك هي خلاصة نظرية الدكتور إبراهيم أنيس، وهي تعني أن اللغة العربية قبل عصر أوائل النحاة لم تكن لغة معربة، وكانت الحركات تُنْطَقُ في أواخر بعض الكلمات توصلًا إلى سهولة النطق، وحين ظهر النحاة خلطوا تلك الظواهر، ثم خرجوا إلى الناس بذلك النظام الإعرابي الذي صار جزءًا أساسيًا من قواعد العربية.

ولم تحظ هذه النظرية بالقبول، كما لم تحظ نظرية كارل فوللرز بالقبول من قبل، وكانت عرضة للنقد من معظم الباحثين المعاصرين الذين درسوا ظاهرة الإعراب، مستدلين بعدد من الأدلة اللغوية، والشواهد التاريخية، مؤكدين من خلالها على أصالة الإعراب في اللغة العربية، منها[١]:

(١) وجود الإعراب كاملًا في بعض اللغات السامية القديمة كالأكدية، وتشمل اللغتين البابلية والآشورية، ووجود حالات إعرابية في بعض اللغات السامية الأخرى، مثل الأوغاريتية والحبشية، وغيرهما.

(٢) وَصَلَ إلينا القرآن الكريم معربًا، بالرواية الشفوية المتواترة الموثوق بها، وهو أكبر دليل على أصالة الإعراب في اللغة العربية.

(٣) الرسم القرآني، الذي نُقِلَ إلينا متواترًا يؤيد وجود الإعراب في العربية الفصحى، وأنه ليس من اختراع النحاة، لأنه سابق لظهورهم، خاصة في حالة المنصوب المنون، والمعرب بالحروف.

---

(١) ينظر: علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٦٢-١٦٤، ورمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية ص ٣٨٢-٣٩٢، ومحمد حسن حسن جبل: دفاع عن القرآن الكريم ص ٢٧-٦٩، وكتابي: أبحاث في العربية الفصحى ص ١٣٥-١٣٦.

(٤) الشعر العربي بأوزانه وبحوره لا يقبل نظرية اختراع الإعراب.

(٥) تدل الأخبار الكثيرة التي وصلت إلينا على فطنة العلماء في الصدر الأول إلى الحركات الإعرابية، وانتقادهم من يحيد عنها ممن فسدت ألسنتهم بمخالطتهم للأعاجم.

(٦) كان العلماء في القرون الهجرية الأولى يسمعون الإعراب بكل دقائقه من أهل البوادي الذين كانوا يلتقون بهم، حين يأتون إلى الحواضر، أو يخرجون إليهم في البوادي.

النظام الإعرابي إذن عنصر أساسي من عناصر اللغة العربية، وليس من إلهام عبقري، ولا من اختراع عالم، فقواعد اللغات لا تُخْتَرَعُ اختراعًا، وإنما تتشكل بصورة تلقائية في أحقاب طويلة، وقد اشتملت عليه هذه اللغة منذ أقدم عهودها، وكل ما عمله النحاة أنهم استخلصوا مناهجه استخلاصًا من القرآن والحديث وكلام العرب الفصحاء، ورتبوها في صورة قواعد، يسهل تعلمها، والأخذ بها[١].

وقد ورد في النقطة رقم (٣) الاستدلال برسم المصحف على أصالة إعراب المنون المنصوب، والمعرب بالحروف، ولكن دلالة الرسم على الإعراب أكبر من ذلك، فيمكن أن يُسْتَدَلَّ بظواهر الرسم على أصالة الإعراب بالحركات أيضًا، إلى جانب دلالته على المنصوب المنون والمعرب بالحروف، وهو ما سنقف عنده في الفقرة الآتية.

---

(١) ينظر: علي عبد الواحد وافي: فقه اللغة ص ١٦٤-١٦٥.

ثانيًا: دلالة رسم المصحف على أصالة الإعراب

تقدَّم الحديث عن الرسم العثماني وأهم خصائصه، في الفصل الثاني من هذا الكتاب، ويأتي الاستدلال به على أصالة الإعراب في اللغة العربية من خلال كون الرسم العثماني:

١. لم يلحقه التغيير منذ أن كُتِبَتْ به المصاحف العثمانية، واعتمده الخطاطون في كتابة المصاحف، ووَصَفَهُ علماء الرسم في مؤلفاتهم.

٢. يرجع الرسم العثماني بخصائصه المعروفة إلى سنة ثلاثين هجرية في الأقل، وذلك قبل عصر تدوين قواعد النحو العربي بأكثر من قرن ونصف من السنين.

ولا يخفى على القارئ الكريم أننا نعني بالرسم العثماني طريقة كتابة الكلمات في المصاحف العثمانية، كما خطه الصحابة رضي الله عنهم أولًا، مجردًا من نقاط الإعجام وعلامات الحركات.

(١) دلالة رسم المصحف على الإعراب بالحروف:

دلالة الرسم على الإعراب بالحروف واضحة، سواء في ذلك: الأسماء الخمسة، والمثنى، والجمع السالم، وهذه أمثلة تبين ذلك:

أمثلة الأسماء الخمسة: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾﴾ [يوسف]، في الآية: (أخوه، أَبِينَا، أَبَانا).

أمثلة المثنى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾﴾ [الرحمن]، في الآيتين: (جنتان، الجنتين).

أمثلة الجمع المذكر السالم: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾﴾ [النساء]، في الآية: (القاعدون، والقاعدين)، و(المجاهدون، والمجاهدين).

أمثلة الأفعال الخمسة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف]، في الآية: (تقولون، تقولوا).

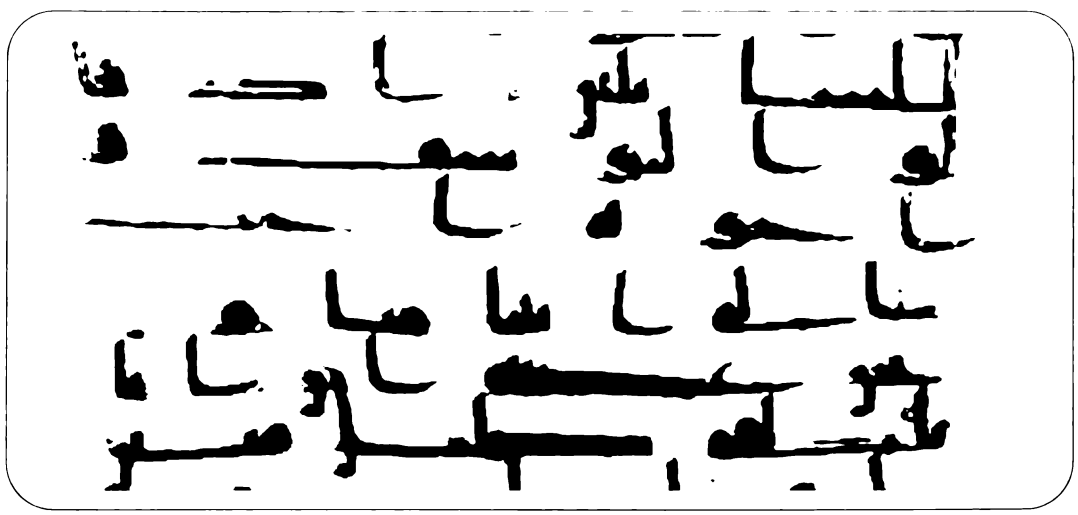
هذه أمثلة محدودة جدًا من الكلمات التي تُعْرَبُ بالحروف في المصحف، ويدل الرسم العثماني على أصالة الإعراب فيها، فهذا التنوع في رسمها في الآية الواحدة دليل أكيد على ذلك.

ويلتحق بأمثلة رسم المصحف الدالة على الإعراب بالحروف رسم المنصوب المنون بالألف، وأمثلته في المصحف كثيرة جدًا، وسوف أكتفي بإيراد مقطع من سورة الكهف يوضح ذلك: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾﴾. فيها: (عبدا، علما، رشدا، صبرا، خبرا، صابرا، أمرا).

ولعل القارئ يجد تلك الكلمات مرسومة بالخط الحديث المشكول، فيتساءل هل كانت كذلك في المصاحف القديمة، بهذا التنوع الإعرابي بحسب موقع الكلمة في الجملة، والجواب نعم كانت كذلك، ولدينا عشرات المصاحف القديمة المكتوبة بالخط الحجازي أو الكوفي المجرد، يمكن أن

ننظر فيها ، ولكني سوف أنقل صورة هذه الآيات من مصحف جامع الحسين في القاهرة ، وهو من المصاحف القديمة جدًا ، وتظهر فيها الكلمات مرسومة بالطريقة ذاتها ، لكنها مجردة من العلامات ، وأحسب أن الأمر لا يحتاج الآن إلى أكثر من ذلك للدلالة على أن ما نجده في المصاحف الحديثة المطبوعة من تنوع إعرابي ، هو نفسه مرسوم في المصاحف القديمة المخطوطة .

أمثلة إعراب الأسماء الخمسة:

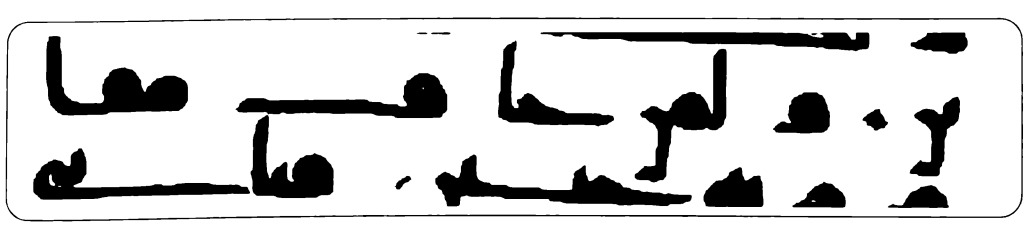


من سورة يوسف ٨

(إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة

إن ابانا لفي ضلال مبين)

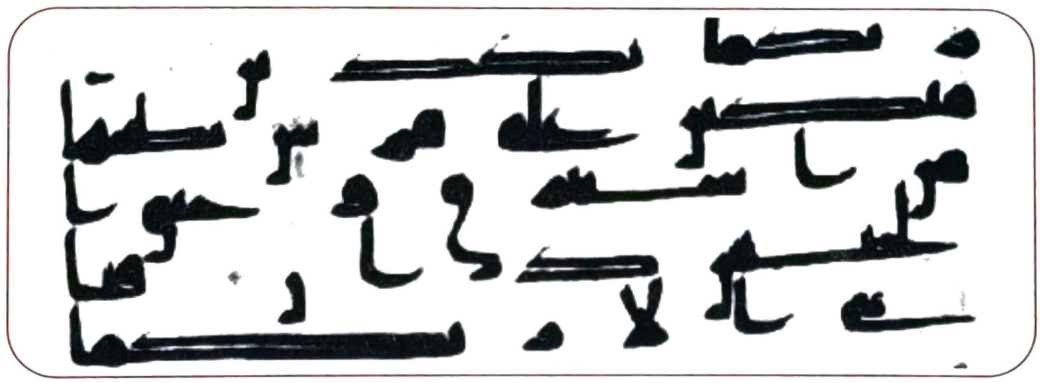
أمثلة إعراب المثنى:



من سورة الرحمن ٤٦

(ولمن خاف مقام ربه جنتن)

كلمة (جنتان) مرسومة بحذف الألف، لوجود سِنَّتَيْنِ فقط بين الجيم والنون، وليست مرسومة بالياء، وهي تنطق بالألف في جميع القراءات.

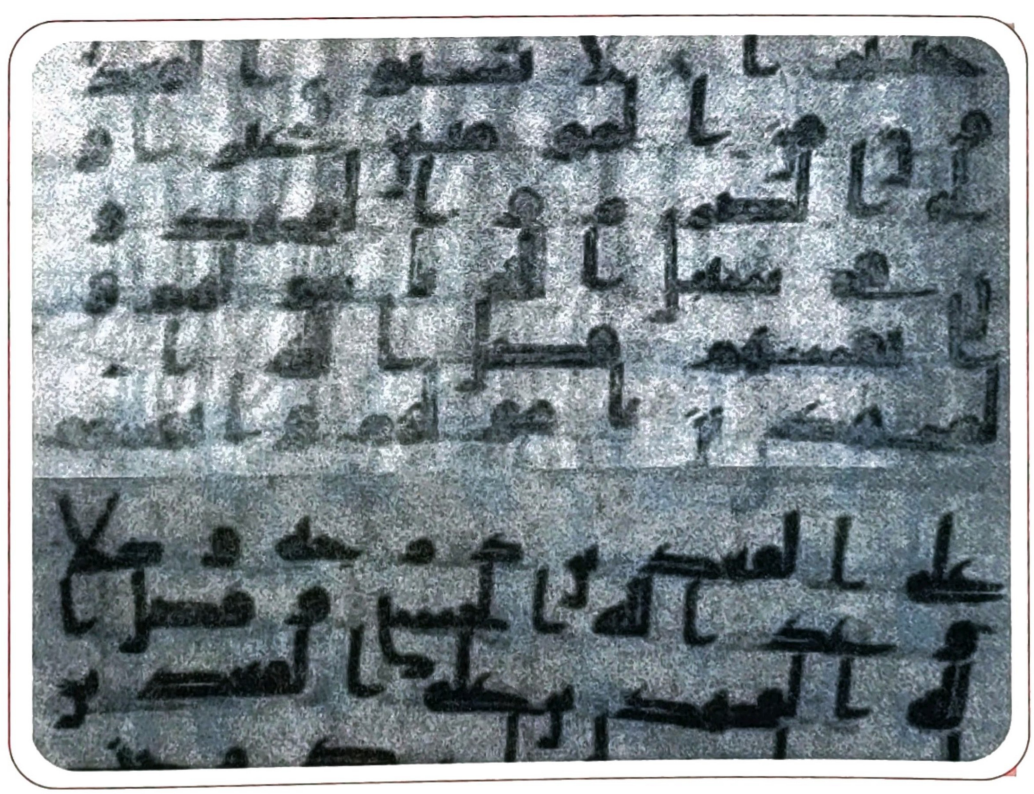


من سورة الرحمن ٥٤

(متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان)

كلمة (الجنتين) مرسومة بالياء، وفيها ثلاث سنات بين الجيم والنون.

أمثلة إعراب الجمع المذكر السالم:



من سورة النساء ٩٥

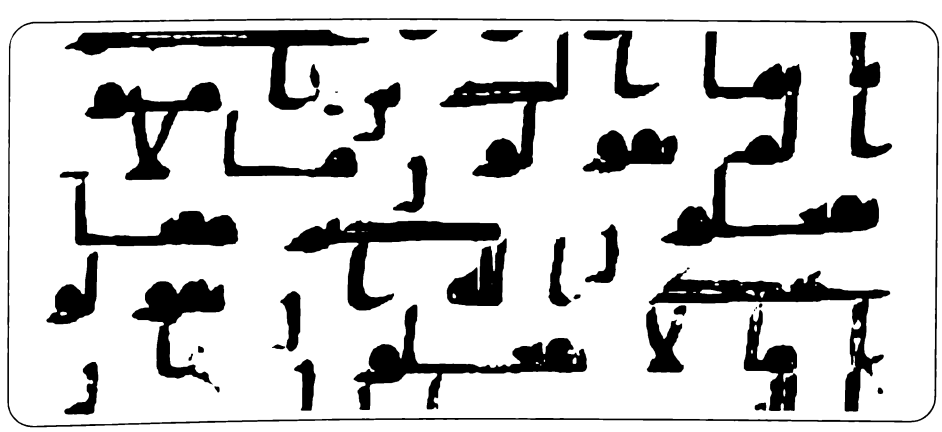
(لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلا وعد الله الحسنى وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرًا عظيمًا)

رُسِمَتْ كلمة (القاعدون، والقاعدين)، و(المجاهدون، والمجاهدين) بالواو والياء بحسب الموقع الإعرابي لكل منهما، مع ملاحظة أمرين في الصورة:

(١) توزيع حروف الكلمتين على سطرين، وهو من خصائص الرسم القديمة.

(٢) يبدو الجزء الأعلى من الصورة مضمحلًا غير واضح كثيرًا، بينما تبدو الأسطر الأربعة في أسفل الصورة واضحة، وسبب ذلك أن هذه الصورة منقولة من صحيفتين في المصحف، الصحيفة الخاصة بالجزء الأعلى من الصورة مكتوبة على الوجه الشَّعْرِيِّ من الرَّقِّ، والصحيفة الخاصة بالجزء الأسفل مكتوبة على الوجه اللَّحْمِيِّ من الرَّقِّ، وهذا أمر معروف في المصاحف المكتوبة على الرقوق.

أمثلة إعراب الأفعال الخمسة:



من سورة الصف ٢-٣

(يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون ❊ كَبُرَ مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون)

رُسِمَ الفعل: (تقولون) بإثبات النون، و(تقولوا) بحذف النون، بحسب الموقع الإعرابي لكلا الفعلين.

(٢) دلالة رسم المصحف على الإعراب بالحركات:

يحتاج الاستدلال برسم المصحف على أصالة ظاهرة الإعراب بالحركات في اللغة العربية إلى بعض المقدمات، وهي:

(١) يرتبط الاستدلال برسم المصحف على الإعراب بالحركات برسم الهمزة في المصحف، وسبقت الإشارة إلى وجود مذهبين للعرب في نطق الهمزة[١]: أهل الحجاز يُسَهِّلُونَ الهمزات في غير أول الكلمات، وأهل نجد وشرقي الجزيرة العربية يحققون الهمزات، حيث وقعت، وانعكس ذلك على طريقة كتابة الهمزة في الكتابة العربية، فأهل التحقيق يرسمون الهمزة ألفًا حيث وقعت، وأهل التسهيل يرسمونها ألفًا في أول الكلمة، وبحسب ما تؤول إليه في التسهيل في غير أول الكلمة.

(٢) جَرَى رسم الهمزات في المصحف على مذهب أهل التسهيل، قال الداني: «إن أكثر الرسم ورد على التخفيف، والسبب في ذلك كونه لغة الذين وَلُوا نسخ المصاحف زمن عثمان رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهم قريش... فلذلك ورد أكثر

(١) ينظر: كتابي: علم الكتابة العربية ص ١٤٦-١٤٨، وأبحاث في العربية الفصحى ص ١٥٣-١٥٦.

الهمز على التسهيل، إذ هو المستقر في طباعهم والجاري على ألسنتهم»[١]، وتقدمت الإشارة إلى ذلك في مبحث نزول القرآن بلغة قريش. وقال أبو حيان الأندلسي، وهو يتحدث عن رسم الهمزة: «والكِتَابُ والخط في الأكثر على حسب تسهيلها لوجهين:

أحدهما: أنَّ التسهيل لغة أهل الحجاز في الجملة....

الثاني: أنه خط المصحف، فكان البناء عليه أَوْلَى»[٢].

وكانت المصاحف الأولى مجردة من العلامات، ولم يكن للهمزة علامة مميزة، وكانت توضع نقطة بالحمرة أو الصفرة على الألف أو الواو أو الياء على قراءة أهل التحقيق، بعد اختراع النقط للدلالة على الحركات، حتى وضع الخليل بن أحمد رأس العين علامة لها[٣].

(٣) بُنِيَ رسم الكلمات في المصحف على الوصل حينًا، وعلى الوقف حينًا آخر، قال الداني في المقنع: «والمذهبان قد يستعملان في الرسم دلالة على جوازهما فيه»[٤]، وقال في المحكم: «من حيث عاملوا في كثير من الكتابة اللفظ والوصل دون الأصل والقطع»[٥]، ويترتب على ذلك تغير رسم حروف آخر الكلمة بحسب ذلك.

---

(١) المحكم ص ٢٨٢-٢٨٣.

(٢) الهجاء ص ١٠٥.

(٣) ينظر: ابن درستويه: كتاب الكتاب ص ٩٩.

(٤) المقنع ص ١٧٧.

(٥) المحكم ص ٢٩١.

(٤) يرتبط تسهيل الهمزة بحركتها هي أو بحركة ما قبلها، وإذا كانت الهمزة في آخر الكلمة فإنها ترسم في الغالب بحسب حركة ما قبلها، ولكن تسهيل الهمزة المتطرفة ورسمها قد يتأثر بحركة الهمزة نفسها، التي هي حركة الإعراب، ويحصل ذلك في حالتين، الأولى: إذا اتصل بالكلمة ضمير، فإن الهمزة تأخذ حينئذ حكم الهمزة المتوسطة، والثانية: إذا بُنِيَ رسم الهمزة المتطرفة على الوصل، فإنها تأخذ حينئذ حكم المتوسطة أيضًا.

ويمكن تتبع أثر هاتين الحالتين لرسم الهمزة في المصحف، ودلالتهما على أصالة الإعراب في لغة القرآن بخاصة واللغة العربية بعامة، في مجموعتين:

المجموعة الأولى: أمثلة رسم الهمزة المتطرفة التي اتصل بها الضمير

قال الداني: «وكل همزة أتت بعد ألف، واتصل بها ضمير، فإن كانت مكسورة صُوِّرَتْ ياءً، وإن كانت مضمومة صُوِّرَتْ واوًا، لأنها إذا سُهِّلَتْ جُعِلَتْ بين الهمزة وبين ذلك الحرف... وإن كانت الهمزة مفتوحة أو وقع بعد المكسورة ياء وبعد المضمومة واو لم تُصَوَّرْ خَطًّا، لئلا يُجْمَعَ بين صورتين»[1].

وأمثلة هذه المجموعة كثيرة جدًا في المصحف، وسوف أنقل من الأمثلة ما تنوع فيه رسم الكلمة الواحدة بحسب موقعها الإعرابي، فمن ذلك كلمة (أبناء)، وكلمة (آباء) مع الضمائر. قال الله تعالى: ﴿ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا﴾ [النساء: ١١]، وقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ

(١) المقنع ص ١٦٧.

أَبْنَآءَكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤]. وقال: ﴿وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ﴾ [النساء: ٢٣]. وقال: ﴿أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

ولا يخفى على القارئ أن تنوع رسم الهمزة في الكلمتين يرتبط بموقع الكلمة في الجملة، وبنوع الحركة الإعرابية، فالواو تأتي مع الضمة، والياء تأتي مع الكسرة، وهذا دليل أكيد على وجود ظاهرة الإعراب بالحركات في لغة القرآن الكريم في وقت نسخ المصاحف العثمانية.

المجموعة الثانية: أمثلة رسم الهمزة المتطرفة، بناء على الوصل

تُرْسَمُ الهمزة المتطرفة في الغالب على حركة ما قبلها، مثل: قَرَأَ، وقُرِئَ، وجَرُؤَ، على تقدير الوقف عليها، وإذا رُسِمَتْ على تقدير وصلها بما بعدها أَخَذَتْ حكم الهمزة المتوسطة، وارتبط رسمها بحركتها، وهي حركة الإعراب التي نبحث عن دلالة رسم الهمزة هذه عليها.

وفي رسم المصحف عشرات الأمثلة على هذه الحالة، لكني سوف أقتصر على تتبع رسم الهمزة المتطرفة في كلمة واحدة، هي كلمة (نبأ)، للوقوف على دلالة رسمها على الحركات الإعرابية، في ثلاث مجموعات، بحسب حركتها لإعرابية:

١. رَسْمُ كلمة (نَبَأ) مع النصب وردت في أربعة مواضع، هي:

قال الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَيْ ءَادَمَ﴾ [المائدة: ٢٧].

وقال سبحانه: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].

وقال عز من قائل: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ﴾ [يونس: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩].

٢. رَسْمُ كلمة (نَبَأ) مع الرفع، وردت في خمسة مواضع، هي:

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [التوبة: ٧٠].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [إبراهيم: ٩].

وقال سبحانه: ﴿۞ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١].

وقال عز من قائل: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ﴾ [ص: ٦٧].

وقال جل جلاله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [التغابن: ٥].

٣. رَسْمُ كلمة (نبأ) مع الجر، وردت في ثلاثة مواضع، هي:

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤].

وقال تعالى: ﴿لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام: ٦٧].

وقال عز من قائل: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٣].

إن التدقيق في رسم الهمزة في كلمة (نبأ) في المجموعات الثلاث يُبَيِّنُ ارتباط رسمها بحركتها الإعرابية، فإذا كانت منصوبة رُسِمَتْ بالألف، سواء رُسِمَتْ على الوقف أو على تقدير الوصل، كما في أمثلة المجموعة الأولى، وإذا كانت مرفوعة رُسِمَتْ بالواو على تقدير الوصل وبالألف على تقدير الوقف، كما في أمثلة المجموعة الثانية، وإذا كانت مجرورة رُسِمَتْ بالياء على تقدير الوصل وبالألف على تقدير الوقف، كما في أمثلة المجموعة الثالثة.

وهذا من أوضح الأدلة على وجود الإعراب في العربية في عصر التنزيل، وقد نَطَقَ به كُتَّابُ الوحي، وأخذوه بنظر الاعتبار وهم يكتبون المصاحف، وقد أدرك علماء الرسم والضبط سر هذه الظاهرة، فقال الداني وهو يتحدث عن رسم الهمزة واوًا في كلمة (نبأ) وما كان مثلها: «أَنْ تكونَ صورةً للهمزةِ، على مُرَادِ وَصْلِ الكلمةِ التي هي آخِرُهَا بالكلمةِ المتصلةِ بها، وجَعْلِ المنفصلِ كالمتصلِ، وتكون الأَلِفُ بعدَها زائدةً»(١).

وتبدو الهمزة في أمثلة المجموعة الثالثة وقد رسمت بألف وياء، وعَلَّلَ الداني هذا الرسم بقوله: «أَنْ تكونَ الأَلِفُ والياءُ صورتَيْنِ للهمزةِ، لا على تَأْدِيَةِ التحقيقِ والتسهيلِ، ولكنْ على تَأْدِيَةِ الاتصالِ والانفصالِ، فالأَلِفُ صورةٌ للانفصالِ، مِن حيثُ كانتِ الهمزةُ المتطرفةُ والموقوفُ عليها إذا ٱنْفَتَحَ ما قبلَها تُصَوَّرُ بالحرفِ الذي منه الفتحةُ، وهو الأَلِفُ، سواءٌ أُرِيدَ تحقيقُهَا أَو تَلْيِينُهَا. والياءُ صورةٌ للاتصالِ، مِن حيثُ كانتِ الهمزةُ المتوسطةُ المكسورةُ تُصَوَّرُ بالحرفِ الذي تُقَرَّبُ منه في التَّلْيِينِ، وهو اليـاءُ، سواءٌ أُرِيدَ تحقيقُـهَا أَو تَلْيِينُهَا»(٢).

إن رسم الهمزة واوًا مع الرفع، ورسم الهمزة ياء مع الجر، في الأمثلة السابقة، دليل واضح على وجود الإعراب بالحركات في اللغة العربية، في وقت التنزيل، وقبل ظهور علماء العربية، في القرن الثاني الهجري، وفي رسم المصحف عشرات الأمثلة الدالة على أصالة الإعراب في العربية وفي القرآن،

---

(١) المحكم ص ٣٤٤.

(٢) المحكم ص ٣٣٠.

اكتفيت منها بما يتعلق برسم كلمة (نبأ) طلبًا للاختصار، ولوضوح دلالة رسمها على ما نحن بصدده.

فالإعراب إذن أصيل في اللغة العربية، ولم يكن من اختراع النحويين، هذا ما يدل عليه رسم المصحف، كما تقدم، وشواهد لغوية وتاريخية أخرى، ذكرها الدارسون في ما كتبوه من أبحاث عن الموضوع، وقد كان للنحويين الفضل في المحافظة على نظام العربية في ما دَوَّنُوه في مؤلفاتهم من وصف قواعد اللغة العربية، وإن من الظلم والجهل نسبة اختراع الإعراب إليهم، وهم حراس اللغة الذين أزعجتهم ظواهر اللحن، فعملوا على التصدي له، رحمهم الله تعالى.

وما أصدق كلمة الدكتور علي عبد الواحد وافي، وهو يتحدث عن نظرية الدكتور إبراهيم أنيس: «وإذا أمكن أن نتصور أن علماء القواعد تواطؤوا جميعًا على ذلك، فإنه لا يمكن أن نتصور أنه قد تواطأ عليه جميع العلماء من معاصريهم، فأجمعوا كلمتهم أَلَّا يَذْكُرَ أحدٌ منهم شيئًا ما عن هذا الاختراع العجيب، ولا يعقل أن يقبل معاصروهم هذه القواعد على أنها مُمَثِّلَةٌ لقواعد لغتهم ويحتذوها في كتاباتهم، اللهم إلَّا إذا كان علماء البصرة والكوفة قد سَحَرُوا عقول الناس واسْتَرْهَبُوهم وأَنْسَوْهُم معارفهم عن لغتهم وتأريخها، فجعلوهم يعتقدون أن ما جاؤوا به مُمَثِّلٌ لفصيح هذه اللغة»[1].

(١) فقه اللغة ص ١٦٣.

المبحث الرابع

سر حيوية اللغة العربية

من القضايا الكبرى التي تلفت نظر الدارسين اليوم حيوية لغة القرآن، فعلى الرغم من تقادم الزمان على نزول القرآن الكريم بها، فلا تزال حَيَّةً قَوِيَّةً مِعْطَاء، وعلى الرغم من حملات التشوية، والدعوات إلى التخلي عنها، وإحلال العاميات مكانها، فلا تزال اللغة الرسمية والشعبية لمئات الملايين من العرب، واللغة الدينية لأكثر من مليار ونصف من المسلمين.

ويُلَخِّصُ علماء اللغة اليوم أهم أسباب موت اللغة وانقراضها في سببين[1]، الأول: موت أهلها وانقراضهم، والثاني: تعرض أهلها لتأثير ثقافة أخرى، ولغة أخرى، ويبدو أن احتمال تعرض العربية للموت بسبب موت أهلها بعيد جدًا، لكثرة الناطقين بها، وامتداد بلدانهم في مساحة جغرافية واسعة، أما تعرضها للموت بسبب تعرضها لغزو ثقافي فإن هذا الأمر قد تعرضت له العربية في تاريخها الطويل أكثر من مرة، لكنها ظلت حية، واستوعبتْ آثار ذلك، وخَرَجَتْ منه سليمة.

وإلى جانب عوامل انقراض اللغات هناك عامل التطور الذي لا تنجو منه لغة من اللغات، ولكن لا يخفى على القارئ أن اللغة العربية واجهت كل

---

(١) ينظر: ديفيد كريستال: موت اللغة ص ١٢٢- ١٥٥، ومحمد محمد داود: اللغة كيف تحيا ومتى تموت ص ٣٨-٤٤.

تلك العوامل والمؤثرات، وحافظت على خصائصها اللغوية على مدى قرون طويلة، وظلت لغةً للحضارة العربية الإسلامية، ولغةً للشعوب العربية، ويرجع سر هذه الحيوية للغة العربية إلى ارتباطها بالقرآن الكريم، ومن ثم فإن هذا الموضوع يستحق الدراسة والنظر، لبيان الارتباط التاريخي بين اللغة العربية والقرآن الكريم، والتأكيد على أهمية اللغة العربية الفصحى في فهم معاني القرآن الكريم.

المطلب الأول: حياة اللغة العربية وقوانين التطور اللغوي

إن الحديث عن عمر لغة ما يعني المدة الزمنية التي حافظت فيها تلك اللغة على خصائصها الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، وإذا حصل تغير طفيف في تلك الخصائص فإن ذلك يعني حصول تطور جزئي في بنيتها، وإذا كان ذلك التغير كبيرًا، وأدى إلى استحالة قراءة نصوص تلك اللغة بسهولة أو التحدث بها فإن ذلك يعني انقراض تلك اللغة.

إن عمر أقدم النصوص المكتوبة باللغة العربية الفصحى يرجع إلى ما يقرب من مئة وخمسين سنة قبل الإسلام، ويتمثل بالنصوص الشعرية الجاهلية، أي أن عمر أقدم نصوص الفصحى الآن يقارب خمسة عشر قرنًا من الزمان، وإذا كان تدوين الشعر الجاهلي قد تأخر إلى ما بعد ظهور الإسلام بقرنين تقريبًا فإن القرآن الكريم قد حفظه الحُفَّاظ، وكَتَبَهُ كُتَّاب الوحي، قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا.

ومع تقادم الزمن الذي ترجع إليه هذه النصوص فإن الناطقين بالعربية اليوم يمكنهم قراءة تلك النصوص، وإدراك دلالاتها، ويُعَدُّ ذلك أمرًا خارقًا

للمعروف من تاريخ اللغات، لأن امتداد الزمان، واتساع المكان، وتنوع الأعراق، يؤدي إلى تغير اللغة بمرور السنين، ولكن عوامل التغير لم تَعْمَلْ عملها تجاه العربية، وعاشت كل هذه القرون حية، في ظاهرة فريدة في تاريخ اللغات البشرية(١).

إن حياة اللغة تخضع لعاملين: عامل التطور، وعامل الثبات، وأيهما كان الأقوى حصلت له الغلبة، وتعاني اللغات من صراع هذين العاملين «الذي هو قانون تطور اللغات جميعًا، فهذان مَيْلان متعارضان يوجهان اللغة في طريقين متباينين، وأحد هذين المَيْلَيْنِ يتجه نحو التفريق... غير أن هذا التفريق لا يصل إطلاقًا إلى تمامه، لأن سببًا حيويًا يوقفه في الطريق... وهو الميل إلى التوحيد الذي يعيد التوازن، ومن صراع هذين المَيْلَيْنِ تنتج أنواع اللغات المختلفة: من لهجات، ولغات خاصة، ولغات مشتركة»(٢).

إن اللغة العربية ليست بدعًا في اللغات، ولذلك فإنها عانت من صراع التوازن، وما تزال تعاني منه، وستظل تتعرض له في المستقبل، ولكن الشيء الأكيد في هذا الصراع هو أن عامل التوحيد أقوى من عامل التطور، ومن ثم فإن العربية حافظت على نظمها اللغوية التي استخلصها اللغويون من القرآن الكريم والحديث الشريف ومن كلام العرب في عصور الاحتجاج اللغوي.

إن اللغة العربية لها «ظرف خاص لم يتوفر لأية لغة من لغات العالم...

---

(١) ينظر عوامل تطور اللغات: علي عبد الواحد وافي: اللغة والمجتمع ص ١١، ومحمود السعران: اللغة والمجتمع ص ١٧١.

(٢) فندريس: اللغة ص ٣٠٧، وينظر: محمود السعران: اللغة والمجتمع ص ١٧٠.

ذلك أنها ارتبطت بالقرآن منذ أربعة عشر قرنًا، ودُوِّنَ بها التراث العربي الضخم، الذي كان محوره القرآن الكريم في كثير من مظاهره، وقد كَفَلَ الله لها الحفظ، ما دام يحفظ دينه، فقال عز مِن قائل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر]، ولولا أنْ شَرَّفَهَا الله ﷻ فأنزل بها كتابه، وقَيَّضَ له مِن خلقه مَن يتلوه صباح مساء، ووَعَدَ بحفظه على تعاقب الأزمان، لولا كل هذا لأمست العربية الفصحى لغة أثرية، تشبه اللاتينية أو السنسكريتية، ولَسَادَتِ اللهجات العربية المختلفة، وازدادت على مر الزمان بُعْدًا عن الأصل الذي انسلخت منه، هذا هو السر الذي يجعلنا لا نقيس العربية الفصحى بما يحدث في اللغات الحية المعاصرة، فإن أقصى عمر هذه اللغات في شكلها الحاضر لا يتعدى قرنين من الزمان، فهي دائمة التطور والتغير، وعرضة للتفاعل مع اللغات المجاورة، تأخذ وتعطي، ولا تجد في ذلك حَرَجًا، لأنها لم ترتبط في فترة من فترات حياتها بكتاب مقدس، كما هو الحال في العربية»[١].

ولا يزال القرآن الكريم من أقوى أسباب بقاء العربية، ومن أهم عوامل انتشارها بين أبناء الشعوب الإسلامية غير العربية في العالم كله، فأنشأوا المدارس لتعليم العربية وتحفيظ القرآن، وأتاحت الوسائل الحديثة للتعليم إمكانيات جديدة تُسْهِمُ في حفظ العربية وتساعد في انتشارها، وقد كان ابن خلدون مصيبًا حين قال: إن الدين مُرَجِّحٌ لبقاء العربية[٢].

إن الغلبة في صراع التوازن في تاريخ العربية كانت لعوامل المحافظة

---

(١) رمضان عبد التواب: التطور اللغوي ص ٧-٨.

(٢) ينظر: تاريخ ابن خلدون (المقدمة) ١/ ٤٧٥.

والثبات، ولا تزال تلك العوامل تؤدي دورها في ذلك، ولم يكن هذا الأمر خارج قوانين التطور اللغوي، فهذه القوانين تعمل في إطار قانون التوازن، الذي رَجَّحَ فيه القرآن الكريم كفة الثبات، فعاشت العربية في حيوية دائمة خلال القرون المتتابعة.

ومع ذلك الثبات في وجه عوامل التطور فإن اللغة العربية تواجه اليوم مشكلات وصعوبات أفرزها التقدم العلمي والحضاري، ووسائل الاتصال الحديثة، مع تَخَلُّفِ أهلها عن ركب الحضارة، فثمة إقبال على تعلم اللغات الأجنبية، وتهاون في دراسة اللغة العربية، في مقدمة تلك المشكلات: المصطلح العلمي والحضاري، والازدواج اللغوي، ولكن على الرغم من ذلك فإن قانون التوازن سيظل يعمل عمله، ما دام القرآن الكريم محفوظًا، وما دام القرآن يتلى آناء الليل وأطراف النهار.

المطلب الثاني: أهمية اللغة العربية في فهم معاني القرآن الكريم

إن تلاوة القرآن الكريم من أفضل الأذكار، ويستحب الإكثار منها، وينبغي أن تقترن التلاوة بالتفكر والتدبر لمعاني الآيات، فإن من مقاصد القرآن الكريم تدبره، وفهم معاني آياته، قال الله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال الإمام الغزالي: «وتلاوة القرآن حَقَّ تلاوته هو أنْ يشترك فيه اللسان والعقل والقلب، فَحَظُّ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل، وحَظُّ العقل تفسير المعاني، وحَظُّ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار، فاللسان يرتل، والعقل يترجم، والقلب يتعظ»[1].

---

(١) إحياء علوم الدين ١/٢٨٧.

ومن أهم مفاتيح تدبر كتاب الله تعالى معرفة اللغة العربية، قال الإمام الشافعي: «فعلى كل مسلم أن يتعلم من لسان العرب ما بَلَغَهُ جُهْدُهُ... وما ازداد من العلم باللسان، الذي جعله الله لسانَ مَنْ خَتَم به نُبوته، وأنْزَلَ به آخر كتبه: كان خيرًا له،... وإنما بدأت بما وصفتُ، من أن القُرآن نزل بلسان العرب دون غيره: لأنه لا يَعْلَمُ مِن إيضاح جُمَلِ عِلْمِ الكتاب أَحَدٌ، جَهِلَ سَعَةَ لسان العرب، وكثرةَ وجوهه، وجِماعَ معانيه، وتفرقَها، ومن عَلِمَهُ انتفَتْ عنه الشُّبَهُ التي دخلَتْ على من جهِل لسانَها»[1].

وتشمل المعرفة بلسان العرب معرفة دلالة الألفاظ المفردة، وخصائص تركيب الجمل، وتنوع الأساليب، قال الإمام الشاطبي: «وإنما البحث المقصود هنا أن القرآن نَزَلَ بلسان العرب على الجملة، فَطَلَبُ فَهْمِهِ إنما يكون من هذا الطريق خاصة... فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولا سبيل إلى تطلب فهمه من غير هذه الجهة... فإن قلنا: إن القرآن نزل بلسان العرب وإنه عربي وإنه لا عجمة فيه، فبمعنى أنه أُنْزِلَ على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها، وأنها في ما فُطِرَتْ عليه من لسانها»[2].

ومن ثم فإن معرفة اللغة العربية شرط في فهم القرآن، لأن من أراد تفسيره وهو لا يعرف اللغة التي نزل بها القرآن فإنه لا شك سيقع في الزلل، وسيحرف الكلم عن مواضعه، ولذا شدد العلماء النكير على من فسر القرآن وهو جاهل بلغة العرب، من ذلك ما رُوِيَ عن مجاهد بن جبر المكي (ت ١٠٢هـ) تلميذ

(١) الرسالة ص ٤٧-٥٠.

(٢) الموافقات ص ١٠٢-١٠٣.

عبد الله بن عباس أنه قال: «لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالمًا بلغات العرب»[١].

ولسنا بحاجة في هذا المقام إلى الحديث عن مناهج التفسير، وعما كتبه العلماء من تفاسير، فلذلك مؤلفاته الخاصة، ويكفي قارئ القرآن الكريم غير المتخصص أن يعرف معاني الألفاظ الغريبة، وقراءة تفسير مختصر، إن تيسر له ذلك، وينبغي الحذر من أمرين، وقع فيهما بعض من تعاطى التفسير قديمًا وحديثًا:

الأمر الأول: تأويل معاني الألفاظ والآيات تأويلًا باطنيًا بعيدًا عن دلالتها في كلام العرب، لأن ذلك يؤدي إلى تحريف مقاصد الآيات، وربما إلى تعطيل الأحكام الشرعية التي تضمنتها الآيات الكريمة، وهو ما وقع في بعض ما كُتِبَ في التفسير الإشاري.

الأمر الثاني: التأويل الشخصي للنص وقراءته بحسب مفاهيم العصر، بغض النظر عن دلالة الألفاظ في كلام العرب، وبغض النظر عن فهم السلف لآيات الكتاب، وهو ما نحا إليه بعض أصحاب القراءات التأويلية الجديدة للنص الكريم، وهدفهم من وراء ذلك إفراغ القرآن من معانيه، والتخلي عن الالتزام بأحكامه، بناء على تأويلاتهم الفاسدة وفهمهم السقيم[٢].

وقد قَرَّرَ علماء السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ أنَّ أحسن طرق التفسير: أَنْ يُفَسَّرَ القرآن بالقرآن، أو بما جاء في السنة النبوية، ثم ما جاء في أقوال الصحابة والتابعين،

---

(١) الزركشي: البرهان ١/٢٩٢.

(٢) ينظر: أحمد إدريس الطعان: العلمانيون والقرآن ص ٤١٩-٤٢١.

وما اتفق عليه جمهور المفسرين، وما دلت عليه اللغة العربية، ولم يخرج عن أصل من أصول الدين[١].

** ** **

إن التلازم بين اللغة العربية والقرآن الكريم أمرٌ أَبَدِيٌّ لا فِكاك عنه، وقد أدرك علماء الأمة هذا التلازم منذ وقت مبكر، فكان ذلك سببًا لعنايتهم باللغة العربية، وتأسست بناء على ذلك علوم اللغة العربية، وكانت تلك العلوم مفتاحًا لفهم القرآن الكريم، كما كان القرآن الكريم سببًا لنشأتها، وحارسًا للغتها، وليس غريبًا أن تتوجه سهام الأعداء إليها، لكن سهامهم لن تنال منها، فالله حافظٌ كتابه، وحافظٌ لغة كتابه.

وأنت أيها القارئ الكريم أعلم بمقدار معرفتك باللغة العربية، فلا يكن حظك منها الشكوى من صعوبة قواعدها، فالأمم تُولِي تَعَلُّمَ لغاتها القومية كثيرًا من العناية، وتعطي ذلك كثيرًا من الوقت، وتنفق عليه كثيرًا من المال، والعربية لغة القرآن الكريم، وسواء كانت لغتك الأم، أو كانت غير ذلك، فتعلمها من الدين، وإذا وجدتَ أن التعليم الرسمي لم يساعدك على إتقان لغة القرآن، فعليك ببذل الجهد، وتعويض ما فاتك بالتعلم الذاتي، أو الجلوس إلى أهل المعرفة باللغة، حتى تُحَسِّنَ من لغتك، لتكون عونًا لك على فهم كتاب الله تعالى، والوقوف على أسراره التعبيرية، ووجوه إعجازه البيانية.

---

(١) ينظر: ابن تيمية: مقدمة في أصول التفسير ص ٣٤، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ١/٧.

الفصل الرابع

قراءة القرآن الكريم

يَلْفِتُ نظرنا حين نستمع لتلاوة القرآن الكريم اليوم أمران، الأول: تَنَوُّعُ قراءات القراء، والثاني: ونِسْبَتُها إلى أسماء معينة لأشخاص عاشوا في القرن الثاني الهجري، ومن أشهرهم القراء السبعة، وهم: عاصم، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن كثير، وابن عامر، والثاني: خضوع القراءة لأحكام صوتية محددة، مثل: الإدغام، والمد، والترقيق والتفخيم، وغيرها من أحكام التجويد.

ويهمنا في هذا الفصل الإجابة عن السؤال الذي انبنى عليه هذا الكتاب في فصوله المتعددة، وهو ما مدى أصالة النص القرآني من جانبه النطقي، وهو هنا: هل قراءات القراء التي نسمعها اليوم وأحكام التجويد التي يراعونها أصيلة، ترتبط بتعليم النبي ﷺ القرآن الكريم لأصحابه، وهل كان لمرور السنين أثر في تغيير شيء من أصول القراءة ومن أحكام التجويد؟

ليس لدينا تسجيلات صوتية لقراءات الصحابة، يمكن أن نقيس عليها قراءات القراء اليوم، فاختراع هذه التسجيلات حديث يرجع لبضعة عقود من الزمان فقط، لكن لدينا من الدلائل والوسائل التي تساعد في الإجابة، منها: النقل الشفهي للقراءة، فقد كان أساس تعليم القراءة في العصور الإسلامية، من عصر الصحابة إلى زماننا، التلقي الشفهي، ومنها: التدوين المكتوب

للقراءات القرآنية وأحكام التجويد، إلى جانب التلقي الشفهي، منذ وقت مبكر من تأريخ نشأة العلوم الإسلامية.

ويتقاسم قراءة القرآن علمان من علوم القرآن، الأول: علم القراءات القرآنية، والثاني علم التجويد، والأول يُعْنَى باختلاف أئمة القراءة في النطق ببعض ألفاظ القرآن، والثاني يُعْنَى بكيفية النطق وتصحيح مخارج الحروف وصفاتها، والأول أقدم نشأة من الثاني، وثمة عشرات المؤلفات في كلا العلمين، ليس هذا مجال الحديث عنها أو تفصيل القول فيها، فالهدف من عقد هذا الفصل توضيح أصالة القراءات السبع أو العشر، وأصالة أحكام التجويد، وارتباطها بالتعليم النبوي، من خلال مبحثين، الأول: عن القراءات، والثاني عن التجويد.

ومن المفيد لقارئ هذا الفصل من غير المتخصصين أن أضع بين يديه مثالاً يوضح المقصود بالقراءات السبع، وسوف أختار القراءات الواردة في سورة الفاتحة، كما ذكرها الداني في كتابه (التيسير في القراءات السبع)[1]، ليكون على بينة من المقصود بالقراءات ونحن نتحدث عنها في هذا الفصل، وأنقل أولاً سورة الفاتحة:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾﴾.

---

(١) التيسير ص ١٨-١٩.

أما القراءات الواردة فيها ففي ثلاث كلمات، هي:

قرأ عاصم والكسائي: (مَالِكِ يومِ الدينِ) بالألف، وقرأ الباقون من السبعة، وهم: نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، وابن عامر (مَلِكِ يومِ الدينِ).

وقرأ أبو عمرو بن العلاء: (الرحمنِ الرحِيمْ مَّلِكِ) بالإدغام الكبير.

وقرأ خلف عن حمزة: (الصراط)، و(صراط) بإشمام الصاد الزاي، وقرأ خَّلاد عنه بإشمامها الزاي في (الصراط المستقيم) خاصة، وقرأ قنبل عن ابن كثير: (السراط) بالسين حيث وقع، والباقون بالصاد.

قرأ حمزة: (عَلَيْهُم)، بضم الهاء والباقون بكسرها، واختلفوا في ضم الميم وإسكانها في الوصل والوقف.

أما ما يُعْرَفُ بالقراء العشرة فهم السبعة المذكورون، وينضاف إليهم: أبو جعفر يزيد بن القعقاع شيخ نافع المدني، ويعقوب الحضرمي، تلميذ أبي عمرو بن العلاء البصري، وخلف بن هشام، تلميذ الكسائي، ولا تخرج قراءاتهم عن قراءات السبعة، فقرأ يعقوب وخلف: (مالك) بالألف، ووافق يعقوب حمزة في (عليهم)[1].

** ** **

(١) ينظر: ابن الجزري: النشر في القراءات العشر ١/٢٧١-٢٧٤.

المبحث الأول

القراءات القرآنية: نشأة، ورواية، وتأليفًا

كانت قراءة القرآن الكريم تعتمد على التلقي الشفهي والتلقين المباشر، وكان النبي ﷺ المُعَلِّمَ الأوَّلَ للقرآن، فعنه أخذ الصحابة القرآن ومنه تعلموا قراءته، وكان رسول الله ﷺ يُشْغَلُ بأعباء الدعوة وتبليغ الرسالة وإدارة أمور الأمة، فأخذ يستعين بالمَهَرَةِ من قرَّاء الصحابة وحَفَظَةِ القرآن لتعليم المسلمين قراءة القرآن، وكان يقول لأصحابه: «اقْرَؤُوا كما عُلِّمْتُم»[1]، وأَخَذَ علماء القراءة من الصحابة والتابعين ذلك المنهج النبوي في التعليم، فكانوا يقولون: القراءةُ سُنَّةٌ يأخذها الآخِر عن الأول[2].

إنَّ قراءة القرآن في هذه المرحلة كانت تستند إلى الملكة اللغوية السليمة للصحابة، الذين نَزَلَ القرآن بلسانهم، وإلى التعليم والتلقين الشفوي، لتلافي آثار التنوع اللغوي الذي برزت آثاره في العهد المدني من تاريخ الدعوة بخاصة، بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجًا، وقد جاءت رخصة الأحرف السبعة لاستيعاب ذلك التنوع والتخفيف من آثاره.

وتتطلب الإجابة عن مدى أصالة القراءات القرآنية، ومدى ارتباطها بالتعليم النبوي للصحابة، وبقراءات الصحابة، الحديث عن نشأة علم

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (١٢/١) عن ابن مسعود.

(٢) ينظر: ابن مجاهد: كتاب السبعة ص٥٠ - ٥٣.

القراءات، وظهور المؤلفات الخاصة بها، من خلال الفقرات الآتية:

المطلب الأول: رخصة الأحرف السبعة والنشأة الأُولَى للقراءات

نَزَلَ القرآن بلغة قريش[1]، وهي اللغة العربية التي كانت سائدة في مكة، فقد جاء على ألسنة عدد من كبار الصحابة أن القرآن أُنزل بلغة قريش وكُتِبَ في المصاحف بها، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك في أكثر من مناسبة في هذا الكتاب، ولا شك في أنَّ القول بنزول القرآن الكريم بلغة قريش يتوافق مع شواهد التأريخ وطبيعة اللغات البشرية، والعقل يقتضي أن تكون لغة أهل مكة ذات خصائص لغوية متجانسة، وأن لغة رسول الله ﷺ كانت متطابقة مع تلك اللغة، وأن معنى نزول القرآن بلغة قريش أن رسول الله ﷺ كان يتلو القرآن ويُبَلِّغُهُ على نَحْوٍ يطابق نطق العربية السائد في مكة، وكان أهل مكة يسمعون منه القرآن، ولا يستشكلون ذلك النطق، كما أنهم لا يصعب عليهم تقليده.

ويمكن للدارس أنْ يُقَسِّمَ تاريخ قراءة القرآن في عصر النبوة على فترتين: الفترة المكية والفترة المدنية، وذلك بالاستناد إلى التنوع اللغوي للمخاطبين وعدمه، ففي الفترة المكية كان هناك تجانس لغوي بشكل عام بين المؤمنين الداخلين في الدين، فمعظمهم من أهل مكة وسكان مكة هم من قبيلة قريش، فلم يكن يصعب عليهم تلاوة القرآن بالنطق الذي يتلقون به القرآن من النبي ﷺ.

وفي الفترة المدنية حَدَثَ تَغَيُّرٌ من ناحيتين، الأولى: دخول أفراد من

---

(١) ينظر: صحيح البخاري ص ٩٩٢، (رقم الحديث ٤٩٨٧)، وسنن الترمذي ص ٤٩٣، (رقم الحديث ٣١٠٤)، والمرشد الوجيز لأبي شامة ص١٠١.

قبائل عربية شتى في الإسلام، ومن بيئات لغوية مختلفة، والثانية: ازدياد أعداد الداخلين في الدين، خاصة بعد فتح مكة، حين تقاطرت وفود القبائل على المدينة من أقطار الجزيرة العربية، حتى سُمِّيَتْ سنة تسع من الهجرة سنة الوفود[١].

وقد ترتب على ذلك التغير أمران، الأول: الحاجة إلى المعلمين الذين يقومون بتعليم تلك الجموع الغفيرة، والثاني: بروز صعوبات تعترض المتعلمين تتعلق بالخصائص اللغوية، أو تفاوت القدرات الذهنية في الحفظ والضبط.

وأمكن سَدُّ الحاجة من المعلمين بالاستعانة بالقراء من الصحابة، فكان رسول الله ﷺ إذا دَخَلَ رجل في الإسلام قال لأصحابه: «فَقِّهُوا أخاكم في دينه، وأَقْرِئُوه وعَلِّمُوه القرآن»[٢]. وقال عبادة بن الصامت، وكان أحد علماء الصحابة بالقرآن: «كان رسول الله ﷺ يُشْغَلُ، فإذا قَدِمَ رجل مهاجرٌ على رسول الله ﷺ دَفَعَهُ إلى رجل منا يُعَلِّمُهُ القرآن»[٣].

وكان رسول الله ﷺ يدعو المتعلمين إلى أخذ القرآن من علماء القراءة من الصحابة، فقد قال: «خُذُوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم مولى أبي حذيفة، ومعاذ بن جبل، وأُبَيِّ بن كعب»[٤]، وكان لكل

---

(١) ينظر: ابن هشام: السيرة النبوية ص ١٠٥٧.

(٢) ينظر: الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٢/٤٧٤.

(٣) مسند الإمام أحمد ٣٧/٤٢٦، (رقم الحديث ٢٢٧٦٦).

(٤) صحيح البخاري ٥/٣٦، (رقم الحديث ٣٨٠٨)، و٦/١٨٦، (رقم الحديث ٤٩٩٩)، وصحيح مسلم ٤/١٩١٣، (رقم الحديث ٢٤٦٤)، ومسند الإمام أحمد ١١/٣٩٥، (رقم الحديث ٦٧٨٦).

واحد من هؤلاء الأربعة دور في تعليم القرآن في زمن النبي ﷺ وبعده[١].

وأما الصعوبات التي اعترضت المتعلمين بسبب الاختلاف اللغوي، أو بسبب عوامل أخرى كالأمية أو صعوبة الحفظ، فإن النبي ﷺ لم يَدَعْ تلك العوائق تحول دون تَعَلُّمِ أصحابه القرآن، لكنه لم يحملهم على تعلم نطق قريش إذا عجزوا عن تحقيقه بكل خصائصه، بل رَخَّصَ لهم في القراءة، فقد روي عن عبد الله بن عباس: «أن النبي ﷺ كان يُقْرِئُ الناس بلغة واحدة، فاشتد ذلك عليهم، فنَزَلَ جبريل فقال: يا محمد، أقرئ كل قوم بلغتهم»[٢].

وجاء في حديث أبي بن كعب الذي رواه الترمذي أن رسول الله ﷺ سأل ربه التيسير على أمته في القراءة، حيث قال: عن عاصم، عن زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ، عن أُبَيِّ بن كعب، قال: لقي رسول الله ﷺ جبريل، فقال: يا جبريل، إني بُعِثْتُ إلى أمة أُمِّيِّينَ: منهم العجوز، والشيخ الكبير، والغلام، والجارية، والرجل الذي لم يقرأ كتابًا قَطُّ، قال: يا محمد، إن القرآن أُنْزِلَ على سبعة أحرف»[٣].

وقد تكرر في أحاديث كثيرة أن النبي ﷺ قال: «إنَّ هذا القرآن أُنْزِلَ على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»، ويُعَبِّرُ هذا الحديث برواياته المتعددة عن الرخصة في القراءة، وتوصف أحيانًا برخصة الأحرف السبعة، وليس من هدفنا الآن ذكر روايات الحديث أو البحث في أسانيدها، فقد تكفلت بذلك

---

(١) ينظر: كتابي: محاضرات في علوم القرآن ص ١١٤ – ١١٥.

(٢) أبو شامة: المرشد الوجيز ص ٩٧، وينظر: الحاكم الكبير: فوائد أبي أحمد الحاكم ص ١١٦، وقال ابن قتيبة في تأويل مشكل القرآن (ص ٣٢): «فكان من تيسيره: أن أمره بأن يقرئ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم».

(٣) سنن الترمذي ٥/٤٤.

دراسات سابقة، قديمة وحديثة، وهو حديث صحيح مشهور، رُوِيَ عن واحد وعشرين صحابيًا[١]، ونقلته أشهر كتب السنة النبوية.

ولم يرد في أي من روايات الحديث تحديد للأحرف السبعة، قال أبو بكر ابن العربي: «لم تتعين هذه السبعة بنص من النبي ﷺ، ولا بإجماع من الصحابة، وقد اختلفت فيها الأقوال»[٢]. ولكن المتأمل في الروايات لا يخطئ تحديد موضوعها وهو قراءة القرآن، فالاختلاف الحاصل بين الصحابة كان في الألفاظ المسموعة، لا في المعاني المفهومة، وقال محمد بن شهاب الزهري بعد روايته لحديث الأحرف السبعة: «بَلَغَنِي أَنَّ تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحدًا، لا يختلف في حلال ولا حرام»[٣]، وأخرج الطبري عن أبي العالية الرياحي (ت ٩٠هـ) أنه قال: «قرأ على رسول الله ﷺ من كل خمسٍ رجلٌ، فاختلفوا في اللغة، فَرَضِيَ قراءتهم كلهم، وكانت بنو تميم أعرب القوم»[٤]، وهذا يدل على أن الصحابة اختلفوا في قراءة القرآن، ولم يختلفوا في المعاني والأحكام، ونزلت الرخصة بالتيسير عليهم في القراءة.

واختلف الدارسون في القديم في معنى (الأحرف السبعة) اختلافًا كبيرًا[٥]، وأشهر الأقوال في تفسير السبعة الأحرف الواردة في الحديث أنها:

---

(١) السيوطي: الإتقان ١/٣٠٨، وينظر: ابن الجزري: النشر ١/٢١.

(٢) ينظر: أبو شامة: المرشد الوجيز ص ٩٧، والزركشي: البرهان ١/٢١٢.

(٣) أبو عبيد: فضائل القرآن ص ٣٣٥، وصحيح مسلم بشرح النووي ٦/١٠١، والطبري: جامع البيان ١/١٤.

(٤) جامع البيان ١/١٩، ونقله أبو شامة في المرشد الوجيز (ص١٣).

(٥) مكي: الإبانة ص ٣٤.

١. سبع لغات من لغات العرب متفرقة في القرآن.

٢. سبعة أوجه من أوجه القراءات التي قرأ بها الصحابة.

٣. سبعة ألفاظ مختلفة في النطق متفقة في المعنى.

تلك أهم الأقوال في تفسير الأحرف السبعة، ولا يكاد قول منها يسلم من مأخذ أو اعتراض، وهو ما يمنع من اعتماد واحد منها أو ترجيحه، ولكن تلك الأقوال بينها تداخل وارتباط، وقد يكمل بعضها بعضًا في فَهْمِ الرخصة في القراءة، ومن ثم لا يجوز إلغاء أي منها، لأن كل واحد منها يمت إلى أصل الموضوع بسبب:

(١) فالقول إنَّ الأحرف سبعُ لغات من لغات العرب متفرقة في القرآن، فيكون بعضه بلغة هذه القبيلة، وبعضه بلغةٍ أخرى، وهكذا، لا يبتعد عن سبب الرخصة، وهو اختلاف اللغات، لكن لم يرد تحديد تلك اللغات في خبر صحيح.

(٢) والقول إن الأحرف هي سبعةٌ من وجوه القراءات يتخذ من الآثار التي تَرَتَّبَتْ على الرخصة أساسًا للتفسير، لكن آراء العلماء تباينت في كيفية حصر تلك السبعة، لكونهم يستندون إلى الاجتهاد في ذلك.

(٣) والقول إن الأحرف سبع ألفاظ مختلفة في النطق متفقة في المعنى قد يُعَبِّرُ عن وجه من وجوه التيسير لكنه يثير أكثر من إشكال، فهو يحصر الرخصة في إبدال كلمة بأخرى، ويَعُدُّ القراءات الموجودة اليوم لا تدخل في الأحرف السبعة.

وكذلك فإن الاختلاف بين لغات العرب لا يصل إلى أن يكون للمعنى الواحد لفظ مغاير في كل لغة من تلك اللغات، لأن الاختلاف بينها إذا وصل إلى هذه الدرجة فإنها ستكون لغات مستقلة لا يجمعها اسم العربية، ولا يخفى على القارئ أن علماء العربية والقراءة حين يستخدمون كلمة (لغات) فإنهم يقصدون بها ما يسميه اللغويون اليوم باللهجات.

وإذا كانت القراءات القرآنية جميعها، مشهورها، وشاذها، ناتجةً عن رخصة الأحرف السبعة، فينبغي البحث عن تفسير الأحرف السبعة في إطار وجوه الاختلاف بين القراءات القرآنية، وهي في معظمها تندرج في إطار التنوع اللغوي للغات العرب في وقت التنزيل.

وذهب عدد من العلماء إلى القول بعدم إرادة حقيقة العدد في الحديث، وإنما الدلالة على التيسير والسعة، وقد أشار إلى ذلك الخطابي (ت ٣٨٨هـ) بقوله: «وقيل فيه وجه آخر، وهو أن المراد به التوسعة، وليس حصرًا للعدد»[(١)].

وقال الأندرابي (ت ٤٧٠هـ): «وقال آخرون: إن لفظ السبعة التي في هذا الخبر جاء على جهة التمثيل، لأنه لو جاء في كلمة أكثر من سبع قراءات جاز أن يُقْرَأَ بها، كما جاء لمثل ذلك لفظ السبعين في قوله: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٨٠]، أَلَا ترى أنه لَمَّا قال النبي ﷺ: «لأَزِيدَنَّ على السبعين»، أنزل الله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون: ٦]، رُوِيَ هذا عن الحسن، ووَجْهُ

(١) نقلًا عن أبي شامة: المرشد الوجيز ص٩٩.

ذلك أن السبعة والسبعين عند العرب أصل للمبالغة في العدد»[١].

وقال النووي: «قال القاضي عياض (ت ٥٤٤ هـ): قيل هو توسعة وتسهيل، ولم يُقْصَدْ به الحصر»[٢].

وقال أبو شامة المقدسي (ت ٦٦٥هـ): «إنه جَرَىَ كالمَثَلِ في التعبير عن التكثير، لا حصرًا في هذا العدد، والله أعلم»[٣].

وقال ابن الجزري (ت ٨٣٣هـ): «وقيل: ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل المراد السعة والتيسير، وأنه لا حرج عليهم في قراءته بما هو من لغات العرب من حيث إن الله تعالى أَذِنَ لهم في ذلك، والعرب يطلقون لفظ السبع والسبعين والسبع مئة ولا يريدون حقيقة العدد بحيث لا يزيد ولا ينقص، بل يريدون الكثرة والمبالغة من غير حصر، قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ﴾ [البقرة: ٢٦١]، و﴿إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ﴾ [التوبة: ٨٠]، وقال ﷺ في الحَسَنَةِ: (إلى سبعِ مئةِ ضِعْفٍ إلى أضعاف كثيرة)، وكذا حَمَلَ بعضهم قوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة)، وهذا جيد لولا أن الحديث يأباه، فإنه ثَبَتَ في الحديث من غير وجه أنه أتاه جبريل بحرف واحد، قال له ميكائيل استزده... حتى بلغ سبعة أحرف... فدلَّ على إرادة حقيقة العدد وانحصاره»[٤].

---

(١) الإيضاح في القراءات ١/١٠٥.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٩٩.

(٣) المرشد الوجيز ص ٩٩.

(٤) النشر ١/٢٥- ٢٦.

وقال السيوطي (ت ٩١١هـ): «الثاني: أنه ليس المراد بالسبعة حقيقة العدد، بل المراد التيسير والتسهيل والسعة، ولفظ (السبعة) يطلق على إرادة الكثرة في الآحاد، كما يطلق (السبعون) في العشرات و(السبع مئة) في المئين، ولا يراد العدد المُعَيَّنُ، وإلى هذا جَنَحَ عياض ومَن تبعه.

ويَرُدُّهُ ما في حديث ابن عباس في الصحيحين، أن رسول الله ﷺ قال: (أقرأني جبريل على حرف، فراجعته فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف)... فهذا يدل على إرادة حقيقة العدد وانحصاره»[1].

ويمكن أن نخلص من العرض السابق إلى نتيجة تلخص المراد من الأحرف السبعة، وهو التعبير عن الرخصة في القراءة للصحابة الذين لم تُمَكِّنْهُم عاداتُهم اللغوية من نطق القرآن الكريم باللفظ المُنَزَّلِ بلغة قريش، وذلك بالترخيص لهم بقراءته بعربيتهم التي اعتادوها ونشأوا عليها، وهي لا تبتعد كثيرًا عن عربية قريش التي نزل بها القرآن، بتعليم النبي ﷺ لهم، فكانت القراءات القرآنية نتيجة لهذه الرخصة.

وإذا كانت السبعة لم تتعين بنص من النبي ﷺ ولا بإجماع من الصحابة، وقد اختلفت فيها أقوال العلماء وتباينت، فينبغي الاتجاه إلى النتيجة العملية لرخصة الأحرف السبعة، التي هي موضع اتفاق، فإن مما لا تختلف حوله أنظار الدارسين من القدماء والمحدثين هو أن القراءات القرآنية التي ثَبَتَ أن الصحابة رضي الله عنهم قرؤوا بها تستند إلى رخصة الأحرف السبعة، فالقراءات المنقولة كلها صحيحها وشاذها ترتبط بتلك الرخصة وناتجة عنها، وما صار

(١) الإتقان ١/٣٠٩-٣١٠.

يعرف لاحقًا بالقراءات السبع هي جزء مما أنتجته رخصة الأحرف السبعة، كما سنوضح ذلك لاحقًا، إن شاء الله.

المطلب الثاني: علاقة رخصة الأحرف السبعة بتدوين القرآن الكريم

ليس هناك ما يشير إلى دخول شيء من وجوه القراءة التي جاءت بها رخصة الأحرف السبعة في كتابة القرآن في عصر البعثة النبوية المباركة، فالقرآن كان يُكْتَبُ من إملاء النبي ﷺ، ويَقْرَؤُهُ زيد بن ثابت، كاتب الوحي، بعد الفراغ من الكتابة للتأكد من صحة المكتوب، ولم يكن صعبًا على زيد تَفَهُّمُ نطق النبي ﷺ للقرآن، وكتابته، فلم تكن الفوارق اللغوية كبيرة بين لغة قريش ولغة أهل المدينة، وكلاهما ترجعان إلى مجموعة لغوية عربية واحدة هي اللغة الحجازية، ومن المرجح أن قراءة زيد بن ثابت للقرآن كانت تماثل قراءة رسول الله ﷺ لتلقيه لها منه، وكتابته لها بين يديه، واعتياده لها لكثرة سماعها منه ﷺ.

وصرَّح الشيخ محمد أبو زهرة بأن كتابة القرآن في العهد النبوي لم يدخلها شيء من رخصة الأحرف السبعة، وذلك في قوله: «إنَّ الذي كُتِبَ في عصر النبي ﷺ لم يَعْتَرِهِ تغيير، ولم تَجْرِ عليه الحروف السبعة، وإن الحروف السبعة كانت في قراءة القرآن لا في كتابته»[1].

وجُمِعَ القرآن في صحف منظمة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه بعد أن كان مفرقًا في الرقاع، وقام بالعبء الأكبر في ذلك العمل كاتب الوحي لرسول الله ﷺ زيد بن ثابت، وقال له أبو بكر: «إنك رجل شابٌّ، عاقلٌ، لا نَتَّهِمُكَ، وقد

---

(١) المعجزة الكبرى ص ٣٦.

كنت تكتب الوحي لرسول الله ﷺ فَتَتَبَّعِ القرآن فاجْمَعْهُ»، وكان ذلك بعد حروب الردة، ومعركة اليمامة خاصة، في قصة معروفة رواها البخاري وغيره[١]، وقد سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن جمع القرآن في الصحف.

وكان هدف أبي بكر الصديق من ذلك جَمْعَ القرآن في صحف منظمة يُؤْمَنُ معها ضياع شيء من القرآن، ولم يكن ما قام به زيد سوى نقل الرقاع المتفرقة إلى صحف منظمة يضمها لوحان، وليس هناك ما يشير إلى تتبع زيد للقراءات التي ترتبت على الرخصة، لتثبيتها في الصحف، فإذا كان الراجح أن ما كُتِبَ بين يدي رسول الله ﷺ من القرآن كان بلسان قريش، ولم تدخله آثار رخصة الأحرف السبعة فإن الصحف تابعة في ذلك للأصل الذي نُقلت منه.

وذهب عدد من العلماء إلى أن الصحف كانت تَضُمُّ جميع الأحرف السبعة، ونَسَبَ ابن الجزري هذا المذهب إلى عدد من العلماء، وذلك في قوله: «والحق ما تحرَّر من كلام الإمام محمد بن جرير الطبري وأبي عُمَرَ بن عبد البر، وأبي العباس المهدوي، ومكي بن أبي طالب، وأبي القاسم الشاطبي، وابن تيمية وغيرهم، وذلك أن المصاحف [كذا] التي كُتِبَتْ في زمن أبي بكر رضي الله عنه كانت محتوية على جميع الأحرف السبعة»[٢].

ولم أجد في ما اطلعت عليه من كلام هؤلاء العلماء النص على ذلك سوى الشاطبي (ت٥٩٠هـ) الذي قال في قصيدته (عقيلة أتراب القصائد)

---

(١) صحيح البخاري ٦/١٨٣، (رقم الحديث ٤٩٨٦)، وتقدم تخريج الحديث في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

(٢) منجد المقرئين ص ٢١- ٢٢.

التي نَظَمَ فيها كتاب (المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار) لأبي عمرو الداني:

٢٦. فأجْمَعُوا جَمْعَهُ في الصُّحْفِ واعتمدوا زيدَ بنَ ثابتٍ العَدْلَ الرِّضَى نَظَرا

٢٧. فقامَ فيه بعونِ اللهِ يَجْمَعُهُ بالنُّصْحِ والجِدِّ والحزمِ الذي بَهَرا

٢٨. من كلِّ أَوْجُهِهِ حتى اسْتَتَمَّ لهُ بالأحرفِ السبعةِ العليا كما اشْتَهَرَا

وكان الداني قد صرَّح بذلك في (المقنع) حيث قال: «إن أبا بكر رضي الله عنه كان قد جَمَعَهُ أَوَّلًا على السبعة الأحرف التي أَذِنَ الله عز وجل للأمة في التلاوة بها، ولم يَخُصَّ حرفًا بعينه، فلما كان زمان عثمان ووقع الاختلاف بين أهل العراق وأهل الشام في القراءة وأعلمه حذيفة بذلك، رأى هو ومَن بالحضرة من الصحابة أن يجمع الناس على حرف واحد من تلك الأحرف وأن يُسْقِطَ ما سواه»[(١)].

وتابعه الشاطبي في العقيلة، وتابع شرَّاحُ العقيلة ناظمَهَا في القول بذلك، فقال علم الدين السخاوي: «فَجَمَعَ زيد بن ثابت رضي الله عنه هذه الأحرف السبعة وكانت متفرقة في الصحابة، ومجموعة عند بعضهم»[(٢)]. وكذلك فعل ابن القاصح في شرحه (تلخيص الفوائد)[(٣)]، لكن الجعبري استشكل عبارة الشاطبي، وحاول إيجاد دليل عليها، فقال: «ودَلَّ قولُهُ: (حتى استتم له بالسبعة الأحرف) على أنَّ زيدًا كَتَبَ القرآن كله بجميع وجوه قراءاته، والمُعبَّر عنها بـ (السبعة الأحرف)، وليس في كلام أبي بكر وزيد، رضي الله عنهما، تصريح

(١) المقنع ص ٢٩٩.

(٢) الوسيلة إلى كشف العقيلة ص ١٤٨ - ١٤٩.

(٣) تلخيص الفوائد ص ١٣.

بذلك ، بل هو مفهوم سياق كلامهما ، لأن أبا بكر أَمَرَ بكتابة القرآن كله ، وكل حرف من الحروف السبعة بعضٌ من أبعاض القرآن ، فلو أخلَّ ببعضها لم يكن قد كَتَبَ القرآن كله»[١] .

والذي أرجحه هو خلو الصحف من أي أثر لرخصة الأحرف السبعة ، لكونها منقولة من الرقاع التي كَتَبَ عليها زيد بن ثابت وغيره من كُـتَّاب الوحي القرآن في زمن النبي ﷺ ، والتي كُتِبَتْ على لغة قريش المنزَّل عليها القرآن ، والسياق التاريخي يدل على ذلك ، لأن جَمْعَ تلك الوجوه في الكتابة أمر بالغ الصعوبة والتعقيد ، وأنه لا ضرورة تدعو إلى تجشم عناء تلك المهمة ، ما دام اللفظ المنزل للقرآن محفوظًا .

وبَينَ السنةِ الثانيةَ عشرةَ من الهجرة ، التي كُتِبَتْ فيها الصحف ، والسنة الخامسة والعشرين التي نُسِخَتْ فيها المصاحف ، اتسعت بلاد الإسلام ، وتضاعف عدد المسلمين ، واحتاجوا إلى مَن يعلمهم القرآن ، وتولى ذلك علماء القراءة من الصحابة ، واستغرق ذلك معظم خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أبدى اهتمامًا عظيمًا بتعليم الناس القرآن والفقه والعربية ، فأرسل المعلمين إلى الأمصار لتعليم القرآن ، فكان زيد بن ثابت وأُبَيُّ بن كعب في المدينة ، وعبد الله ابن مسعود في الكوفة ، وأبو موسى الأشعري في البصرة ، وأبو الدرداء في دمشق ، ومعاذ بن جبل في فلسطين ، وعبادة بن الصامت في حمص[٢] . وتكوَّنت حول هؤلاء الصحابة في الأمصار مدارسُ لإقراء القرآن والتفسير والفقه .

---

(١) جميلة أرباب المراصد ص ١٨٦ .

(٢) ينظر: ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦/٧ ، و٢/٣٤٥ ، و٢/٣٥٧ .

وكان من نتائج تلك الجهود في تعليم القرآن أمور منها:

(١) ظهور مصاحف في الأمصار مكتوبة على قراءة الصحابة الذين أخذوا عنهم القرآن، قال ابن عطية: «واشتهرت في خلال ذلك صُحُفٌ في الآفاق كُتِبَتْ عن الصحابة، كمصحف ابن مسعود، وما كُتِبَ عن الصحابة في الشام، ومصحف أُبَيٍّ بن كعب، وغير ذلك، وكان في ذلك اختلاف حسب السبعة الأحرف التي أُنْزِلَ القرآن عليها»[١].

(٢) بروز الخلاف في القراءة، وهو استمرار للوجوه التي كان يقرأ بها الصحابة القرآن، في ظل رخصة الأحرف السبعة، لكن الأجيال اللاحقة لم تكن تدرك ما أدركه الصحابة من حكمة تلك الرخصة، فاشتد الجدل بين المعلمين والمتعلمين، وجَعَلَ بعضهم يُخَطِّئُ قراءة الآخر[٢].

وحَمَلَ ذلك الاختلافُ في القراءة عثمانَ بن عفان ﷺ على التفكير في جمع الأمة على مصحف واحد، بعد أن بَلَغَهُ اختلاف الناس في القراءة، وكان أول ما بدأ به هو استشارة الصحابة الذين في المدينة حول ذلك الأمر، فقالوا: نِعْمَ ما رأيتَ[٣]، واتخذ من الصحف التي جَمَعَ فيها زيد بن ثابت القرآن في خلافة أبي بكر أساسًا لنسخ المصاحف الجديدة.

وانتدب الخليفة لهذا العمل أربعة من الصحابة، من ذوي الحفظ والمعرفة بالكتابة، وهم زيد بن ثابت الأنصاري، وثلاثة من أبناء المهاجرين من قريش، وهم: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن

---

(١) المحرر الوجيز ١/٤٩.

(٢) ينظر: ابن أبي داود: كتاب المصاحف ص ١/٢٠٣.

(٣) ينظر: ابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/٢٠٦.

الحارث بن هشام، على ما جاء في رواية البخاري في صحيحه، وتقدم بيان ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وبَيَّنَ الخليفة لهؤلاء الصحابة الأساس اللغوي الذي يستندون إليه في تثبيت نص القرآن، والقراءة التي يرسمون نطقها في المصاحف، فجاء في تلك الرواية: «وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نَزَلَ القرآن بلسانهم».

والقضية التي ينبغي الوقوف عندها هي تحديد دلالة كتابة القرآن بلسان قريش، وقد حَمَلَهُ الجعبري على (مصطلحهم في الكتابة)[١]، لكن علم الدين السخاوي فَسَّرَهُ بقوله: «يريد لحنهم ولسانهم ولغتهم»[٢]، وهو الراجح، لأن الخلاف كان في القراءة والنطق وليس في مصطلح الرسم، وحين عرضوا المصاحف وتوقفوا عند بضع كلمات، منها: (التابوت) و(لم يتسنه) سألوا علماء القراءة عنها، مثل أُبَيِّ بن كعب وزيد بن ثابت، لتحقيق كيفية النطق، الذي تنبني عليه الكتابة[٣].

وجاء في كثير من المصادر تسمية القراءة التي كُتِبَ عليها المصحف المستندة إلى لغة قريش باسم قراءة العامة[٤]، وقراءة الجماعة[٥]، وقد تُسَمَّى قراءة زيد بن ثابت، لأنه كتبها لرسول الله ﷺ وقرأها عليه، وشهد العرضة

---

(١) جميلة أرباب المراصد ص ١٩٨.

(٢) الوسيلة إلى كشف العقيلة ص ١٥٢.

(٣) ينظر: أبو عبيد: فضائل القرآن ص ٢٨٦، والطبري: جامع البيان ٣٨/٣.

(٤) الزركشي: البرهان ٢٣٧/١.

(٥) الباقلاني: نكت الانتصار ص ١٤٧.

الأخيرة، وكان يُقْرِئُ الناس بها حتى مات، ولذلك اعتمده أبو بكر وعمر في جمعه، ووَلَّاهُ عثمان كتابة المصاحف[١].

ورُوِيَ عن أبي عبد الرحمن السلمي (ت ٧٤هـ) قوله: «كانت قراءة أبي بكر وعمر وعثمان وزيد بن ثابت والمهاجرين والأنصار واحدة، كانوا يقرؤون قراءة العامة، وهي القراءة التي قرأها رسول الله ﷺ على جبريل مرتين في العام الذي قُبِضَ فيه، وكان علي رضي الله عنه طول أيامه يقرأ مصحف عثمان ويتخذه إمامًا»[٢].

وذَهَبَ عدد من العلماء إلى أن المصاحف العثمانية اشتملت على جميع الأحرف السبعة، فقال القاضي أبو بكر الباقلاني: «الصحيح أن هذه الأحرف السبعة ظهرت واستفاضت عن رسول الله ﷺ وضبطتها عنه الأمة، وأثبتها عثمان والجماعة في المصحف، وأخبروا بصحتها، وإنما حذفوا منها ما لم يثبت متواترًا»[٣].

وذَكَرَ الداني: «... أَنَّ أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه ومَن بالحضرة مِن جميع الصحابة قد أثبتوا جميع تلك الأحرف في المصاحف وأخبروا بصحتها، وأَعْلَمُوا بصوابها، وخَيَّرُوا الناس فيها... وأنَّ مِن هذه الأحرف حرفَ أُبَيِّ بن كعب، وحرفَ عبد الله بن مسعود، وحرفَ زيد بن ثابت»[٤].

---

(١) أبو شامة: المرشد الوجيز ص ٦٩.

(٢) ينظر: أبو شامة: المرشد الوجيز ص ٦٩.

(٣) نقلًا عن النووي: شرح صحيح مسلم ٦/١٠٠.

(٤) جامع البيان ١/١٢٩.

ولا شك في أن جمهور العلماء يذهبون إلى أن مصحف عثمان كُتِبَ على حرف واحد، وهو حرف زيد بن ثابت، المستند إلى لغة قريش، وأن الأحرف الستة الأخرى لم تدخل في الكتابة، وقال الطبري: إن عثمان ﷺ قد أسقطها وتُرِكَت القراءة بها[١]، وهذا قول قد جَمَعَ فيه الطبري بين الصواب وغيره، وهو محض اجتهاد منه، وقد ناقشه العلماء وبَيَّنُوا وجه الحق فيه[٢].

ويجب التفريق بين القول: إن مصحف عثمان كُتِبَ على حرف واحد وقراءة واحدة، وهو أمر ثابت، ويتناسب مع الغاية التي أرادها عثمان والصحابة من نسخ المصاحف، وبين القول: إن رسم المصحف يحتمل أكثر من حرف أو قراءة، بسبب تجرد الكتابة من النقط والشكل، قال مكي بن أبي طالب: «فالمصحف كُتِبَ على حرف واحد، وخَطُّهُ مُحْتَمِلٌ لأكثر من حرف، إذ لم يكن منقوطًا ولا مضبوطًا، فذلك الاحتمال الذي احْتَمَل الخَطُّ هو من الستة الأحرف الباقية»[٣]،

وقال مكي أيضًا: «وقد بَيَّنَّا علة كون ما زاد في الأحرف على لفظ واحد، أنه من الأحرف السبعة، لأنه إن لم يكن من السبعة ولا من مراد عثمان، فهو تغيير في القرآن لا أصل له ولا معنى، فلا بد أن يكون إما من السبعة الأحرف، وإما من مراد عثمان، والذي ثَبَتَ أن عثمان لم يكتب المصحف إلا على حرف واحد، ولفظ واحد، فما زاد على ذلك فهو من السبعة بلا شك جازت لنا القراءة

---

(١) جامع البيان ١/٢٨.

(٢) ينظر: مكي: الإبانة ص ١٠-١٢.

(٣) الإبانة ص ٣٤.

به، لاحتمال أن يكون عثمان أراده، وأنه غير خارج عن خط المصحف»[١].

وذَهَبَ بعض علماء السلف إلى أن الصحابة جرَّدوا المصاحف من النقط والشكل لِيَحْتَمِلَ خَطُّهَا أكثر من قراءة، فالداني الذي قال: إن العرب لم تكن أهل نَقْطٍ وشَكْلٍ، يقول: «وإنما أَخْلَى الصَّدْرُ منهم المصاحف من ذلك ومن الشكل من حيث أرادوا الدلالة على بقاء السَّعَةِ في اللغات والفُسْحَةِ في القراءات التي أَذِنَ الله تعالى لعباده في الأخذ بها والقراءة بما شاءت منها، فكان الأمر على ذلك إلى أنْ حَدَثَ في الناس ما أوجب نَقْطَها وشَكْلَها»[٢]. وأشار إلى ذلك ابن تيمية أيضًا، حين قال في إجابته المشهورة عن سؤال حول الأحرف السبعة: «فإنه إذا كان قد سَوَّغَ لهم أنْ يقرؤوه على سبعة أحرف كلها شافٍ كافٍ، مع تنوع الأحرف في الرسم، فَلَأَنْ يسوغ ذلك مع اتفاق ذلك في الرسم وتنوعه في اللفظ أَوْلَى وأَحْرَى. وهذا من أسباب تركهم المصاحف أوَّلَ ما كُتِبَتْ غير مشكولة ولا منقوطة، لتكون صورة الرسم محتملة للأمرين، كالتاء والياء، والفتح والضم، وهم يضبطون باللفظ كِلَا الأمرين، وتكون دلالة الخط الواحد على كِلَا اللفظين المنقولَيْنِ المسموعَيْنِ المَتْلُوَّيْنِ شبيهًا بدلالة اللفظ الواحد على كِلَا المعنَيَيْنِ المنقولَيْنِ المفهومَيْنِ»[٣]. وأخذ ابن الجزري هذه الفكرة عن ابن تيمية[٤]، وذكرها بعض المُحْدَثِين[٥]، لكنها فكرة لا يؤيدها ما عُرِفَ من تاريخ الكتابة العربية، فلم تَعْرِفِ الكتابة العربية نظامًا

---

(١) الإبانة ص ٤٥.

(٢) المحكم ص٦١.

(٣) مجموع الفتاوى ١٣/٤٠٢.

(٤) ينظر: النشر ١/٣٣، ومنجد المقرئين ص ٢٢.

(٥) أبو زهرة: المعجزة الكبرى ص ٤٠ و٥٠.

لنقاط الإعجام وللحركات إلا على يد أبي الأسود الدؤلي (ت ٦٩هـ)، ونصر ابن عاصم الليثي (ت ٩٠هـ)، والخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)[١].

وإذا كانت القراءة تتوقف صحتها والأخذ بها على روايتها وتلقيها عن النبي ﷺ، ثم عن صحابته، فإن موافقتها لرسم المصاحف العثمانية صارت شرطًا ثانيًا يُمَيِّزُ بين القراءة الصحيحة المقبولة والقراءة الشاذة المتروكة، وصار الرسم «هو الركن الأعظم في إثبات القرآنية للقرآن»[٢]، وإنما تَبَوَّأَ مصحف عثمان رضي الله عنه هذا المحل لإجماع الصحابة وسائر الأمة عليه[٣]، لكونه قد كُتِبَ لتمثيل اللفظ المُنَزَّلِ بلسان قريش، المسموع من النبي ﷺ.

وبعد نَسْخِ المصاحف في خلافة عثمان رضي الله عنه، وتفريقها في الأمصار، وتحريق ما سواها، صارت هي الحجة في قراءة القرآن، فما وافق رسم هذه المصاحف من القراءات المروية عن الصحابة كان مقبولًا وصحت القراءة به، وما كان مخالفًا لرسمها تُرِكت القراءة به، وإن كان مرويًا، لمخالفته خط المصحف الذي أجمع الصحابة عليه.

المطلب الثالث: الاختيار وأثره في رواية القراءات

كانت مدارس القراءة قد بدأت تتشكل حول المصاحف التي أرسلها الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه إلى كل مصر من الأمصار الخمسة، فتلقى التابعون القراءة عن علماء القراءة من الصحابة، وأدَّوْهَا إلى تابعي التابعين، وهكذا

(١) ينظر تفصيل هذه القضية في كتابي: رسم المصحف ص ٤٦٩- ٤٧٤.
(٢) الشوكاني: إرشاد الفحول ١/٦٤.
(٣) ابن عبد البر: التمهيد ٤/٢٧٩.

تناقلت أجيال الأمة قراءات القرآن عبر العصور، لكن رواية القراءات في القرن الأول والثاني خضعت لظاهرة جديدة تركت آثارها على القراءات، وهي (ظاهرة الاختيار) في القراءة.

وكلمة (الاختيار) تدل على المفاضلة بين أمرين أو أكثر، واصطفاء أحدهما، وصارت للكلمة في علم القراءات دلالةٌ أكثر تحديدًا، وهي التعبير عن قيام قارئ للقرآن باعتماد وجه من وجوه القراءة المروية، في كل حرف من حروف القرآن المختلف في قراءتها، في تعليمه القرآن وتلاوته له، فيقال: اختيار فلان، أي قراءته التي اختارها[١]. قال مكي: «وهؤلاء الذين اختاروا إنما قرؤوا لجماعة، وبروايات، فاختار كل واحد مما قَرَأَ ورَوَى قراءةً تُنْسَبُ إليه بلفظ الاختيار»[٢].

وليس معنى اختيار القارئ قراءة أنه يقوم باختراعها، قال أبو عمرو الداني: «وإنَّ معنى إضافة كل حرف مما أَنْزَلَ الله تعالى إلى مَن أُضِيفَ إليه من الصحابة، كأُبَيٍّ، وعبد الله، وزيد وغيرهم، مِن قِبَلِ أنه كان أضبط له، وأكثر قراءة وإقراء به، وملازمة له، وميلًا إليه لا غير.

وكذلك إضافة الحروف والقراءات إلى أئمة القراءة بالأمصار المراد بها أن ذلك القارئ وذلك الإمام اختار القراءة بذلك الوجه من اللغة، وآثَرَهُ على غيره، وداوَمَ عليه ولَزِمَهُ، حتى اشتهر وعُرِفَ به، وقُصِدَ فيه، وأُخِذَ عنه، فلذلك أُضِيفَ إليه دون غيره من القراء، وهذه الإضافة إضافة اختيار ودوام

---

(١) ينظر في تعريف الاختيار: أمين بن إدريس فلاته: الاختيار عند القراء ص ٢٦-٣٦.

(٢) الإبانة ص ٤٩.

ولزوم، لا إضافة اختراع ورأي واجتهاد»[١].

وظاهرة الاختيار في القراءة قديمة ترجع إلى عصر التابعين، أو أقدم من ذلك، فقد رُوِيَ أن عبد الله بن عباس قال: «قراءتي قراءة زيد، وأنا آخذ ببضعة عشر حرفًا من قراءة ابن مسعود»[٢]. وذكر ابن الجزري أنها ثمانية عشر حرفًا[٣]. والذي حملهم على الاختيار هو أنهم التقوا بعدد من الشيوخ وأخذوا منهم قراءتهم، وفيها من وجوه الاختلاف ما هو معروف، فلما أرادوا تعليم القراءة لتلامذتهم ومَن يَقْرَأُ عليهم لم يُمْكِنْهُم تعليمَ تلك الوجوه كلها لتلامذتهم، فاختار كل واحد منهم قراءة يتمسك بها ويُعَلِّمُهَا، فاشتهرت عنهم تلك الوجوه التي اختاروها، وعُرِفَتْ باختيار فلان أو قراءته.

ولا يتسع المقام لتتبع جميع اختيارات القراء، وسأكتفي لذلك بما يوضح الظاهرة ويبين أثرها في القراءات ورواياتها، وسوف أتتبع الظاهرة في قراءات مدينة رسول الله ﷺ ومدينة الكوفة، فهي أكثر بروزًا في هاتين المدينتين، في عصر التابعين وتابعي التابعين، وأقف بعد ذلك على أثر هذه الظاهرة في القراءات القرآنية وروايتها.

أما المدينة النبوية فإن القراءة الغالبة فيها كانت قراءة زيد بن ثابت، التي توافق قراءة جمهور الصحابة فيها، وكانت تعرف بقراءة الجماعة، أو العامة، وهي التي كُتِبَتْ عليها المصاحف، لكن المدينة لم تَخْلُ من القراءات الأخرى،

---

(١) جامع البيان ١/١٢٩-١٣٠، وينظر: ابن الجزري: النشر ١/٥٢.

(٢) ابن أبي داود: كتاب المصاحف ١/٢٩٧.

(٣) غاية النهاية ١/٤٢٦.

وقد تلقى التابعون تلك القراءات عن الصحابة، ثم تجمعت عناصرها في قراءة نافع بن أبي نعيم، الذي قرأ على سبعين من التابعين[١]. وكان أشهر شيوخه في القراءة خمسة، هم: عبد الرحمن بن هرمز الأعرج (ت ١١٧هـ)، وأبو جعفر يزيد بن القعقاع (ت١٣٠هـ)، وشَيْبَةُ بن نِصَاح (ت١٣٠هـ)، ومسلم بن جندب الهذلي (ت ١١٠هـ)، ويزيد بن رومان (ت١٢٠هـ)[٢].

قال نافع: «أدركتُ هؤلاء الأئمةَ الخمسة وغيرهم... فنظرت إلى ما اجتمع عليه اثنان منهم فأخذته وما شذَّ فيه واحد فتركته، حتى ألَّفْتُ هذه القراءة»[٣].

وكان نافع يُقرئ الناس بجميع القراءات إلا أن يقول له إنسان أريد قراءتك، فيُقْرِئُهُ حينئذ باختياره[٤].

أما الكوفة فإنها كانت من أكثر المدن الإسلامية نشاطًا في القراءة بعد المدينة المنورة، وذلك لنزول عدد من علماء الصحابة فيها، واتخاذها عاصمة الدولة في خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ. قال ابن مجاهد: «وأما أهل الكوفة فكان الغالب على المتقدمين منهم قراءة عبد الله بن مسعود... فلم تزل قراءة عبد الله بالكوفة لا يعرف الناس غيرها، وأول مَن أقرأ بالكوفة القراءة التي جَمَعَ عثمان ﷺ الناس عليها أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ، واسمه

---

(١) ينظر: ابن مجاهد: كتاب السبعة ص ٦٢.

(٢) ينظر: ابن الجزري: غاية النهاية ٢/٣٣٠.

(٣) ابن مجاهد: كتاب السبعة ص ٦٢.

(٤) ينظر: السخاوي: جمال القراء ص ٥٣٢، وابن الجزري: النشر ٢/٣٠٤.

عبد الله بن حبيب، فجلس في المسجد الأعظم، ونصب نفسه لتعليم الناس القرآن، ولم يزل يُقرئ بها أربعين سنة»[١].

وبعد وفاة أبي عبد الرحمن السلمي سنة ٧٤هـ[٢]، خَلَفَهُ في موضعه عاصم بن أبي النجود (ت ١٢٧هـ)[٣]، وقال عاصم: ما أقرأني أحدٌ حرفًا إلا أبو عبد الرحمن السلمي، وكان أبو عبد الرحمن قد قرأ على علي ﷺ وكنت أرجع من عند أبي عبد الرحمن فَأَعْرِضُ على زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ، وكان زِرٌّ قد قرأ على عبد الله«[٤]، يعني ابن مسعود ﷺ.

وكان من قراء الكوفة علي بن حمزة الكسائي (ت ١٨٩هـ) قبل انتقاله إلى بغداد، قال ابن مجاهد: «وكان علي بن حمزة الكسائي قد قرأ على حمزة ونظر في وجوه القراءات، وكانت العربية عِلْمَهُ وصناعتَهُ، واختار من قراءة حمزة وقراءة غيره قراءة متوسطة، غير خارجة عن آثار مَن تقدَّم من الأئمة»[٥].

وكان القراء يرجعون في اختيارهم القراءة إلى ضوابط أو شروط، وهي التي سماها العلماء أركان القراءة الصحيحة، قال مكي: «وهؤلاء الذين اختاروا إنما قَرَؤُوا لجماعةٍ، وبرواياتٍ، فاختار كل واحد مما قرأ وروى قراءةً تُنْسَبُ إليه بلفظ الاختيار... وأكثر اختياراتهم إنما هي في الحرف إذا اجتمع فيه ثلاثة

---

(١) كتاب السبعة ص ٦٦- ٦٨.

(٢) تنظر ترجمته عند: ابن الجزري: غاية النهاية ١/٤١٣.

(٣) ينظر: ابن مجاهد: كتاب السبعة ص ٦٩.

(٤) كتاب السبعة ص٦٧.

(٥) الإبانة ص ٧٨، وينظر: ابن النديم: الفهرست ١/٧٧.

أشياء: قوة وجهه في العربية، وموافقته للمصحف، واجتماع العامة عليه»[١].

وكانت ظاهرة الاختيار في القراءة قد تركت آثارًا عميقة في طريقة رواية القراءات، وفي تشكيل القراءات بالشكل الذي استقرت عليه منذ عصر ابن مجاهد (ت ٣٢٤هـ) ومن أهمها ما يأتي:

(١) امتزاج قراءات الأمصار:

كانت قراءات الأمصار متميزة بعضها عن بعض، فكانت تغلب على أهل كل مصر قراءةٌ من قراءات القراء المشهورين من الصحابة، فكانت في المدينة قراءة زيد بن ثابت، وفي الكوفة قراءة عبد الله بن مسعود، وفي البصرة قراءة أبي موسى الأشعري، وفي الشام قراءة أبي الدرداء، وقد تداخلت هذه القراءات في عصر التابعين وتابعي التابعين، واختفت بأسمائها المعروفة لتظهر في أسماء جديدة هي اختيارات القراء من التابعين وتابعيهم.

وتُقَدِّمُ مدينة الكوفة مثالًا واضحًا على ذلك التمازج، فكانت القراءة الأولى فيها قراءة عبد الله بن مسعود، ثم جاءها أبو عبد الرحمن السلمي مع المصحف الذي أرسله عثمان بن عفان ﷺ، وأقرأ بها أكثر من أربعين سنة حتى توفي سنة ٧٤هـ، وانتشرت قراءة أهل المدينة في الكوفة عن طريقه.

وكان أهل الكوفة شديدي التمسك بقراءة عبد الله، فكان صغيرهم وكبيرهم يقرأ قراءته[٢]، لكن قراءة أهل المدينة، وهي التي تُعْرَفُ أحيانًا بقراءة زيد بن ثابت، انتشرت حتى نافست قراءة عبد الله، فكان سعيد بن جبير (ت ٩٥هـ) يَؤُمُّ

---

(١) الإبانة ص ٤٩.

(٢) ينظر: ابن عبد البر: التمهيد ٨/٢٩٨.

الناس في الكوفة في رمضان، فيقرأ ليلةً بقراءة عبد الله بن مسعود، وليلة بقراءة زيد بن ثابت[١]. وبعد نصف قرن تقريبًا كانت الغلبة لقراءة زيد بن ثابت، فقد قال سليمان بن مِهران الأعمش (ت ١٤٨هـ): «أدركتُ الكوفةَ وما قراءة زيد فيهم إلا كقراءة عبد الله فيكم اليوم، ما يقرؤها إلا الرجل والرجلان»[٢].

وإذا كنا نلاحظ أن قراءة ابن مسعود قد أخذت تختفي معالمها في أوائل القرن الثاني، فإن عناصر تلك القراءة قد دخلت في قراءات قراء الكوفة المشهورين عن طريق تلامذة ابن مسعود من التابعين، فكان حُمْرَانُ بنُ أَعْيَنَ الكوفي، شيخ حمزة بن حبيب الزيات (ت ١٣٠هـ): «يقرأ قراءة ابن مسعود، ولا يخالف مصحف عثمان، يَعْتَبِرُ حروف معاني عبد الله، ولا يخرج من موافقة مصحف عثمان، وهذا كان اختيار حمزة»[٣]. كما أن قراءة زيد بن ثابت لم تَعُدْ ظاهرة للعيان محددة المعالم، فقد مزج علماء القراءة من تابعي التابعين بينها وبين قراءة ابن مسعود وغيرها، بما يوافق خط المصحف، وكذلك الحال في قراءة أهل البصرة والأمصار الإسلامية الأخرى.

ولم يكن أثر الاختيار يقف عند حد اختفاء أسماء القراء من الصحابة، مثل: زيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود من القراءات، وظهور أسماء القراء من التابعين، مثل: نافع أو عاصم أو حمزة وغيرهم، وإنما يتجاوز ذلك إلى انتقال وجوه القراءات من قراءة إلى أخرى، بما لا يقع تحت الحصر، ولكن يمكن أن يكون ذلك واضحًا من خلال ظاهرتي الهمز والتسهيل، والفتح والإمالة،

---

(١) ينظر: الذهبي: معرفة القراء ١/٥٧، وابن الجزري: غاية النهاية ١/٣٠٥.

(٢) ابن مجاهد: كتاب السبعة ص ٦٧.

(٣) ابن الجزري: غاية النهاية ١/٢٦٢.

فالهمز والإمالة ظاهرتان تغلبان على قراءة أهل العراق الأولى، والتسهيل والفتح يغلبان على قراءة أهل المدينة القديمة، وأدَّت ظاهرة الاختيار إلى انتقال الهمز إلى قراءة أهل المدينة، وظاهرة الفتح إلى قراءة أهل العراق.

(٢) ازدياد عدد القراء والقراءات:

كان عدد القراء من الصحابة الذين تصدَّروا للإقراء واشتهرت قراءتهم لا يتجاوز العشرة، لكن عدد القراء أصحاب الاختيارات تضاعف في عصر التابعين وتابعي التابعين، وبلغوا العشرات، بسبب اتساع بلاد المسلمين، وازدياد الحاجة إلى التعليم، واستقر في عرفهم أنَّ مَن يتصدى للإقراء له أنْ يختار قراءةً يُعَلِّمها مَن يقرأ عليه، واكتفى بعضهم برواية قراءة شيخه، وكانت النتيجة ظهور عشرات الاختيارات في القراءات، في القرون الثلاثة الهجرية الأولى.

وانعكس ذلك على كتب القراءات القديمة، فكان كتاب أبي عبيد القاسم ابن سلَّام (ت ٢٢٤هـ) يضم خمسة وعشرين قارئًا، وكان كتاب إسماعيل القاضي (ت ٢٨٢هـ) فيه عشرون قراءة، وجاء بعده محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) وجمع في كتابه في القراءات نيفًا وعشرين قراءة[١]، ولا تضم هذه الكتب جميع أصحاب الاختيارات من تلك الحقبة.

وأدرك ابن مجاهد البغدادي (ت ٣٢٤هـ) ما أدت إليه ظاهرة الاختيار من كثرة القراءات، فامتنع عن اختيار قراءة تُنْسَبُ إليه، فقد نقل تلميذه أبو طاهر بن أبي هاشم أن رجلًا سأل ابن مجاهد: «لِمَ لا يختار الشيخ لنفسه حرفًا يُحْمَلُ عنه؟ فقال: نحن أحوج إلى أن نُعْمِلَ أنفسنا في حفظ ما مضى عليه

(١) ينظر: ابن الجزري: النشر ١/٣٤.

أئمتنا، أحوج منا إلى اختيار حرف يَقْرَأُ به مَن بَعْدَنَا»[١].

(٣) ظهور مصطلح القراءات السبع:

انحسرت ظاهرة الاختيار بعد رفض ابن مجاهد اختيار قراءة تُسَمَّى باسمه، لكن أثر الظاهرة كان ماثلًا أمام نظر ابن مجاهد، وما يمثله مِن عِبْءٍ على المتعلمين للقراءات، فأقدم على دراسة الاختيارات وصنفها إلى صنفين: الاختيارات الصحيحة المشهورة، والاختيارات الشاذة المهجورة، وأَلَّفَ كتابين: الأول (كتاب السبعة) الذي ضمَّنه اختيارات القراء السبعة المشهورين، وهم: نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن عامر. والثاني: كتاب (شواذ السبعة) الذي ضمَّنه بقية الاختيارات التي لم تشتهر شهرة السبعة[٢].

ووصف ابنُ الجزري ابنَ مجاهد بأنه (أَوَّلُ مَنْ سَبَّعَ السبعة)[٣]، ولم يكن يُعْرَفُ قبل ابن مجاهد مصطلح القراء السبعة، ولا القراءات السبع، لكنه اشتهر من بعده، حتى عدَّ بعضهم ما عدا السَّبْعَ شاذًا[٤]، وكثرت المؤلفات في القراءات السبع، ثم أُضِيفَتْ إليها ثلاث قراءات، هي قراءة أبي جعفر يزيد ابن القعقاع، ويعقوب بن إسحاق الحضرمي، وخلف بن هشام، فصارت القراءات المتواترة عشرًا، وما عداها شاذ.

---

(١) الذهبي: معرفة القراء ١/٢١٧.

(٢) ينظر: ابن جني: المحتسب ١/٣٢ و٣٥.

(٣) غاية النهاية ١/١٣٩.

(٤) ينظر: ابن النديم: الفهرست ١/٧٨.

ويلزم التنبيه إلى أن القراءات السبع التي اختارها ابن مجاهد في كتابه (السبعة)، واشتهرت من بعده، وصارت هي المأخوذ بها في قراءة القرآن، ليست هي الأحرف السبعة الواردة في حديث النبي ﷺ: (أنزل القرآن على سبعة أحرف)، وإنما هي جزء مما أنتجته رخصة الأحرف السبعة، كما بَيَّنَّا من قبل، وما اتفاق عدد السبعة والسبع إلا محض مصادفة.

المطلب الرابع: القراءات الصحيحة والقراءات الشاذة

اشتهر مصطلح القراءة الصحيحة أو المتواترة، ومصطلح القراءة الشاذة، وهذا ليس بالأمر الجديد في تاريخ هذا العلم، لكن يلزم توضيح ذلك للقارئ، ويمكن تمييز مرحلتين لاستعمال هذين المصطلحين، الأول: منذ نسخ المصاحف العثمانية، حتى عصر ابن مجاهد المُتَوَفَّى سنة ٣٢٤هـ، والثاني: بعد عصر ابن مجاهد، حتى زماننا، وهذا بيان لأهم معالم تلك المرحلتين.

أولًا: القراءة الصحيحة والقراءة الشاذة قبل عصر ابن مجاهد

كان نَسْخُ المصاحف في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وتوزيعها على الأمصار قد أسس لمرحلة جديدة في قراءة القرآن الكريم، تَعْتَمِدُ على ما رُسِمَ في المصاحف العثمانية، وصارت هي الحجة في قراءة القرآن، لإجماع الصحابة عليها، فما وافق رَسْمَ هذه المصاحف من القراءات المروية عن الصحابة كان مقبولًا وصحت القراءة به، وما كان مخالفًا لرسمها تُرِكَتِ القراءة به، وإن كان مرويًا، لمخالفته خط المصحف الذي أجمع الصحابة على كتابته، قال مكي: «وسَقَطَ العمل بالقراءات التي تُخَالِفُ خط المصحف،

فكأنها منسوخة بالإجماع على خط المصحف»[١].

واحتاج علماء القراءة إلى ضوابط محددة في تمييز القراءة الصحيحة المقبولة من الشاذة المتروكة، فليس كل قراءة مروية عن الصحابة تجوز القراءة بها، وليس كل قراءة وافقت المصحف تصح القراءة بها، وكان أبو عبيد القاسم بن سلَّام (ت٢٢٤هـ) أول مَن نَبَّهَ إلى أركان القراءة الصحيحة وطَبَّقَهَا في كتابه في القراءات الذي يُعَدُّ أول كتاب جامع لها.

وقد تحدَّث أبو بكر بن الأنباري عن هاء الوقف أو السكت في القرآن الكريم، وكيفية الوقف عليها، فقال: «قوله تعالى: ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة ٢٥٩] اختلف القراء في الهاء، فكان أبو جعفر وشيبة ونافع وعاصم وابن كثير يثبتون الهاء في (يَتَسَنَّهْ) إن وصلوا وإن قطعوا... وكان أبو عمرو يوافقهم في هؤلاء الحروف كلهن إلا في الحرف الذي في الأنعام [٩٠]، فإنه كان يحذف الهاءَ منه في الوصل ويثبتها في الوقف، كذا ذكر أبو عبيد في كتابه»[٢].

وقول ابن الأنباري في آخر هذا النص: (كذا ذكر أبو عبيد في كتابه) يدل على أنه نقل الكلام السابق من كتاب (القراءات) لأبي عبيد، ومضى ابن الأنباري في ذكر مذاهب القراء في هذه القضية، وختم كلامه بنقل نص عن أبي عبيد أيضًا، وهو النص الذي تضمن الإشارة إلى أركان القراءة، قال ابن الأنباري: «وقال أبو عبيد القاسم بن سلام الأَسْدِيُّ: الاختيار عندي في هذا الباب كله الوقوف عليها بالهاء بالتعمد لذلك، لأنها إذا أُدْرِجَتْ في القراءة مع

---

(١) الإبانة لمكي ص ٤٢.

(٢) إيضاح الوقف والابتداء ١/٣٠٣-٣٠٤.

إثبات الهاء كان خلاف الكِتَاب، فإذا صار قارئها إلى السكت عندها على ثبوت الهاءات اجتمعت له المعاني الثلاثة، وهي:

- أن يكون مصيبًا في العربية.
- وموافقًا للخط.
- وغير خارج من قراءة القرّاء»[1].

وهذا النص مهم جدًّا، لأنه يشير إلى سبق أبي عبيد إلى تقرير أركان القراءة الصحيحة، ولأنه يدل على أن دراسة القراءات القرآنية كانت تخضع منذ وقت مبكر لضوابط علمية محددة، ولم يزد مَن تناول هذا الموضوع بعد أبي عبيد شيئًا يذكر، اللهم إلا في الشرح والتفصيل.

وكان محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) قد ألمح كثيرًا إلى أركان القراءة الصحيحة في تفسيره، وقد صرَّح بها في كتابه (الجامع في القراءات)، الذي ذكره في مقدمة تفسيره، كما نقل ذلك عنه المِنْتُورِيُّ في شرح الدرر اللوامع حيث قال: «وقال الطبري في الجامع: ثم كُلُّ مَن اختار حرفًا من المقبولين من الأئمة، المشهورين بالسُّنَّةِ والاقتداء بِمَن مضى من علماء الشريعة، راعَى في اختياره:

الروايةَ، أوَّلًا.

ثمَّ موافقةَ المصحف الإمام، ثانيًا.

ثم العربيةَ، ثالثًا.

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ١/٣١١.

فَمَن لم يُرَاعِ الأشياءَ الثلاثة في اختياره لم يُقْبَلِ اختيارُهُ، ولم يتداوَلْهُ أَهْلُ السُّنَّةِ والجماعة»[١].

ولم ترتبط القراءة الصحيحة في هذه الحقبة بعدد معين من القراء أو القراءات، فكل قراءة صح سندها، ووافقت رسم المصحف كانت مقبولة عند أئمة القراءة، وإذا خالفت رسم المصحف كانت شاذة، وقال ابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ): «كل ما كان موافقًا لمصحفنا غير خارج مَن رَسْمِ كِتَابِهِ جاز لنا أن نقرأ به، وليس لنا ذلك في ما خالفه»[٢].

وقال إسماعيل القاضي (ت٢٨٢هـ): «فإذا اختار إنسان أن يقرأ ببعض القراءات التي رُوِيَتْ مما يخالف خط المصحف صار إلى أن يأخذ القراءة برواية واحد عن واحد، وتَرْكِ ما تلقته الجماعة عن الجماعة، والذين هم حجة على الناس كلهم، يعني خط المصحف»[٣].

وقال أبو منصور الأزهري (ت٣٧٠هـ): «من قرأ بحرف شاذ يخالف المصحف، وخالف في ذلك جمهور القَرَأَةِ المعروفين فهو غير مصيب، وهذا مذهب الراسخين في علم القرآن قديمًا وحديثًا»[٤].

ومن ثم فإن المؤلفين في القراءات القرآنية قبل ابن مجاهد كانوا يحرصون على ذكر كل ما صح لديهم من قراءات، من غير تقيد بعدد معين،

---

(١) شرح الدرر اللوامع ص ٨٦٤.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٤٢.

(٣) نقلًا عن مكي: الإبانة ص ٢١.

(٤) تهذيب اللغة ٥/١٤.

فأبو عبيد ذكر في كتابه في القراءات قراءة خمسة وعشرين قارئًا على ما ذكر ابن الجزري، وكذلك فعل معظم الذين أَلَّفُوا بعده حتى عصر ابن مجاهد، قال ابن الجزري بعد قوله السابق: «وكان بعده أحمد بن جبير بن محمد الكوفي، نزيل إنطاكية، جمع كتابًا في قراءات الخمسة، من كل مصر واحد، وتوفي سنة ثمان وخمسين ومئتين، وكان بعده القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي، صاحب قالون، أَلَّفَ كتابًا في القراءات جمع فيه قراءة عشرين إمامًا، منهم هؤلاء السبعة، توفي سنة اثنتين وثمانين ومئتين، وكان بعده الإمام أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جمع كتابًا حافلًا سماه (الجامع)[١]، فيه نيف وعشرون قراءة، توفي سنة عشر وثلاث مئة»[٢].

واشتهرت أركان القراءة الصحيحة هذه، واستند إليها علماء القراءة في تمييز القراءة الصحيحة من الشاذة، قال مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ) وهو يتحدث عن أقسام القراءات: «قسم يُقْرَأُ به اليوم، وذلك ما اجتمع فيه ثلاثُ خِلال، وهي: أن يُنْقَلَ عن الثقات إلى النبي ﷺ، ويكون وجهه في العربية التي نزل بها القرآن شائعًا، ويكون موافقًا لخط المصحف»[٣].

وصاغ ابن الجزري أركان القراءة الصحيحة صياغة جديدة، فقال: «كُلُّ قراءة وافقت العربية ولو بوجه، ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالًا، وصَحَّ سندها، فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز رَدُّهَا ولا يَحِلُّ

---

(١) ذكره الطبري في تفسيره (١/١٤٨).

(٢) النشر ١/٣٤.

(٣) مكي: الإبانة ص ٥١.

إنكارُهَا، بل هي من الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة، أم عن العشرة، أم عن غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أُطْلِقَ عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة، سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم، هذا هو الصحيح عند أئمة التحقيق من السلف والخلف»[١].

ثانيًا: القراءة الصحيحة والقراءة الشاذة بعد عصر ابن مجاهد:

أدرك ابن مجاهد البغدادي (ت ٣٢٤هـ) ما أدت إليه ظاهرة الاختيار في القراءة من كثرة الاختيارات، ويعني ذلك كثرة القراءات، وحَمَلَهُ ذلك على الامتناع عن اختيار قراءة تُنْسَبُ إليه، على عادة كبار علماء القراءة حتى زمانه، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك[٢].

ودفعت كثرة الاختيارات في القرنين الثاني والثالث علماء القراءة إلى التفكير في تمييز الاختيارات المشهورة عن غيرها، واعتمادها في التعليم والقراءة، قال مكي بن أبي طالب: «إن الرواة عن الأئمة من القراء، كانوا في العصر الثاني والثالث كثيرًا في العدد، كثيرًا في الاختلاف، فأراد الناس في العصر الرابع أن يقتصروا من القراءات، التي توافق المصحف على ما يسهل حفظه، وتنضبط القراء به، فنظروا إلى إمام مشهور بالثقة والأمانة وحسن الدين، وكمال العلم، قد طال عمره، واشتهر أمره، وأجمع أهل مصره على عدالته في ما نَقَلَ، وثِقَتِهِ في ما قرأ وروى، وعِلْمِهِ بما يقرأ، فلم تخرج قراءته عن خط

---

(١) النشر ١/٩.

(٢) ينظر: الذهبي: معرفة القراء ٢/٥٣٧.

مصحفهم المنسوب إليهم، فأفردوا من كل مصر وَجَّهَ إليه عثمان مصحفًا، إمامًا هذه صفته... وأول من اقتصر على هؤلاء: أبو بكر بن مجاهد قبل سنة ثلاث مئة أو في نحوها، وتابعه على ذلك مَن أتى بعده، إلى الآن»[١].

وابن مجاهد الذي يُنْسَبُ إليه إفراد القراء السبعة بكتاب واحد، كان كما قال النديم: «آخر من انتهت إليه الرئاسة بمدينة السلام في عصره... وكان واحد عصره غير مدافع، وكان مع فضله وعلمه وديانته ومعرفته بالقراءات وعلوم القرآن، حَسَنَ الأدب، رقيق الخلق، كثير المداعبة، ثاقب الفطنة جوادًا، ومولده سنة خمس وأربعين ومئتين، وتوفي في يوم الأربعاء لِلَيْلَةٍ بقيت من شعبان سنة أربع وعشرين وثلاث مئة»[٢]، ووصفه ابن الجزري بأنه: «شيخُ الصَّنْعَةِ، وأَوَّلُ مَن سَبَّعَ السبعة»[٣].

وأَلَّفَ ابن مجاهد كتاب (السبعة في القراءات)، وضَمَّنَهُ قراءات القراء السبعة المشهورين، وهم: نافع المدني، وابن كثير المكي، وأبو عمرو البصري، وعاصم الكوفي، وحمزة الكوفي، والكسائي الكوفي ثم البغدادي، وابن عامر الدمشقي، وأَلَّف ابن مجاهد كتابًا آخرَ ضَمَّنَهُ قراءات غير السبعة من القراء، هو كتاب (شواذ السبعة)[٤]، وشرح أبو علي الفارسي (ت ٣٧٧هـ)، وهو تلميذ ابن مجاهد، كتاب السبعة، بكتابه (الحجة للقراء السبعة)، الذي قال في مقدمته: «فإن هذا كتاب نذكر فيه وجوه قراءات القراء الذين ثبتت قراءاتهم في كتاب

---

(١) الإبانة ص ٨٦-٨٧.

(٢) الفهرست ١/٨١.

(٣) غاية النهاية ١/١٣٩.

(٤) ينظر: ابن جني: المحتسب ١/٣٢.

أبي بكر أحمد بن موسى بن العباس بن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ المُتَرْجَمِ بمعرفة قراءات أهل الأمصار بالحجاز والعراق والشام، بعد أن نُقَدِّمَ ذكر كل حرف من ذلك على حسب ما رواه، وأخذنا عنه»[١].

وشرح ابن جني (ت ٣٩٢هـ)، وهو تلميذ أبي علي الفارسي، كتاب (شواذ السبعة) لابن مجاهد، في كتابه (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها)، الذي قال في مقدمته: «وعلى أننا نُنْحِي فيه على كتاب أبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي وضعه لذكر الشواذ من القراءة»[٢].

ووضَّح ابن مجاهد منهجه في تأليف كتاب (السبعة في القراءات) بقوله: «اختلف الناس في القراءة كما اختلفوا في الأحكام، ورُوِيَتِ الآثار بالاختلاف عن الصحابة والتابعين توسعة ورحمة للمسلمين وبعض ذلك قريب من بعض، وحَمَلَةُ القرآن متفاضلون في حمله، ولنقلة الحروف منازل في نقل حروفه، وأنا ذاكر منازلهم ودالٌّ على الأئمة منهم، ومُخْبِرٌ عن القراءة التي عليها الناس بالحجاز والعراق والشام... والقراءةُ التي عليها الناس بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام هي القراءة التي تَلَقَّوْهَا عن أَوَّلِيهم تَلَقِّيًا، وقام بها في كل مصر من هذه الأمصار رجل ممن أخذ عن التابعين، أجمعت الخاصة والعامة على قراءته، وسلكوا فيها طريقه، وتمسكوا بمذهبه»[٣].

---

(١) الحجة للقراء السبعة ١/٥-٦.

(٢) المحتسب ١/٣٥.

(٣) السبعة ص ٤٥.

وقال ابن مجاهد بعد أن ذكر القراء السبعة، وترجم لهم: «فهؤلاء سبعة نفر من أهل الحجاز والعراق والشام خَلَفُوا في القراءة التابعين، وأجمعت على قراءتهم العَوَامُّ من أهل كل مصر من هذه الأمصار التي سَمَّيْتُ وغيرها من البلدان التي تقرب من هذه الأمصار، إلا أن يستحسن رجل لنفسه حرفًا شاذًا فيقرأ به من الحروف التي رُوِيَتْ عن بعض الأوائل منفردة فذلك غير داخل في قراءة العوامِّ، ولا ينبغي لذي لُبٍّ أن يتجاوز ما مضت عليه الأئمة والسلف بوجه يراه جائزًا في العربية أو مما قرأ به قارئ غير مجمع عليه»[١].

وقد أَسَّسَ ابن مجاهد بصنيعه هذا لمنهج جديد في تصنيف القراءات وروايتها، وهو أن القراءات الصحيحة المشهورة هي قراءات القراء السبعة، وأن ما عداها شاذ، ورَسَّخَ هذا المنهج من بعده تلامذته الذين التزموا به، وبنوا عليه، فشاع في القرن الرابع الهجري هذا المفهوم الجديد للقراءة الشاذة، وانعكس ذلك على طريقة النديم في ذكر القراءات في كتابه الفهرست، فعقد بابًا عَنْوَنَهُ بقوله: (أخبار القراء السبعة، وأسماء رواياتهم وقراءتهم)[٢]، ذكر فيه القراء السبعة الذين ذكرهم ابن مجاهد في كتابه، وعقد بعده بابًا آخر عَنْوَنَهُ بقوله: (أسماء قراء الشواذ)[٣]، ذكر فيه أسماء القراء ممن رُوِيَتْ عنه قراءة مما عدا السبعة، من التابعين وتابعيهم، من أهل المدينة، ومكة، والبصرة، والكوفة، والشام، وأهل اليمن، وبغداد، فذكر خمسة وعشرين قارئًا، فيهم عدد من شيوخ السبعة، ومن تلامذتهم، مثل أبي جعفر يزيد بن القعقاع المدني،

---

(١) السبعة ص ٨٧.

(٢) الفهرست ١/٧١-٧٧.

(٣) الفهرست ١/٧٨-٨٠.

ويعقوب بن إسحاق البصري، وخلف بن هشام البغدادي، الذين أُلْحِقَتْ قراءاتهم بعد ابن مجاهد بالقراءات الصحيحة، فصارت عشرًا.

وبناء على منهج ابن مجاهد هذا في تقسيم القراءات صارت القراءات الصحيحة هي القراءات السبع، والقراءات الشاذة ما عداها، وتَرَكَ ذلك المنهج أثره في مسار التأليف والرواية للقراءات في القرون التالية لعصر ابن مجاهد، لكن مقياس القراءة الصحيحة، وهو توفر الأركان الثلاثة فيها بقي مرجعًا في قبول القراءة وردها، فالقراءات السبع استوفت شروط الصحة، وما عداها استوفى بعض تلك الشروط، ومنها ما لم تتوفر فيه.

المطلب الخامس: تطور التأليف في القراءات بعد عصر ابن مجاهد

كانت الكتب المؤلفة في القراءات قبل ابن مجاهد لا تتقيد بعدد معين من القراء، فمنها ما هو في قراءة واحدة، ومنها ما جَمَعَ كثيرًا من القراءات، من غير تقيد بعدد محدد، مثل كتاب القراءات لأبي عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ)، وكتاب القراءات لأبي حاتم سهل بن محمد السجستاني (ت ٢٥٥هـ)، وكتاب القراءات لإسماعيل القاضي (ت ٢٨٢هـ)، كما تقدمت الإشارة إلى ذلك.

ويؤكد ذلك ما قاله أبو الفضل الرازي، وهو يتحدَّث عن عدد القراء المشهورين في الأمصار، وأنهم كانوا أكثر من الأئمة الخمسة الذين اشتهرت قراءاتهم في الأمصار الخمسة، وهم: نافع في المدينة، وابن كثير في مكة، وعاصم في الكوفة، وأبو عمرو في البصرة، وابن عامر في الشام، أو السبعة الذين اقتصر عليهم ابن مجاهد في كتابه: «على أن الناس قد كانوا يؤلفون في القراءات في ما بعد الأئمة الخمسة، فَيُقَدِّمون فيها ما شاؤوا عددًا من الأئمة،

من الخمسة وغيرهم، ولم يكونوا مما يعرفون التسبيع بحالٍ... على نحو ما نجده في كتاب أبي حاتم وأبي عبيد وغيرهما، فإنك تجد في كل واحد عددًا كثيرًا من الأئمة وحروفهم تجاوز الخمسة والسبعة والعشرة...»[١].

وقال ابن الجزري في كتابه النشر: «فكان أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام، وجعلهم في ما أحسب خمسة وعشرين قارئًا مع هؤلاء السبعة...»[٢].

وعلى الرغم من اتساع دائرة التأليف في القراءات السبع بعد ابن مجاهد، وظهور مؤلفات تحمل عنوان القراءات الشاذة، فإن القرن الرابع شهد ظهور مؤلفات في القراءات العشر، بإضافة قراءة أبي جعفر، وقراءة يعقوب، وقراءة خلف، إلى القراءات السبع، وقد يكون ابن خالويه (الحسين بن أحمد ت ٣٧٠هـ) تلميذ ابن مجاهد، أول من بدأ ذلك في كتابه البديع في القراءات السبع وإضافة قراءة يعقوب بن إسحاق إليهم[٣]، ثم رسَّخ هذا الاتجاه أحمد ابن الحسين بن مِهران (ت ٣٨١هـ) في كتابه المبسوط في القراءات العشر، بإضافة: أبي جعفر، ويعقوب، وخلف، إلى السبعة، وكتابه الآخر (الغاية في القراءات العشر)، وضَمَّ اختيار أبي حاتم السجستاني إليهم.

وشهد القرن الخامس الهجري وما بعده ظهور مؤلفات في القراءات السبع، ومؤلفات في القراءات العشر، لكنَّ ما كُتِبَ في العشر في بلدان المشرق

---

(١) معاني الأحرف السبعة ص ٣٢٦.

(٢) النشر ١/٣٣-٣٤.

(٣) ينظر: البديع ص ٣٣.

أكثر، وما كُتِبَ في السبع في بلدان المغرب والأندلس أكثر، وكانت الشهرة لكتب أهل الأندلس في القراءات أكثر من كتب المشارقة، مما عزز شهرة القراءات السبع أكثر من العشر، فأكبر علماء الأندلس في القرن الخامس: مكي ابن أبي طالب، وأبو العباس المهدوي، وأبو عمرو الداني، أَلَّفُوا أشهر كتبهم في القراءات السبع، وزاد من شهرتها أيضًا نظم أبي محمد القاسم بن فِيرُّهْ الشاطبي (ت ٥٩٠هـ) كتاب (التيسير في القراءات السبع) للداني في قصيدته (حرز الأماني ووجه التهاني) المشهورة بالشاطبية، التي حظيت باهتمام شيوخ الإقراء وطلاب القراءات.

فاشتهرت لذلك القراءات السبع أكثر من الثلاث المُتَمِّمَة لها، مما جعل العلماء للقراءات القرآنية يقولون: إن القراءات السبع متفق على تواترها، والثلاث المتممة لها متواترة بِخُلْفٍ، وما عداها شاذ[1].

واجتهد ابن الجزري في تثبيت القول بتواتر القراءات الثلاث المتممة للسبع، فأَلَّفَ كتابه (منجد المقرئين ومرشد الطالبين)، تتبع فيه أقوال العلماء التي تؤكد تواتر القراءات الثلاث المتممة للعشر، وأَلَّفَ كتابه (النشر في القراءات العشر)، ولَخَّصَهُ بكتابه (تقريب النشر في القراءات العشر)، ثم نَظَمَهُ في (طيبة النشر في القراءات العشر)، وأَلْحَقَها بنظم (الدرة المضية في القراءات الثلاث المرضية)، وعَمَدَ إلى (كتاب التيسير في القراءات السبع) للداني، أشهر كتب القراءات السبع، وزاد عليه القراءات الثلاث، وسماه (تحبير التيسير في القراءات العشر).

---

(١) ينظر: القسطلاني: لطائف الإشارات ١/١٤٢-١٤٣.

ولا يتسع المقام لذكر أشهر كتب القراءات في السبع، والعشر، والشواذ، وما نُظِمَ في ذلك من منظومات، وأكتفي بالإشارة إلى أشهر منظومات القراءات في زماننا، وعليها مدار الرواية وطرقها، وهي:

١. منظومة (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع)، التي اشتهرت باسم الشاطبية، لأبي محمد القاسم بن فِيرُّهْ الشاطبي، المُتَوفَّى بمصر سنة ٥٩٠هـ، وهي من البحر الطويل، في ألف ومئة وثلاثة وسبعين بيتًا، ومطلعها:

بدأتُ ببسمِ اللهِ في النَّظْمِ أَوَّلا تبارِكَ رَحْمَانًا رحيمًا ومَوْئِلا

٢. منظومة طيبة النشر في القراءات العشر، لأبي الخير محمد بن محمد بن الجزري، المُتَوفَّى سنة ٨٣٣هـ، وهي من بحر الرجز، في ألف وخمسة عشر بيتًا، ومطلعها:

قال محمدٌ هو ابنُ الجزري يا ذا الجلالِ ارْحَمْهُ وٱسْتُرْ وٱغْفِرِ

٣. منظومة الدرة المضية في القراءات الثلاث المتممة للعشر المرضية، لابن الجزري أيضًا، وهي من البحر الطويل، على وزن الشاطبية ورويها، في مئتين وواحد وأربعين بيتًا، ومطلعها:

قلِ الحمدُ للهِ الذي وَحْدَهُ عَلَا ومَجِّدْهُ وٱسْأَلْ عَوْنَهُ وتَوَسَّلَا

** ** **

ويمكن بعد هذا العرض تلخيص أهم معالم تاريخ القراءات القرآنية بالقول: إن القراءات القرآنية التي يقرأ بها المسلمون القرآن اليوم، من القراءات السبع، أو الثلاث المتممة لها، ترجع إلى ما قرأ به الصحابة رضي الله عنهم،

في إطار رخصة الأحرف السبعة، وبما يحتمله خط المصاحف التي نسخت في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ولم تغير ظاهرة الاختيار شيئًا من القراءات المروية عن الصحابة، سوى أنها وَضَعَتْهَا في سياق معين، ولم يؤد إفراد ابن مجاهد القراءات السبع في كتاب مستقل، وتمييزها عما عداها، إلى استحداث قراءات جديدة أو إلغاء أخرى، لكنه مَيَّزَ بين المشهور وغيره.

وبهذا البيان تتضح للقارئ أصالة القراءات القرآنية التي يقرأ بها المسلمون القرآن الكريم اليوم، وأنها ترجع إلى قراءات الصحابة، ونسبتها إلى عاصم ونافع وغيرهما من القراء السبعة أو العشرة لا تغير من هذه الحقيقة، فهذه النسبة هي نسبة اختيار ودوام ولزوم، لا نسبة اجتهاد أو اختراع.

** ** **

المبحث الثاني

أصالة علم التجويد

علم التجويد هو العلم الذي يُعْنَى بقواعد النطق وكيفية تحقيق مخارج الحروف وصفاتها في القرآن الكريم، ولَخَّصَ المرادي موضوعات علم التجويد بقوله: «اَعْلَمْ أن تجويد القراءة يتوقف على أربعة أمور:

أحدها: معرفة مخارج الحروف.

والثاني: معرفة صفاتها.

والثالث: معرفة ما يَتَجَدَّدُ لها بسبب التركيب من الأحكام.

والرابع: رياضة اللسان بذلك وكثرة التكرار»[1].

وتشمل الأحكام الصوتية الناشئة عن التركيب عددًا من الظواهر، من أهمها: ظاهرة الإدغام، وظاهرة الترقيق والتفخيم، وظاهرة المد والقصر، وهي التي ستكون موضع عنايتنا في هذا البحث.

وكان تعليم قراءة القرآن الكريم في القرون الأُولَى يستند إلى التلقي الشفهي والتلقين المباشر من شيوخ الإقراء، ولم تكن هناك كُتُبٌ يَتَلَقَّى من خلالها المتعلمون في عصر الصحابة والتابعين علوم القرآن وعلوم العربية، ثم نشأت العلوم بعد عصر التابعين، وكان التأليف في علم القراءات وعلم

---

(١) المفيد ص٣٩، وشرح الواضحة (له) ص٣٠.

النحو سابقًا للتأليف في علم التجويد، وكانت كُتُبُ هذين العلمين بما تتضمنه من قواعد للنطق، وبيان للظواهر اللغوية، تعزز التلقي الشفهي.

وشهد القرن الرابع الهجري ميلاد علم جديد يُعْنَى بدراسة مخارج الحروف وصفاتها، مستقلًا عن كتب النحو والصرف، وهو علم التجويد، فَنَظَمَ أبو مزاحم الخاقاني (ت ٣٢٥هـ) قصيدته في حسن أداء القرآن، التي وصفها ابن الجزري بأنها أول مؤلَّف في التجويد[١]، وأَلَّفَ أحمد بن نصر بن منصور الشذائي البصري (ت ٣٧٣هـ) كتاب (معرفة الوصول إلى العلم بتجويد ألفاظ القرآن)[٢]، ثم كَتَبَ أبو الحسن السعيدي (ت بعد ٤١٠هـ) كتابه (التنبيه على اللحن الجلي واللحن الخفي) الذي ضمنه عددًا من مباحث علم التجويد.

وكان من أُولَى المؤلفات الجامعة في علم التجويد: كتاب (الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق ألفاظ التلاوة) لمكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧هـ)، وكتاب (التحديد في الإتقان والتجويد) لأبي عمرو عثمان بن سعيد الداني (ت ٤٤٤هـ)، وتتابعت مؤلفات علماء التجويد في هذا العلم الجديد، حتى بلغت العشرات، ولم تتوقف مسيرة هذا العلم وعطاء العلماء فيه، لأنه العلم الذي يُعَلِّمُ أصول النطق الفصيح والقراءة الصحيحة.

ولا شك في أن أحكام التجويد كانت جزءًا من أصول القراءات القرآنية، التي سبق الحديث عنها، ثم استقلت مباحثه بكتب علم التجويد، وأحاول في

---

(١) غاية النهاية ٢/٣٢١.

(٢) ذَكَرَهُ ونَقَلَ منه أبو بكر محمد بن أبي القاسم الحمزي (من علماء القرن الرابع)، في كتابه المجزي في معرفة القراء السبعة وقراءاتهم ص ٦١-٧٠.

هذا المبحث تأكيد أصالة أحكام التجويد من خلال دلالة الرسم العثماني عليها، إلى جانب دلالة التلقي الشفهي، ودلالة مؤلفات علماء العربية وعلماء القراءات، ثم مؤلفات علماء التجويد، ولا شك في أن استعمال رسم المصحف في الدلالة على أصالة ظواهر التجويد باب جديد في البحث لم يُطْرَقْ من قبل.

وتقوم فكرة الاستدلال برسم المصحف على أصالة ظواهر التجويد على الأسس الآتية:

١. أن الرسم يرجع إلى عصر التنزيل، ولم يتعرض للتغيير أو التبديل، وقد حافظ كُتَّاب المصاحف والخطاطون من بعدهم على طريقة رسم الكلمات في المصحف، وحَفِظَ علماء الرسم وصف تلك الطريقة في كتبهم، كما تقدم بيان ذلك في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

وقال الدكتور علي عبد الواحد وافي في بيان قيمة الرسم في الدلالة على الظواهر اللغوية: «إن جمود الرسم على حالته القديمة يفيد الباحث في اللغات أكبر فائدة، فهو يعرض له صورة صحيحة لأصول الكلمات، ويَقِفُهُ على أصواتها في أقدم عصور اللغة، فالرسم للألفاظ أشبه من هذه الناحية بالمتحف للآثار»[1].

٢. أن الرسم سابق لقواعد الإملاء التي صاغها علماء العربية، وبَنَوْهَا على أن الأصل في الكتابة أن تُرْسَمَ الكلمة بحروف هجائها مبدوءًا بها وموقوفًا عليها، لكن عددًا من الكلمات في رسم المصحف لم يُرَاعَ فيها هذا الأصل،

(١) علم اللغة ص ٢٧٨.

وكُتِبَتْ على الوصل، لأن تلك القاعدة لم تكن مقررة في وقت كتابة المصاحف، وإنما وضعها علماء العربية في عصر لاحق لكتابة المصاحف بقرنين أو ثلاثة، بعد أن وجدوا أن الكلمة قد يتغير نطقها إذا وُصِلَتْ بما بعدها، ولا بد من تحديد أساس معين تقوم عليه قواعد الكتابة، فاختاروا قاعدة رسم الكلمات موقوفًا عليها.

أما في رسم المصحف، وهو سابق لعصر التقعيد اللغوي، فإن كُتَّاب المصاحف وغيرهم في ذلك العصر كانوا يستندون في كتابة الكلمات إلى أصلين، الأول: الشكل الكتابي الموروث للكلمة، والثاني: الشكل الصوتي لنطق الكلمة، وإذا وجدوا أن الشكل الكتابي الموروث لا يُوَفِّي في تمثيل أصوات الكلمة، فإنهم كانوا يعيدون رسم الكلمة بالشكل الذي يرونه أكثر مناسبة، فكانت الكلمات تُكْتَبُ على الوقف حينًا، وعلى الوصل حينًا آخر، وينعكس ذلك على طريقة كتابتها، قال أبو عمرو الداني في كتابه المقنع: «والمذهبان قد يُسْتَعْمَلانِ في الرسم دلالةً على جوازهما فيه»[١]، وقال في المحكم: «وذلك مِن حيث عامَلُوا في كثير من الكتابة اللفظ والوصل دون الأصلِ والقطعِ»[٢].

٣. أن رسم المصحف ينبني على أسس لغوية نطقية أو كتابية، وأن الصحابة رضي الله عنهم كانوا وهم يكتبون القرآن يحرصون على تمثيل النطق، بقدر ما كانت تسمح لهم تقاليد الكتابة، واجتهدوا في المواضع التي تحتمل رسمين

(١) المقنع ص ١٧٧.
(٢) المحكم ص ٢٩١.

على اختيار الوجه الذي يرون أنه أكثر ملاءمة لتمثيل النطق، من غير مراعاة لكتابة الكلمة مبدوءًا بها وموقوفًا عليها.

٤. أن الرسم الذي ستكون ظواهره موضع الاحتجاج به في هذا المبحث هو الرسم المجرد من العلامات الكتابية، فالكتابة العربية في عصر الصحابة كانت خالية من العلامات، وكُتِبَ المصحف مجردًا منها، ثم حَدَثَ ما استدعى اختراع العلامات الدالة على الحركات ونحوها، بعد عصر التابعين، وقد مَرَّ استعمال تلك العلامات بمراحل أشرت إليها عند الحديث عن رسم المصحف في الفصل الثاني من هذا الكتاب، أما الرسم الأول للمصحف الذي يُعْرَفُ بالرسم العثماني فقد ظل ثابتًا محفوظًا، لا يختلف اثنان في أصالته وصحته.

وسوف أتتبع أهم الظواهر الصوتية في علم التجويد من خلال الرسم العثماني، وهي ظاهرة الإدغام، وظاهرة الترقيق والتفخيم، وظاهرة المد والقصر[1].

المطلب الأول: دلالة رسم المصحف على ظاهرة الإدغام

تتأثر الأصوات اللغوية بعضها ببعض إذا تجاورت في السلسلة الكلامية، وتتفاوت درجة التأثر بحسب موقع الصوت وصفاته، والإدغام مصطلح دال على أحد أنواع ذلك التأثر ويُعَرِّفُونَهُ بأنه: وَصْلُ حرفٍ ساكن بحرف متحرك، فيصيران بتداخلهما كحرفٍ واحدٍ، بحيث يُعْتَمَدُ لهما على

(١) سبق لي كتابة بحث بعنوان: (دلالة رسم المصحف العثماني على أصالة أحكام التجويد في أداء الصحابة)، منشور ضمن بحوث المؤتمر العالمي الثالث للقراءات القرآنية، المنعقد في مراكش من ٢٠-٢١/١٠/٢٠١٧م. (ينظر المجلد الأول ص ١٣-٥٦).

المخرج اعتمادةً واحدةً[١].

ولا يمكن إدغام الصوتين المتجانسين والمتقاربين إلا بعد جعلهما متماثلين[٢]، «فإذا التقى حرفان متقاربان أُدْغِمَ الأول منهما في الثاني، ولا يمكن إدغامه حتى يُقْلَبَ إلى لفظ الثاني، فعلى هذا لا يَصِحُّ الإدغام إلا في مثلين، إذ لو تركته على أصله من لفظه لم يَجُزْ إدغامه، لِمَا فيهما من الخلاف، لأنَّ رَفْعَ اللسان بهما رفعةً واحدة مع اختلاف الحرفين مُحَالٌ، لأنَّ لكل حرف منهما مخرجًا غير الآخر»[٣].

ودَرَسَ علماء اللغة العربية وعلماء الأصوات والتجويد ظاهرة الإدغام، وذكروا ما يجوز فيه الإدغام وما لا يجوز فيه، وبَيَّنُوا أنواعه ودرجاته، وأكتفي بهذه المقدمة في التعريف بالإدغام، تمهيدًا لبيان ظواهر رسم المصحف الدالة على وجود ظاهرة الإدغام في كلام العرب وفي تلاوة القرآن في عصر الصحابة، ويمكن تقسيمها على قسمين، الأول: في باب الموصول والمقطوع، والثاني: في غيره.

أولًا: ظواهر الإدغام في الرسم في باب الموصول والمقطوع

لعل أشهر ظواهر الرسم الدالة على وجود الإدغام في قراءة الصحابة هي ظاهرة الفصل والوصل في الرسم، فقد جاء عدد من الكلمات في

---

(١) ينظر: ابن السراج: الأصول ٣/٤٠٥، والداني: الإدغام الكبير ص٩٢، ورضي الدين الأستراباذي: شرح الشافية ٣/٢٣٥.

(٢) رضي الدين الأستراباذي: شرح الشافية ٣/٢٣٥.

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل ٥/٥٢٧.

المصحف مفصولًا حينًا وموصولًا حينًا آخر، وحَقُّ كُلِّ كلمةٍ أن تُرْسَمَ مفصولة في الكتابة مما قبلها ومما بعدها[١]، والأصل في الخط أن تُكْتَبَ كُلُّ كلمة على حرفين فصاعدًا منفصلة عما بعدها، ما لم تكن ضميرًا متصلًا، وحَقُّ كُلِّ حرف من حروف المعاني على حرف واحد أن يُكْتَبَ متصلًا بالكلمة التي يدخل عليها، كاللام والباء والكاف ونحوها[٢].

وأشهر الكلمات التي جاءت موصولة ومفصولة في المصحف ست وعشرون كلمة، هي: أَنْ لا، وإنْ ما، وأمْ ما، وعَنْ ما، ومِنْ ما، وأمْ مَن، وحيثُ ما، وأنْ لم، وإنَّ ما، وأنَّ ما، وكلَّ ما، وبئس ما، وفي ما، وأينَ ما، وإنْ لَم، وأنْ لَن، وكي لا، وعَنْ مَن، ويوم هم، ومَالِ، ولاتَ حين، وكالوهم، ووزنوهم، ويا، وها، وابن أُمَّ[٣].

وهذه الكلمات على نوعين: منها ما يحدث فيه إدغام، مثل عَن ما، ومِن ما، وأَنْ لا، ونحوها، ومنها ما ليس فيه إدغام مثل: في ما، وكلَّ ما، ونحوها، وتحدَّث علماء الرسم عن توجيه المقطوع والموصول في رسم المصحف، وقالوا: إنَّ«كُلَّ ما فُصِلَ فإنما فُصِلَ على الأصل»[٤]، وإنَّ «المقطوع مكتوبٌ على القياس»[٥]، وهو أنَّ حق كل كلمة أن تُكْتَبَ مفصولة عما قبلها وعما بعدها.

---

(١) ينظر: درستويه: كتاب الكُتَّاب ص٤٧، والجعبري: جميلة أرباب المراصد ص٦٤٨.

(٢) ينظر: ابن وثيق: الجامع ص٨٧.

(٣) ينظر: المهدوي: هجاء مصاحف الأمصار ص٨١-٨٦، والجهني: البديع ص ٦٩-٨٦، والداني: المقنع ص ٢١٨-٢٣٠، وابن وثيق: الجامع ص٧٩-٨٤.

(٤) البديع ص ٨٦.

(٥) الجهني: البديع ص ٧٤.

أما ما وُصِلَ مما هجاؤه على أكثر من حرف فنوعان: ما فيه إدغام، وما ليس فيه إدغام، وقد علَّلوا وَصْلَ ما فيه إدغام بأن الخط بُنِيَ على اللفظ، قال أبو بكر بن الأنباري وهو يتحدث عن رسم (أَنْ لا): «فالمواضع التي كُتِبَتْ فيها مقطوعة كُتِبَتْ على الأصل، لأنَّ الأصل (أنْ لا)، والمواضع التي كُتِبَتْ فيها موصولة بُنِيَ الخط فيها على الوصل، لأن الأصل فيه (أنْ لا) فأُدغمت النون في اللام لقرب مخرجها منها... فلما اندغمت النون في اللام صارتا لامًا مشدَّدة، وبُنِيَ الخط على اللفظ»[١].

وذكر الداني وجه الوصل والقطع مختَصرًا في عنوان الباب حيث قال: «باب ذكر ما رُسِمَ في المصاحف من الحروف المقطوعة على الأصل، والموصولة على اللفظ»[٢]، ولم يُمَيِّزْ ما فيه إدغامٌ عن غيره.

وجَمَعَ المهدوي تعليل النوعين في قوله: «وعلة وقوع بعض ما تقدَّم ذكره مقطوعًا، وبعضه موصولًا، وهو ما قدَّمناه من كِتَابِ الكاتب على لفظ المُمْلِي[٣]، وكذلك المُدْغَمُ، وذلك جائز، لأنَّ (فيما) و(كيلا) وما أشبههما، هما في الأصل كلمتان، فإذا كُتِبَ ذلك مقطوعًا كان على الأصل، وإذا كُتِبَ موصولًا فلكثرة الاستعمال، حتى صارا ككلمة واحدة.

والمُدْغَمُ قد دَخَلَ في المُدْغَمِ فيه، حتى صارا حرفًا مشدَّدًا، فإذا كُتِبَ بحرف واحد كان على لفظ الإدغام، واسْتُغْنِيَ بالتشديد عن صورةِ الحرف

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء ١/١٤٦، وأبو داود: مختصر التبيين ٣/٥٥٥.

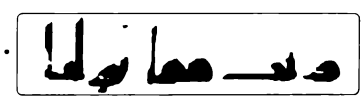
(٢) المقنع ص ٢١٨.

(٣) ذكر ذلك وهو يتحدث عن رسم هاء التأنيث تاء (ينظر: هجاء مصاحف الأمصار ص ٤٠).

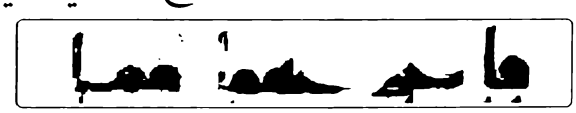
المُدْغَمِ، وإذا كُتِبَ بحرفين فهو على الأصل، وكُلٌّ صوابٌ مستعملٌ»[١].

وإذا كان رسم المصحف يرجع إلى عصر الصحابة، فلا شك في أنهم حين كتبوا بعض تلك الكلمات موصولة كانوا يُمَثِّلُونَ النطق الذي كانوا ينطقونه في قراءتهم، ولو نظرنا في رسم الكلمتين (مِن ما) في المصحف لوجدناهما موصولتين في أكثر مواضع ورودهما، وقد أحصيت مئة واثنين وعشرين موضعًا جاءت فيه الكلمتان موصولتين.

وأول موضع ورد في المصحف منها هو قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٢]، وهذه صورة الآية في مصحف جامع الحسين في القاهرة، وهو من أقدم المصاحف القديمة المخطوطة الباقية:

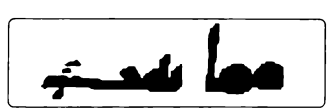


وهذه صورة الموضع الثاني في المصحف نفسه ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا﴾:



[البقرة: ٣٦].

وهذه صورة الموضع الثالث ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ﴾:



[البقرة: ٦١][٢].

وليس ثَمَّ تفسير لهذا الرسم إلا أنه انعكاس لإدغام نون (مِن) في ميم (ما) وقلبها ميمًا، وإدغام الميم في الميم، ورسمهما ميمًا واحدة، على قاعدة

---

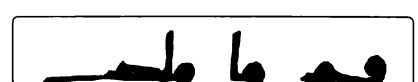
(١) هجاء مصاحف الأمصار ص٤٩.

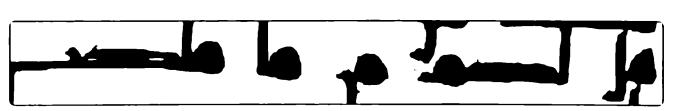
(٢) ذكر الدكتور إياد سالم السامرائي في دراسته لمصحف القاهرة أن رسم (من ما) في المصحف جاء موافقًا لما نص عليه علماء الرسم في كتبهم. (ينظر: ظواهر الرسم في مصحف جامع الحسين في القاهرة ص ٣٥٧).

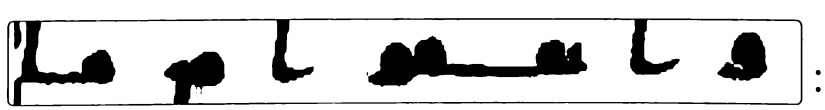
رسم الحرف المشدد في الكتابة العربية القديمة حرفًا واحدًا، وجاء اختراع علامة التشديد الدالة على الإدغام في وقت لاحق.

ويمكن الإتيان بعشرات الأمثلة للكلمات التي جاءت موصولة في المصحف، وبُنِيَ فيها الرسم على اللفظ والوصل، لكن ذلك لن يزيد الأمر وضوحًا أكثر مما يشير إليه المثال الذي ذكرته، ولعل في ذلك دليلًا مقنعًا على أصالة أحكام التجويد لدى من لديه شك في ذلك، وهو دليل ينضاف إلى دلالة تواتر نقل القراءات مشافهة على أصالة تلك الظاهرة وغيرها في قراءة القرآن الكريم.

ولم يَخْلُ رسم المصحف من مجيء الكلمتين (مِن ما) مفصولتين، للدلالة على جواز ذلك فيهما، وأنه الأصل في رسم كل كلمة مفصولة عن الأخرى، وذلك في ثلاثة مواضع [١]، أولها في سورة النساء: ﴿فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [٢٥]، والثاني في الروم: ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ [٢٨]، والثالث في سورة المنافقون: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [١٠]، وهذه صورة تلك المواضع في مصحف جامع الحسين في القاهرة:

الأول: .

والثاني: .

والثالث: .

---

(١) ينظر: الجهني: البديع ص ٧١، والمهدوي: هجاء مصاحف الأمصار ص ٤٣، والداني: المقنع ص ٢١٩، وأبو داود: مختصر التبيين ٢/٧٣.

وإذا وازنا بين عدد المواضع التي جاءت فيها (من ما) مفصولة، بعدد ما جاء منها موصولًا وجدنا أن المفصول لا يشكل إلا نسبة ضئيلة جدًا، لا تتجاوز اثنين في المئة، وفي ذلك دليل على تَأَصُّلِ ظاهرة الإدغام في قراءة الصحابة ﷺ، حتى غَلَبَتْ مراعاتها في كتابة هاتين الكلمتين موصولتين، وإن كان الأصل فيهما أن تُكْتَبَا منفصلتين، ولا تختلف هذه النسبة كثيرًا في الكلمات الأخرى التي حصل إدغام في نطقها، وبُنِيَ رسمها على النطق، فقد جاءت (عن ما) مثلًا مفصولة في موضع واحد، وجاءت موصولة في سبعة وأربعين موضعًا(١).

ولا يمكن القول في أي حال من الأحوال: إن رسم تلك الكلمات موصولة في المصحف تَمَّ بعد أنْ كَتَبَ علماء العربية قواعد الإدغام وقواعد الإملاء، لأنَّ كتابة المصحف سابقة لعصر التقعيد، ولأنَّ علماءَ الأمة وفقهاءَها قد أجمعوا على وجوب المحافظة على ذلك الرسم والالتزام به في كتابة المصاحف وعدم تغييره(٢).

ثانيًا: ظواهر الإدغام في الرسم في غير باب الموصول والمقطوع:

هناك عدد من الكلمات التي جاءت مرسومة في المصحف على طريقة تشير إلى وجود الإدغام فيها، وبُنِيَ رسمها على ذلك، مما يؤكد قوة وجود ظاهرة الإدغام في كلام العرب وفي قراءة القرآن الكريم في زمن الصحابة ﷺ.

---

(١) ينظر: الجهني: البديع ص ٧٠، والداني: المقنع ص ٢٢٠، والمهدوي: هجاء مصاحف الأمصار ص ٤٤، وأبو داود: مختصر التبيين ٥٨١/٣.

(٢) ينظر: كتابي: علم الكتابة العربية ص ١٧٨-١٧٩.

من ذلك كتابة الفعل المجزوم (يَرْتَدِدْ) في المصحف مرة بالإدغام وأخرى بفك الإدغام، فقد أجمعتِ المصاحف على رسمه بفك الإدغام في موضع سورة البقرة: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ﴾ [٢١٧]، واخْتُلِفَ في رسمه في موضع المائدة [٥٤]، فَرُسِمَ بدال واحدة على الإدغام ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ في مصاحف مكة والكوفة والبصرة، وبِدالَيْنِ على فَكِّ الإدغام ﴿يَرْتَدِدْ﴾ في مصحف المدينة والشام[(١)].

وقرأ أبو جعفر ونافع وابن عامر بدالين الأولى مكسورة والثانية مجزومة، على فَكِّ الإدغام، وقرأ الباقون بدال واحدة مفتوحة على الإدغام[(٢)]، وذَكَرَ علماء العربية والقراءات أنَّ الإظهار لغة أهل الحجاز، وأنَّ الإدغام لغة بني تميم[(٣)].

ومثل ذلك كلمة (مُدَّكِر)، جاءت مرسومة بالدال على الإدغام، في ستة مواضع في سورة القمر، في قوله تعالى: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [١٥]، وهي في الأصل (مُذْتَكِر) على وزن (مُفْتَعِل) من (ذَكَرَ)، فأُبْدِلَتِ التاءُ ذالًا، وأُدْغِمَتْ في الذال، ثم أُبْدِلَتِ الذال دالًا[(٤)]، وبها قرأ جمهور القراء، وقُرِئَتْ شذوذًا: (مُذَّكِر) بالذال[(٥)]، وعلى القراءتين فإن رسم المصحف يدل على الإدغام في

---

(١) ينظر: الجهني: البديع ص ١٧٣، والداني: المقنع ص ٢٧٤، والمهدوي: هجاء مصاحف الأمصار ص ٩٨، وأبو داود: مختصر التبيين ٤٤٩/٣.

(٢) ينظر: الداني: التيسير ص ٩٩، وابن الجزري: النشر ٢٥٥/٢.

(٣) ينظر: أبو علي الفارسي: الحجة للقراء السبعة ٢٣٢/٣-٢٣٣، وابن زنجلة: حجة القراءات ص ٢٣٠، ومكي بن أبي طالب: الكشف ٤١٣/١.

(٤) ينظر: سيبويه: الكتاب ٤٦٩/٤-٤٧٠.

(٥) ينظر: ابن خالويه: مختصر في شواذ القراءة ص ١٤٨-١٤٩، والكرماني: شواذ القراءات ص ٤٥٤، وأبو حيان: البحر المحيط ٤٠/١٠.

الكلمة، والإدغامُ كما قال أبو عمرو بن العلاء: «كلامُ العرب الذي يجري على ألسنتها ولا يُحْسِنُونَ غيره، وتصديق ذلك في كتاب الله ﷻ: ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾..»[١].

ومما له علاقة بهذه الكلمة ما حصل من إدغام التاء في الذال في قوله تعالى: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ﴾ في سورة إبراهيم [٥٢]، وقوله: ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ﴾ في الإسراء [٤١]، وفي سورة الفرقان [٥٠]، فالأصل فيها (لِيَتَذَكَّرَ)، و(لِيَتَذَكَّرُوا) فأُبْدِلَتِ التاء ذالاً وأُدْغِمَتْ في الذال، وحُذِفَتْ من الرسم، ومثل ذلك: ﴿يَذَّكَّرُ﴾ في البقرة [٢٦٩]، وآل عمران [٧]، والفرقان [٦٢]، وعبس [٤]، والأصل (يَتَذَكَّر) وأُدْغِمَ التاء في الذال[٢].

ومثل ذلك: ﴿يَزَّكَّىٰٓ﴾ في عبس [٣و٧]، و﴿يَصَّدَّقُواْ﴾ في النساء [٩٢]، و﴿يَسَّمَّعُونَ﴾ في الصافات [٨]، و ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ في الروم [٤٣]، و﴿يَشَّقَّقُ﴾ في البقرة [٧٤]، و﴿يَصَّعَّدُ﴾ في الأنعام [١٢٥]، و﴿يَضَّرَّعُونَ﴾ في الأعراف [٩٤][٣]، وأصل هذه الكلمات: يَتَزَكَّى، ويَتَصَدَّقُوا، ويَسْتَمِعُونَ، ويَتَصَدَّعُونَ، ويَتَشَقَّقُ، ويَتَصَعَّدُ، ويَتَضَرَّعُونَ، وأُبْدِلَ التاءُ في أوائل هذه الأفعال حرفًا مِن جنس الحرف الذي بعده، وأُدْغِمَ فيه، ويشير إلى ذلك حَذْفُهُ من الرسم[٤].

---

(١) الداني: كتاب الإدغام الكبير ص ٩٠.

(٢) ينظر: أبو حيان: البحر المحيط ٢/٦٨٦، ٧/٢٨٥، و١٠/٤٠٦.

(٣) قرأ بعض القراء (يَصْعَدُ)، (يَسْمَعُون) بالتخفيف، والاستشهاد بها على ما قرأ عاصم من رواية حفص (ينظر: الداني: التيسير ص ١٠٦، و١٨٦).

(٤) ينظر: الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ٢٩٠،٢، و٢/٣٥٩، و٤/٢٩٨، وأبو حيان: البحر المحيط ٤/٢٤، و١٠/٨٠.

ومن شواهد الرسم في المصحف الدالة على أصالة الإدغام في قراءة القرآن إدغام تاء تَفَعَّلَ وتَفَاعَلَ في أول عدد من الكلمات، منها:

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ [البقرة: ٧٢].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٣٨].

﴿ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٣٨].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤].

﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ﴾ [النمل: ٤٧].

﴿بَلِ ٱدَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ﴾ [النمل: ٦٦].

وأصل ادَّارَأْتُمْ: تَدَارَأْتُم، وادَّارَكُوا: تَدَارَكُوا، واثَّاقَلْتُم: تَثَاقَلْتُم، وازَّيَنَتْ: تَزَيَّنَتْ، واطَّيَّرْنَا: تَطَيَّرْنَا، وادَّارَك: تَدَارَكَ، ولا يخفى أنَّ هذه الكلمات رُسِمَتْ في المصحف على النطق بها مُدْغَمَةَ التاءِ في الحرف الذي بعدها، واجْتُلِبَتْ همزة الوصل في أولها للتوصل إلى النطق بالحرف الساكن[1]، وهي تدل على أصالة الإدغام في قراءة الصحابة الذين كتبوا المصحف رضي الله عنهم.

* * *

وأحسب أن دلالة الأمثلة التي أوردتها من رسم المصحف على أصالة الإدغام في قراءة القرآن الكريم واضحة وقوية، ولا يُضْعِفُ من تلك الدلالة اختصاصها بحالات معينة وأمثلة محدودة، فإذا ثَبَتَ من خلال شواهد الرسم،

---

(١) ينظر: الزجاج: معاني القرآن وإعرابه ١/١٥٣، و٢/٣٣٦، و٢/٤٤٧، و٣/١٥، ٤/١٢٣.

وهي شواهد ترقى إلى مستوى النقوش المنقوشة على الحجر، وجود تلك الظاهرة في قراءة القرآن الكريم في أمثلة معينة فإنَّ ذلك يعني وجودها في ما كان من جنسها، فقوانينُ الإدغام الصوتية أو ضوابطُهُ النطقية شاملة، ولا تَتَخَلَّفُ إلا إذا تعارضت مع قانون أو ضابط صوتي آخر.

ولعل بعض مَن يسمع هذا الكلام يقول: لسنا بحاجة إلى كل هذا التحليل للقول بوجود ظاهرة الإدغام في قراءة القرآن، فإنَّ تواتر القراءة عندنا أقوى دليل على ذلك، وهذا كلام صحيح، ولكن إذا تضافرت دلالة الرسم ودلالة الرواية على تأكيد وجود ظاهرة الإدغام في قراءة الصحابة كان ذلك أَدْعَى لِنَفْيِ الشبهة في نفوس البعض، ومن أجل ذلك كان أهم شروط صحة القراءة: ثبوت الرواية، وموافقتها للرسم.

وكان أبو عمرو الداني رَحِمَهُ ٱللَّهُ قد قال في مقدمات كتابه (الإدغام الكبير): «وقد رأيتُ أَنْ أستفتح هذا الكتاب بتسمية مَن رُوِيَ عنه الإدغام، وحُفِظَتْ عنه حروفه من السلف -رضوان الله عليهم- من الصحابة والتابعين وخالفيهم، إذ كان قومٌ لا عِلْمَ عندهم ولا دراية لديهم يُنْكِرُونَ القراءة بالإدغام، ويزعمون أنه يؤول إلى تغيير ألفاظ الحروف، ويُزِيلُ معاني الكَلِمِ، وأَنَّ ذلك مما انفرد به أبو عمرو ولا مادَّةَ له، وأنه عن قراءة أهل الأثر بِمَعْزَلٍ، وهذا قول مَن لم تَتَحَقَّقْ معرفتُهُ، ولا استكمل درايتَهُ، ولا لَقِيَ العلماء، ولا شاهد الفقهاء، ولا رَوَى الآثار، ولا قَيَّدَ الأخبار، إذ الأمر بخلاف ما قاله، وعلى غير ما ظنه وقَدَّرَهُ»[1].

---

(١) الإدغام الكبير ص ٧٧-٧٨.

المطلب الثاني: دلالة رسم المصحف على ظاهرة الترقيق والتفخيم

الترقيق لغة: مصدر الفعل رَقَّقَ الشيءَ: أَيْ جَعَلَهُ رقيقًا، والرقيق نقيض الغليظ والثخين[١]، والتفخيم لغة: مصدر الفعل فَخَّمَ، والتفخيم التعظيم، وفَخَّم الكلام عظَّمَهُ، فِعْلُهُ الثلاثي فَخُمَ يَفْخُمُ، ومعنى فَخُم: ضَخُمَ[٢].

والترقيق في الاصطلاح: إنْحَافُ ذاتِ الحرفِ ونُحُولُهُ، فلا يَمْتَلِئُ الفَمُ بِصَدَاهُ، والتفخيم ضِدُّهُ، وهو سِمَنُ الحرفِ وامتلاءُ الفَمِ بِصَدَاهُ[٣].

وتَنْتُجُ صفة التفخيم في الحروف بسبب ارتفاع أقصى اللسان وتراجعه إلى الخلف[٤]، وهناك تلازم بين صفة التفخيم وصفة الاستعلاء التي تقتضي تَصَعُّدَ أقصى اللسان، سواء كان الاستعلاء مع الإطباق أم بدونه، وقد قال عبد الوهاب القرطبي (ت ٤٦١هـ): «إنَّ التفخيم والإطباق والاستعلاء من وادٍ واحد»[٥].

ولا تنفك حروف العربية عن الاتصاف بإحدى هاتين الصفتين، وتُقَسَّمُ باعتبار الترقيق والتفخيم على ثلاثة أقسام: قسمٌ مُفَخَّمٌ مطلقًا، وهو حروف الاستعلاء السبعة (ص ض ط ظ غ خ ق)، وقسم مرقق مطلقًا، وهو باقي الحروف عدا ثلاثة أحرف، وقسم مستعمل فيه الترقيق والتفخيم، وهو

---

(١) لسان العرب ١٠/١٢١.

(٢) لسان العرب ١٢/٤٤٩.

(٣) ابن الطحان: الإنباء في تجويد القرآن ص ٣٩، ومرشد القارئ (له) ص ٧٣-٧٤، وابن الجزري: النشر ٢/٩٠.

(٤) ينظر: عبد العزيز الصيغ: المصطلح الصوتي ص ١٤٨.

(٥) الموضح ص١٧٩، وينظر: المرعشي: جهد المقل ص١٥٤.

الحروف الثلاثة: اللام والراء والألف[١].

ويدل رسم المصحف على وجود هذه الظاهرة في قراءة الصحابة رضي الله عنهم، وقت نسخ المصاحف، وإن كانت في الأصل مما يُتَلَقَّى بالمشافهة، لعدم وجود رمز أو علامة خاصة بها في الكتابة العربية، لكن طروء التفخيم على بعض أصوات العربية المرققة، نتيجة مجاورتها أصواتًا مفخمة، يُقَرِّبُهَا من بعض الحروف المفخمة، حتى رُسِمَتْ بها، كما يشير رسم المصحف إلى ذلك، وتؤيده قراءة القراء.

فمن ذلك رَسْمُ ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾، و﴿صِرَٰطِ﴾ بالصاد، ورَسْم ﴿ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٧]، و﴿بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢٢]، و﴿بَصْطَةً﴾ في الأعراف [٦٩] بالصاد[٢]، وأصل هذه الكلمات بالسين، فلما جاورت حرفًا مفخمًا اكتسبتِ السينُ التفخيمَ فَقُلِبَتْ صادًا[٣]، واستجاب كُتَّاب المصحف لذلك فرسموها صادًا في الكلمات المذكورة، فكل سين بعدها طاءٌ يجوز أَنْ تُقْلَبَ صادًا[٤].

ومما يدل على أن ظاهرة التفخيم كانت موجودة في قراءة الصحابة رضي الله عنهم أنهم كتبوا (بسطة) بالسين على الأصل في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ﴾ [٢٤٧]، وكتبوها بالصاد استجابة لظاهرة التفخيم في قراءتهم في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [٩٦]، وكذلك كتبوا الفعل (يبسط) بالصاد في قوله تعالى في

---

(١) ينظر: ابن الطحان: الإنباء في تجويد القرآن ص٤٠-٤٢، وابن الجزري: النشر ١/٢١٥.

(٢) المقنع ص ٢٥٢، وابن وثيق: الجامع ص ٦٣.

(٣) ينظر: سيبويه: الكتاب ٤٧٩-٤٨٠، وابن السراج: الأصول: ٣/٤٢٩.

(٤) ينظر: ابن منظور: لسان العرب ٤/٣٦٢.

سورة البقرة: ﴿وَٱللَّهُ يَقۡبِضُ وَيَبۡصُۜطُ﴾ [٢٤٥]، وكتبوه بالسين على الأصل في سورة الرعد: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ [٢٦] وفي ثمانية مواضع أخرى.

وقد وردت القراءة بالوجهين في (يبسط، وبسطة) في ما رُسِمَ بالسين وما رُسِمَ بالصاد على السواء[١]، وكذلك وردت القراءة بالوجهين في (المصيطرون وبمصيطر)[٢].

وقال ابن منظور في لسان العرب: «البَصْطةُ، بِالصَّادِ: لُغَةٌ فِي البَسْطة. وقُرِئَ: (وَزَادَهُ بَصْطَةً)، و(مُصَيْطِرٌ)، بِالصَّادِ والسِّينِ، وأَصل صَادِهِ سِينٌ قُلِبَتْ مَعَ الطَّاءِ صَادًا لِقُرْبِ مخرجهما»[٣].

وكان علماء الاحتجاج للقراءات عارفين بهذه الظاهرة، مدركين أصالتها في القراءات وكلام العرب، فقال أبو علي الفارسي في التعليل الصوتي للقراءتين في هذه الحروف: «وَجْهُ قَوْلِ مَن أبدل من السين الصاد في هذه المواضع أَنَّ الطاء حرف مُسْتَعْلٍ يَتَصَعَّدُ مِن مخرجها إلى الحنك، ولم يتصعَّد السينُ تَصَعُّدَها، فَكَرِهَ التصعُّدَ من التَّسَفُّلِ، فأبدلَ مِنَ السين حرفًا مِن مخرجها في تصعُّد الطاء، فتلاءَمَ الحرفان وصار كلُّ واحد منهما وَفْقَ صاحبه في التصعُّد، فزال بالإبدال ما كان يُكْرَهُ مِنَ التصعد عَنِ التَّسَفُّل»[٤].

وقال مكي بن أبي طالب، وهو يتحدث عن قراءة كلمة (الصراط) بالسين والصاد: «وحُجَّةُ مَن قرأ (السراط) بالسين، وهو قنبل عن ابن كثير:

---

(١) ينظر: الداني: التيسير ص ٨١، وابن الجزري: النشر ٢/٢٢٨-٢٣٠.

(٢) ينظر: الداني: التيسير ص ٢٠٤ و٢٢٢، وابن الجزري: النشر ٢/٣٧٨.

(٣) لسان العرب ٧/٢٦١.

(٤) الحجة للقراء السبعة ٢/٣٤٧.

أن السين في هذا هو الأصل، وإنما أبدل منها صادًا لأجل الطاء التي بعدها، فقرأها على أصلها... وحُجَّةُ مَن قرأ بالصاد أنه اتَّبَعَ خَطَّ المصحف، وأن السين حرف مهموس فيه تَسَفُّلٌ، وبعدها حرف مطبق مجهور[١] مُسْتَعْلٍ، واللفظ بالمطبق المجهور بعد المستفل المهموس فيه تَكَلُّفٌ وصعوبةٌ، فأبدل مِنَ السين صادًا لمؤاخاتها الطاء في الإطباق والتصعد، ليكونَ عَمَلُ اللسان في الإطباق والتصعد عملًا واحدًا، فذلك أسهلُ وأخَفُّ، وعليه جمهور العرب وأكثر القراء، وكانت الصاد أولى بالبدل من غيرها لمؤاخاتها السين في الصفير والمخرج، فأُبْدِلَ من السين حرفٌ يؤاخيها في الصفير والمخرج، ويؤاخي الطاء في الإطباق والتصعد، وهو الصاد»[٢].

وتضافر بذلك خط المصحف مع قراءة القراء للدلالة على أصالة الترقيق والتفخيم في قراءة الصحابة رضي الله عنهم القرآن، وهم الذين خَطُّوا المصحف بأيديهم، وكتبوا السين صادًا في (الصراط، وبصطة، ويبصط، والمصيطرون، وبمصيطر)، للدلالة على نطقهم السين في هذه الكلمات مفخمة، ولا مجال للتشكك في أصالة هذه الظاهرة في تجويد القرآن الكريم، وفق الضوابط التي قررها علماء القراءة، من غير تكلف ولا تعسف[٣].

---

(١) وَصَفَ علماء العربية والتجويد المتقدمون صوت الطاء بالجهر، ووَصَفَهُ علماء الأصوات المعاصرون بالهمس، وليس ثمة ضرورةٌ هنا تقتضي مناقشة هذا الموضوع.

(٢) الكشف ١/٣٤.

(٣) حَمَلَ بعض علماء الرسم كتابة الألف واوًا في عدد من الكلمات في المصحف، مثل: (الصلوة، والزكوة، والحيوة..) على لفظ التفخيم، لأن الألف إذا فُخِّمَتْ نُحِيَ بها نحو الواو (ينظر: الداني: المقنع ص ١٩٥، والمهدوي: هجاء مصاحف الأمصار ص ٥١، وأبو داود: مختصر التبيين ٢/٧٠، وكتابي: الميسر في رسم المصحف وضبطه ص ٢٢٤-٢٢٧).

المطلب الثالث: دلالة رسم المصحف على ظاهرة المد والقصر

لكلِّ حرف لغوي طول زمني معين، وبعض الحروف أطول من بعض، فحروف المد أطول الحروف، والحروف الشديدة أقصرها زمنًا في النطق، والحروف الرخوة متوسطة بين هذه وتلك، والمدُّ في اللغة المَطْلُ، وهو الإطالة والزيادة، ومعنى قولهم: مَدَّ الحرف يَمُدُّه مدًّا أي: طَوَّلَهُ[١]، والمدُّ في الاصطلاح: إطالة الصوت بحرف المد، زيادةً على المد الطبيعي الذي لا تقوم ذات حرف المد إلا به، والقصر ترك تلك الزيادة[٢].

وحروف المد ثلاثة: الألف الساكنة المفتوح ما قبلها، والواو الساكنة المضموم ما قبلها، والياء الساكنة المكسور ما قبلها، ومَدُّها على قسمين:

الأول: المد الطبيعي أو الأصلي، وهو الذي لا تقوم ذات حرف المد إلا به.

والثاني: المد العَرَضِيُّ أو الزائد، وهو ما يلحق المد الطبيعي من زيادة، وله سببان[٣]: وقوع حرف المد قبل همزة، ووقوعه قبل حرف ساكن، ولكل من الحالتين أنواع وألقاب، تكفَّلت ببيانها كتب علم التجويد والقراءات، والغرض من هذا المبحث الوقوف عند دلالة رسم المصحف على تقصير حروف المد وتطويلها.

---

(١) لسان العرب ٣/٣٩٦.

(٢) ينظر: ابن الجزري: النشر ١/٣١٣.

(٣) ينظر: ابن جني: الخصائص ٣/١٢٥، والداني: التحديد ص١٠٤، وابن الجزري: النشر ١/٣١٣.

وتتعرض حروف المد للتقصير في بعض السياقات، ويحصل ذلك إذا وقع بعد حرف المد همزة وصل، حيث يؤدي ذلك إلى التقاء ساكنين: حرف المد والحرف الساكن بعد همزة الوصل، لسقوط الهمزة في درج الكلام، ويلزم حينئذ حَذْفُ حرف المد نطقًا مع ثبوته رسمًا[١]، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧]، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ [المائدة ٩٥].

وقد استجاب كُتَّاب المصحف لحذف حروف المد نطقًا في بعض السياقات، فحذفوها رسمًا، وإن لم تكن هناك علة نحوية أو صرفية توجب حذفها، فقد نص علماء الرسم على حذفها في عدد من الكلمات، وذلك يعكس حذفها في النطق، فمثال حذف الياء: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ﴾ في النساء [١٤٦]، و﴿نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ في يونس [١٠٣]. و﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾ في القمر [٥]، وغيرها[٢].

ومثال حذف الواو ما يأتي: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ في الإسراء [١١]، ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ﴾ في الشورى [٢٤]، و﴿يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ في القمر[٦]، و﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ في العلق [١٨][٣].

ومثال حذف الألف ما يأتي: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ في النور [٣١]،

---

(١) ينظر: الرضي: شرح الشافية ٢/٢١٠.

(٢) ينظر: الداني: المقنع ص ١٥٧، والمهدوي: هجاء مصاحف الأمصار ص٨٧، وأبو داود: مختصر التبيين ٢/١٥٠ و ٣/ ٥٨٩.

(٣) ينظر: ابن الأنباري: إيضاح الوقف والابتداء ١/٢٦٨ - ٢٦٩، والداني: المقنع ص ١٦٤، والمهدوي: هجاء مصاحف الأمصار ص٨٤.

و﴿يَتَأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ في الزخرف [٤٩] ، و﴿أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ في الرحمن [٣١][(١)] .

والراجح عند علماء الرسم في تعليل حذف حروف المد في هذه المواضع هو بناء الخط على اللفظ والوصل[(٢)] ، قال الداني: «أَلَا تَرَى أَنَّهم لذلك حَذَفُوا الأَلِفَ والياءَ والواوَ في نَحْوِ قولهِ: ﴿أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١] ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ١٤٦] ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الإسراء: ١١] وشِبْهِهِ ، لَمَّا سَقَطْنَ مِنَ اللفظِ ، لِسُكُونِهِنَّ وسكونِ ما بَعْدَهُنَّ ، بَنَوُا الخَطَّ على ذلك ، فَأَسْقَطُوهُنَّ منه»[(٣)] .

ويَدُلُّ رسم المصحف من هذه الناحية على أصالة ظاهرة تقصير حروف المد في أداء الصحابة رضي الله عنهم للقرآن الكريم ، حين وجدوا تلك الحروف محذوفة في نطقهم لعلة صوتية ، وهي التقاء الساكنين ، فحذفوها من الرسم بناء على ذلك .

أما دلالة رسم المصحف على إطالة حروف المد زيادةً على المد الطبيعي ، إذا وَقَعَتْ قبل همزة أو حرف مشدد ، فهناك عدد من الأمثلة التي يمكن أن تُحْمَلَ على ذلك ، فمن خصائص الرسم حذف الألفات المتوسطة في كثير من الكلمات ، خاصة إذا كانت متعددة المقاطع ، وتعددت مناهج المؤلفين في الرسم في عرض تلك الكلمات ، فبعضهم يعرضها بحسب الحرف الذي يسبق الألف ، وبعضهم يعرضها بحسب نوع الكلمة من فعل أو اسم ، مفرد أو مثنى أو جمع ، وليس هناك حاجة للوقوف على تفاصيلها هنا ، فقد

---

(١) ابن الأنباري: إيضاح الوقف والابتداء ١/٢٧٨ ، والداني: المقنع ص١٤٢ ، والمهدوي: هجاء مصاحف الأمصار ص٨١ .

(٢) ينظر: الجهني: البديع ص ١٢٠ ، والمهدوي: هجاء مصاحف الأمصار ص ٨٦ ، وأبو داود: مختصر التبيين ٤/٩٠٤ ، والمارغني: دليل الحيران ١٧٣ .

(٣) المحكم ص ٢٩١ .

تكفلت ببيان ذلك كتب رسم المصحف، ولكني أقف عند مسألة واحدة لها علاقة بالموضوع الذي نتحدث عنه، وهي حذف الألف من الجموع وإثباتها.

قال أبو عمرو الداني: «كذلك اتفقوا على حذف الألف من الجمع السالم الكثير الدَّوْرِ في المذكَّر والمؤنَّث جميعًا، فالمُذَكَّرُ نَحْوُ: ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، و﴿ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، و﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٩]... فإن جاء بعد الألف همزة أو حرف مُضَعَّفٌ نحو: ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، و﴿وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦]، و﴿خَآئِفِينَ﴾ [البقرة: ١١٤]، و﴿ٱلصَّآئِمِينَ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، و﴿ٱلظَّآنِّينَ﴾ [الفتح: ٦]، و﴿ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]، و﴿ٱلْعَآدِّينَ﴾ [المؤمنون: ١١٣]، و﴿حَآفِّينَ﴾ [الزمر: ٧٥]، وشِبْهِهِ - أُثْبِتَتِ الألفُ في ذلك، على أني تَتَبَّعْتُ مصاحفَ أهل المدينة وأهل العراق العُتُقَ القديمةَ فوجدتُ فيها مواضع كثيرة، مما بعد الألف فيه همزة، قد حُذِفَتِ الألفُ منها، وأكثر ما وجدتُهُ في جمع المؤنث لِثِقَلِهِ، والإثباتُ في المُذَكَّرِ أكثرُ»[1].

وإثبات الألف في هذا النوع من الكلمات، مع كونه هو الأصل، ومع ما ذكره الداني من ملاحظته حذفها في بعض المصاحف، فإنه يمكن أن يُسْتَدَلَّ به على أصالة المد الزائد في قراءة الصحابة رضي الله عنهم، إلى جانب تواتر الرواية بذلك عنهم، فالذي يترجح عندي في إثبات الألفات في هذه الكلمات أنه مبني على إحساس كُتَّابِ المصاحف بالمد الزائد في هذه الكلمات عند نطقها، بسبب وقوعها قبل همزة أو حرف مُضَعَّفٍ، فَجَعَلَهُم ذلك يثبتون تلك الألفات، دون غيرها من الجموع، والله أعلم.

وتُقَدِّمُ كلمات سورة الفاتحة مثالًا جيدًا على ما ذكرته من دلالة رسم

---

(١) المقنع ص ١٤٥-١٤٦.

المصحف على المد الزائد في قراءة الصحابة رضي الله عنهم ، بناء على التفسير الذي رَجَّحْتُهُ لإثبات الألفات في الجموع التي وقعت فيها الألفات قبل همزة أو حرف مضعف، فقد ورد في سورة الفاتحة جمعان سالمان: العالمين، والضالين ، ورَسَمَ الكاتب الجمع الأول بحذف الألف ، ورَسَمَ الثاني بإثباتها ، وهذه صورة كلمات سورة الفاتحة من مصحف جامع الحسين في القاهرة ، وهو من أقدم المصاحف المخطوطة:



ويبدو رسم كلمة (العالمين) واضحًا في أول السطر الثالث ، وقد رُسِمَتْ بحذف الألف ، ولم يَبْقَ من رسم كلمة (الضالين) إلا بقية من الألف ، ومقطع (لين) ، لكنَّ ما بَقِيَ من رسم الكلمة يشير إلى إثبات الألف في رسم الكلمة ، وتفسير ذلك أن حذف الألف من الكلمة الأولى جرى على ما استقر عليه الأمر في الكتابة العربية في ذلك الوقت من حذف الألفات في الكلمات الكثيرة المقاطع ، وأن إثبات الألف في الكلمة الثانية جاء استجابة لشعور

الكاتب بطول نطق الألف في الكلمة، مما لم يجد له وسيلة للتعبير عنه إلا بإثبات رمز الألف للتذكير بذلك الطول، ولا يمكن حمل ذلك على سهو الكاتب، فقد جاءت الرواية تؤكد ذلك الاحتمال وتُرَجِّحُهُ، والله تعالى أعلم.

* * *

وخلاصة هذا الفصل أن القراءات القرآنية التي نقرأ بها القرآن الكريم اليوم تستند إلى ما قرأه الصحابة رضي الله عنهم، ونِسْبَتُهَا إلى القراء السبعة أو العشرة لا تغير من تلك الحقيقة، فهؤلاء القراء أخذوا عن علماء القراءة من التابعين، الذي تلقوا القراءات عن الصحابة، عن رسول الله ﷺ.

وقد نقل القراء القراءات القرآنية خلال القرون الماضية بالسند المتصل إلى رسول الله ﷺ، ولا يزالون يعتمدون هذا المنهج في تَعَلُّمِ القراءات وتلقيها عن معلميهم، ويرجع الفضل بعد فضل الله تعالى إلى قراء القرآن في المحافظة على النطق العربي من الانحراف والتغيير، بفضل هذا المنهج التعليمي الرشيد.

ومثل ذلك أحكام التجويد تلقاها القراء عن معلميهم، وأخذوها مشافهة عنهم، وعاضد التلقي الشفهي التدوين لتلك الأحكام في كتب علماء العربية، وكتب القراءات، ثم في كتب علم التجويد، ويُقَدَّمُ الرسم العثماني الدليل المادي الملموس على أصالة تلك الأحكام في النطق العربي وفي قراءة القرآن الكريم، بعد أن أثبتها كُتَّاب المصاحف في رسمهم لكلمات القرآن في المصاحف العثمانية، فبقي ذلك شاهدًا أصيلًا على ذلك، والحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

الحمدُ للهِ، وسلامٌ على عباده الذين ٱصْطَفَى

أما بعد:

فالحمد لله رب العالمين، الذي يَسَّرَ لي كتابة هذا الكتاب، بعد كثيرٍ من الانتظار، وتقليبٍ للنظر في موضوعه وخطته، وتَرَدُّدٍ في الإقدام على كتابته، بالنظر لخطورة موضوعه، وعظم النتائج التي كنت أرجو تحقيقها من وراء إنجازه، ومرت السنوات، وأخذتْ عوارض تَقَدُّمِ العمر تُعِيقُ عن تحقيق كثير من الأعمال، وكنت أَعُدُّ كتابة هذا الكتاب دينًا في عنقي، وسألت الله أن يعينني على الوفاء به، فهو نتيجة لأعمالي العلمية، وفحوى بحوثي وخلاصتها، فالحمد لله الذي يسر وأعان على الانتهاء منه.

ولا أكتمك أيها القارئ الكريم أني أشعر أنَّ ما كَتَبْتُهُ لا يرقى إلى ما كنت أرجوه، وأطمح إليه، ولكني وجدت أن كتابة الكتاب بالصورة التي بين يديك خير من التأجيل، أو خير من التخلي عنه جملة وتفصيلًا، وآمل أنَّ ما كتبته يحقق بعض الهدف الذي سعيت إليه من تأليف الكتاب، وهو إبراز أصالة النص القرآني، وإلقاء مزيد من الضوء على الموضوعات المتصلة بتأريخ النص الشريف، وإزالة بعض الشبهات التي قد تعترض الدارس لتاريخ القرآن.

بَيَّنْتُ في **التمهيد** منهجي في تأليف الكتاب، ويتلخص في التركيز على ما له علاقة مباشرة بتأكيد أصالة النص القرآني، وعدم الدخول في تفصيلات

موضوعات علوم القرآن التي لا تدخل بشكل مباشر في موضوعه، وأيضًا عدم تتبع الشبهات التي أثارها بعض الدارسين من المستشرقين وغيرهم حول جوانب معينة من تاريخ القرآن، واكتفيت بالإشارة إلى بعضٍ منها في هوامش النص، عندما أجد ذلك ضروريًا أو مفيدًا، لثقتي بأن بيان التاريخ الصحيح للقرآن الكريم بحسب رواية المصادر الإسلامية كفيل بإزالة الشبهات عند من يبحث عن الحقيقة ويؤمن بها.

وألزمت نفسي وأنا أكتب الكتاب ألا يكون جمعًا لفصولٍ من كتب ألفتها، أو بحوث كتبتها من قبل، وحرصت على إعادة صياغة المادة بما يتناسب والهدف من تأليف الكتاب، ومن ثم فإني آمل ألا ينزعج القارئ من تكرار بعض الأفكار التي كنت ذكرتها في ما كتبت في مؤلفاتي السابقة في علوم القرآن الكريم، فأصل هذا الكتاب هو نتيجة علمية وعملية لبحوثي التي كتبتها من قبل، ولكن بعرض جديد، لتحقيق هدف معين، وهو تأكيد أصالة النص القرآني.

وتناولت في **الفصل الأول** من الكتاب البحث عن مصدر القرآن، وعرضت أهم معالم حياة النبي محمد ﷺ قبل البعثة، وخلوها من أي مظهر من مظاهر الدعوة الجديدة، ثم تحدثت عن إرهاصات النبوة من سماع صوت ورؤية ضوء لم يعهدهما من قبل، وسلام الحجر عليه، ثم الرؤيا الصادقة والميل للخلوة التي انتهت ببدء نزول القرآن، وتوقفتُ عند فتور الوحي ودلالاته، وحفظ النبي ﷺ للقرآن الذي ينزل به جبريل عليه.

وخَصَصْتُ مظاهر الوحي الخفية والحسية بمبحث مستقل، لأهمية هذا

الموضوع في فهم كيفية تلقي النبي ﷺ للقرآن، فالجانب الخفي من الوحي بَـيَّـنَـهُ رسول الله ﷺ لأصحابه حين سألوه عنه، والجانب المحسوس من آثار الوحي وَصَفَهُ الصحابة الذين شهدوا التنزيل مرات كثيرة، وتتميز ظاهرة الوحي بجانبيها الخفي والمحسوس عن حالة النوم، أو حالة الإغماء المرضية التي تعترض بعض الناس، إنها حالة فريدة ومتميزة، إنها السكينة التي تغشى النبي ﷺ بشكل مفاجئ، وتنجلي عنه كذلك، ويتلو بعدها ما نَزَلَ عليه من القرآن على أصحابه.

وكان رسول الله ﷺ حريصًا على التمييز بين القرآن الكريم المنزل عليه، وبين حديثه الشريف، فكان يأمر بكتابة القرآن الكريم، ويُعَلِّمُهُ لأصحابه، ويتلوه في الصلاة، والسُّنَّةُ المُشَرَّفَةُ وإن كانت في معناها وحيًا أيضًا إلا أنها صياغة نبوية، بينما القرآن الكريم وَحْيٌ إلـهِيٌّ، لفظًا ومعنًى.

وتناولت في **الفصل الثاني** تدوين القرآن الكريم، بدءًا من كتابته بين يدي النبي ﷺ، فلم يكن يتأخر التدوين عن زمن التنزيل، فقد كان رسول الله ﷺ كلما نزل عليه الوحي يدعو مَن يكتب له ما نزل عليه من الوحي في الرقاع، مع المراجعة والتدقيق للمكتوب، فَكُتِبَ القرآن كله في زمنه ﷺ، لكنه كان مفرقًا في الرقاع، ثم جُمِعَتِ الرقاع في صحف منظمة، في خلافة أبي بكر الصديق، ونُسِخَتِ الصحف في المصاحف، في خلافة عثمان بن عفان، وتوحدت المصاحف التي بأيدي المسلمين، رسمًا وترتيبًا.

ويُشَكِّلُ الرسم العثماني مَعْلَمًا مُهِمًّا في الدلالة على أصالة النص القرآني، فقد حافظ المسلمون على ذلك الرسم وهم يكتبون المصاحف، بما فيه من

ظواهر الحذف والزيادة والبدل، ودَرَسَهُ علماء القرآن، وأَلَّفُوا كتبًا في وصفه، ومِثْلُ ذلك آلاف المصاحف المخطوطة التي يرجع كثير منها إلى القرن الهجري الأول، وهي تتطابق مع مصاحفنا اليوم المخطوطة والمطبوعة، وفي ذلك أعظم دليل على الحفظ المُوَثَّقِ للقرآن الكريم، الذي مضى على كتابته الأولى خمسة عشر قرنًا، ولم تُؤَدِّ تلك القرون بما صاحبها من تقلبات وصعوبات وحروب ونكسات إلى تغيير شيء من نص القرآن الكريم، فالقارئ في المصحف اليوم يقرأ وهو مطمئن إلى أنه يقرأ القرآن الذي نَزَلَ به جبريل على قلب النبي ﷺ، وكَتَبَهُ كُتَّاب الوحي في الرقاع وفي الصحف والمصاحف.

وتناولت في **الفصل الثالث** لغة القرآن الكريم، لأن ثمة بعض القضايا التي ناقشها علماء السلف رَحِمَهُمُ اللَّهُ تتعلق بها، ولأن بعض الباحثين المحدثين أثاروا شبهات قد تؤثر في نفوس بعض مَن غابت عنهم تفاصيل تاريخ القرآن الكريم، ومن البديهي القول إن القرآن منزل باللغة العربية، لكن هناك من يقول بأن القرآن أنزل بلغة قريش من العرب خاصة، وهناك من يقول بأنه نزل بلغات العرب، أو باللغة الأدبية المشتركة التي تَصَوَّرَ وجودها بعض الدارسين المحدثين.

وقد ترجح عندي، وعند كثيرين غيري، أن القرآن الكريم أنزل بلغة قريش، بحسب شهادة كبار الصحابة الذين عاصروا التنزيل، وبدلالة الشواهد التاريخية واللغوية، وفي مقدمتها رسم المصحف الذي يمثل وثيقة لغوية شاهدة على ذلك، ومع نزول القرآن الكريم بلغة قريش فإن رخصة الأحرف السبعة قد يَسَّرَتْ للعرب جميعًا قراءة القرآن من غير صعوبات لغوية تحول بينهم وبين قراءته.

ولا يُسْتَغْرَبُ التصريح من بعض المستشرقين بآراءٍ غريبةٍ على القارئ المسلم تتعلق بتاريخ القرآن، مثل قول المستشرق كارل فوللرز بأن القرآن الكريم كُتِبَ أولًا بلغة محلية، ثم أُعِيدَت صياغته وفق قواعد العربية الفصحى بعد القرن الثاني، وردد هذه المقولة جون وانسبرو بعد قرن من الزمان تقريبًا، وقد كَشَفَ الفحص الكاربوني لعدد من المصاحف المخطوطة القديمة بطلان تلك المقولة، فأثبت أنَّ مِن المصاحف ما يرجع إلى القرن الهجري الأول، وإلى وقت نسخ المصاحف العثمانية، قبل عصر النحاة الذين نسبوا إليهم زورًا وبهتانًا إعادة صياغة نص القرآن الكريم، فَبَطَلَتْ هذه المقولة من أساسها، وبَطَلَ ما انبنى عليها من دعاوى باطلة.

إن نزول القرآن الكريم باللغة العربية كان سببًا في حيويتها، وثباتها في وجه عوامل التغير والتطور، فَبَقِيَتْ حَيَّةً منذ خمسة عشر قرنًا من الزمان، يقرؤها الصغير والكبير والعربي والأعجمي، في حالة فريدة في تاريخ اللغات، وكان القرآن الكريم إلى جانب ذلك سببًا في ثراء ألفاظها وتنوع أساليبها، فالقرآن هو المعجزة العظمى للنبي ﷺ، وأبرز وجوه إعجازه نظمه البديع الذي أعجز الفصحاء عن الإتيان بمثله، وفي مقابل ذلك فإن فهم معاني القرآن الكريم يتوقف على معرفة كلام العرب وقواعد لغتهم، ولا بد لقارئ القرآن اليوم من أن تكون لديه ثقافة لغوية مناسبة لفهم معاني القرآن وتدبر آياته.

وٱخْتَصَّ **الفصل الرابع** من الكتاب بالحديث عن قراءة القرآن الكريم، ويرتبط بها علم القراءات الذي يُعْنَى ببيان وجوه اختلاف أئمة القراءة في نطق كلمات من القرآن الكريم، وعلم التجويد الذي يعنى بتصحيح النطق، وضبط مخارج الحروف وصفاتها.

تَحَدَّثْتُ في هذا الفصل عن نشأة القراءات القرآنية، في ظل رخصة الأحرف السبعة، ورَبَطتُ بين القراءات السبع أو العشر المشهورة في زماننا، وقراءات الصحابة، وبَيَّنْتُ كيف تحولت القراءات من النسبة إلى علماء القراءة من الصحابة، إلى علماء القراءة من تابعي التابعين (عاصم، ونافع، وابن كثير...)، بتأثير ظاهرة الاختيار في القراءة، لكن ذلك التحول لم يغير شيئًا من أصول القراءات أو فروعها، فقراءتنا للقرآن الكريم اليوم هي عين قراءة الصحابة رضي الله عنهم له.

وتَحَدَّثْتُ أيضًا في هذا الفصل عن أحكام التجويد، وقَوَّيْتُ الاحتجاج بالتلقي الشفهي على أصالة تلك الأحكام في قراءة القرآن، بالاحتجاج ببعض ظواهر الرسم العثماني على أصالة عدد من ظواهر التجويد في قراءة الصحابة الذين كتبوا المصاحف، وانعكس ذلك على طريقة كتابتهم لها في المصحف، مثل الإدغام، والترقيق والتفخيم، والمد والقصر، بما لا يدع مجالًا للشك في أصالة تلك الظواهر.

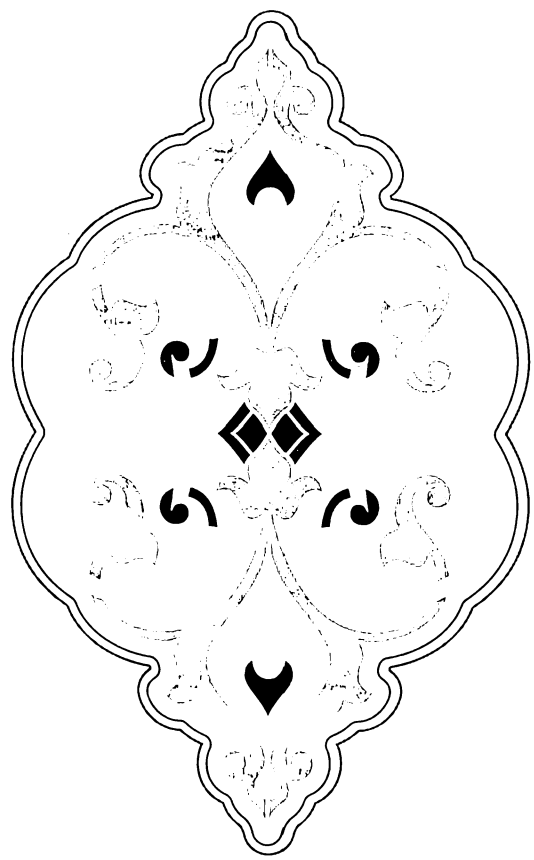
هذا ملخص ما قمت به في هذا الكتاب، وما توصلت إليه من نتائج، وهي ليست جديدة في جملتها، لكنها لا تخلو من إضافات تعزز الأدلة على أصالة النص القرآني: وحيًا، ورسمًا، ولغة، وقراءة، والحمد لله رب العالمين، وأسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب، وأن يكون سببًا للتمسك بالقرآن، والإقبال على تلاوته، والاهتداء بهديه، اللهم آمين.

* * *

وأنت أيها القارئ الكريم، هل وجدتَ ما توقعتَ أن تجده في الكتاب،

بعد أن وَقَعَتْ عيناك على عنوانه، ثم نظرت في مقدمته أو فهرست موضوعاته؟ أرجو أنك وجدت شيئًا جديدًا فيه، سواء كنت على بَيِّنَةٍ مما ورد في الكتاب، قبل أن تنظر فيه، مؤمنًا بأصالة النص القرآني وموثوقيته، بحفظ الله تعالى له، أو لم تكن على بينة من جميع ذلك، فوجدتَ في الكتاب ما زادك معرفة وبصيرة بتاريخ القرآن، وقَوَّى في نفسك أصالة هذا الكتاب الكريم، ورجوعه بكليته إلى مصدره الإلهي، وحيًا من الله تعالى إلى قلب النبي ﷺ، وإملاءً له في القراطيس والرقاع من لفظ النبي ﷺ إلى أقلام كُتَّابِ الوحي الذين كتبوه مفرقًا في الرقاع، ثم مجموعًا في الصحف، ثم منسوخًا في المصاحف، محفوظًا نصه تستنير به البشرية إلى يوم الدين.

أما إذا كنتَ أيها القارئ ممن مازج الشك في أصالة النص القرآني الكريم قلوبهم، أو حَجَبَتْ ظلمات الشبهات عن قلبك أنوار الحقائق، وحالت بينك وبين الإيمان به الشكوك، ولم تجد في كتابي هذا ما يدفع عنك تلك الشكوك أو يزيل عنك تلك الشبهات، فأتمنى أن تتأنى، وأن تتأمل في تاريخ هذا القرآن، وتنظر في سيرة حامله إلى البشرية، وما تركه فيها من آثار، وأن تقرأ فيه من جديد قراءة تكشف لك عن معانيه، وتُعَرِّفُكَ به على حقيقته، من غير أحكام مسبقة أو تأويلات بعيدة، لعلك تحظى من خلال ذلك ببركته، وتنزاح عنك تلك الحجب التي حالت بينك وبينه، وتسعد بالهداية التي جاء بها، وتنجو من مهاوى الرَّدَى التي تنتظر كل من كَذَّبَ به ولم يؤمن برسالته، والله تعالى ولي التوفيق، والهادي إلى سواء السبيل.



مصادر الكتاب

أولًا: المصاحف:

- المصحف الشريف المنسوب إلى عثمان بن عفان ﷺ (نسخة جامع الحسين بالقاهرة)، نشره الدكتور طيار آلتي قولاج، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.
- المصحف الشريف المنسوب إلى عثمان بن عفان (نسخة مكتبة طوب قابي سرايي)، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.
- المصحف الشريف المنسوب إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (نسخة صنعاء)، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.
- المصحف الشريف (نسخة متحف الفن الإسلامي بالقاهرة)، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول ١٤٣٥هـ = ٢٠١٤م.
- المصحف الشريف (نسخة المكتبة الوطنية في باريس)، نشره الدكتور طيار آلتي قولاج، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م.
- المصحف الشريف (نسخة توبنجن)، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول ١٤٣٧هـ = ٢٠١٦م.
- المصحف الشريف (نسخة المكتبة البريطانية في لندن)، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، إستانبول ١٤٣٩هـ = ٢٠١٧م.

ثانيًا: الكتب

- الآلوسي (شهاب الدين محمود بن عبد الله): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.
- إبراهيم أنيس (دكتور): من أسرار اللغة، ط ٤، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٧٢م.
- إبراهيم السامرائي (دكتور): تاريخ اللغة العربية، مطبعة دار الكتب، جامعة الموصل ١٩٧٧م.
- أحمد إدريس الطعان (دكتور): العلمانيون والقرآن الكريم، مكتبة ودار ابن حزم، الرياض ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.
- أحمد بن حنبل:
  - فضائل الصحابة، تحقيق د. وصي الله محمد عباس، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
  - مسند الإمام أحمد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.
- أحمد بن فارس: الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
- ابن الأثير (علي بن محمد):
  - أسد الغابة في معرفة الصحابة، دار الفكر، بيروت ١٤٠٩هـ = ١٩٨٩م.
  - الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.
- ابن الأثير (المبارك بن محمد): النهاية في غريب الحديث، تحقيق طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية، بيروت ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م.

- الأزهري (محمد بن أحمد):

○ تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت ٢٠٠١م.

○ معاني القراءات، مركز البحوث، جامعة الملك سعود، الرياض ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.

- الأستراباذي (رضي الدين محمد بن الحسن): شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م.

- أكرم ضياء العمري (دكتور):

○ السيرة النبوية الصحيحة، ط ٦، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة ١٤١٥هـ = ١٩٩٤م.

○ عصر الخلافة الراشدة محاولة لنقد الرواية التاريخية وفق منهج المحدثين، مكتبة العبيكان، الرياض ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.

- أمجد يونس الجنابي (دكتور): آثار الاستشراق الألماني في الدراسات القرآنية، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م.

- ابن الأنباري (محمد بن القاسم): إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله ﷻ، تحقيق د. محيي الدين عبد الرحمن رمضان، مجمع اللغة العربية بدمشق ١٣٩٠هـ = ١٩٧١م.

- الأندرابي (أحمد بن أبي عمر): الإيضاح في القراءات، تحقيق د. خالد حسن أبو الجود، دار الأوراق الثقافية، المدينة المنورة ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م.

- إياد سالم صالح السامرائي (دكتور): مصحف جامع الحسين في القاهرة: دراسة لغوية موازَنَة بكتب رسم المصحف والمصاحف المخطوطة، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق ١٤٣٤هـ = ٢٠١٣م.

- الباقلاني (محمد بن الطيب):

○ الانتصار للقرآن، تحقيق د. محمد عصام القضاة، دار الفتح - عمان، دار ابن حزم - بيروت ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

○ نكت الانتصار لنقل القرآن، تحقيق د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية ١٩٧١م.

- البخاري (محمد بن إسماعيل):

○ خلق أفعال العباد، تحقيق عبد الرحمن عميرة، دار المعارف، الرياض.

○ صحيح البخاري، تحقيق محمد زهير الناصر، دار طوق النجاة، بيروت ١٤٢٢هـ.

- بروكلمان (كارل):

○ تاريخ الأدب العربي، ترجمة د. عبد الحليم النجار، ط ٥، دار المعارف بمصر ١٩٨٣م.

○ فقه اللغات السامية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، جامعة الرياض ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.

- ابن بطال (علي بن خلف): شرح صحيح البخاري، ط ٢، تحقيق ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م.

- البغوي (الحسين بن مسعود): شرح السنة، تحقيق شعيب الأرنؤوط، وزهير الشاويش، المكتب الإسلامي، دمشق – بيروت ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.

- بلاشير (ريجيس):

○ تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي)، ترجمة د. نجيب كيلاني، دار الفكر، بيروت ١٩٥٦م.

○ القرآن: نزوله، تدوينه، ترجمته وتأثيره، ترجمة رضا سعادة، دار الكتاب اللبناني، بيروت ١٩٧٤م.

- البلاذري (أحمد بن يحيى): فتوح البلدان، مكتبة الهلال، بيروت ١٩٨٨م.
- البيهقي (أحمد بن الحسين):
  - دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٥هـ.
  - السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.
  - شعب الإيمان، تحقيق د. عبد العلي عبد الحميد حامد، مكتبة الرشد في الرياض، بالتعاون مع الدار السلفية في بومبي ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م.
  - معرفة السنن والآثار، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، مجموعة دور نشر ١٤١٢هـ = ١٩٩١م.
- الترمذي (محمد بن عيسى): سنن الترمذي، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨م.
- ابن تيمية (أحمد بن عبد الحليم):
  - مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، الرياض.
  - مقدمة في أصول التفسير، دار مكتبة الحياة، بيروت ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.
- الثعالبي (أبو منصور عبد الملك بن محمد): فقه اللغة وأسرار العربية، ط ٢، تحقيق د. ياسين الأيوبي، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.
- ابن الجزري (أبو الخير محمد بن محمد):
  - النشر في القراءات العشر، صححه علي محمد الضباع، دار الفكر، بيروت.
  - منجد المقرئين ومرشد الطالبين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- الجعبري (إبراهيم بن عمر): جميلة أرباب المراصد في شرح عقيلة أتراب القصائد، تحقيق د. محمد خضير مضحي الزوبعي، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق ١٤٣١هـ = ٢٠١٠م.

- ابن جني (أبو الفتح عثمان):

○ الخصائص، ط ٤، دار الشؤون الثقافية، بغداد ١٩٩٠م.

○ المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تحقيق علي النجدي ناصف وآخرين، القاهرة ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.

- الجهني (محمد بن يوسف بن معاذ): البديع في معرفة ما رسم في مصحف عثمان رضي الله عنهم، تحقيق غانم قدوري الحمد، ط ٢، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق – بيروت ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

- ابن الجوزي (عبد الرحمن بن علي):

○ إخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ من الحديث، تحقيق محمود الجزائري، مكتبة ابن حجر للنشر والتوزيع، مكة المكرمة ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

○ زاد المسير في علم التفسير، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤٢٢هـ.

- جواد علي (دكتور): المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط ٤، دار الساقي، بيروت ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

- جون وانسبرو: الدراسات القرآنية (باللغة الإنكليزية):

(JUHN WANSBROUGH: QURANIC STUDIES, PB , NEW YORK 2004).

- ابن أبي حاتم (عبد الرحمن بن محمد):

○ تفسير القرآن العظيم، ط ٣، تحقيق أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، مكة المكرمة ١٤١٩هـ.

○ الجرح والتعديل، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن ١٣٧١هـ = ١٩٥٢م.

- الحاكم (محمد بن عبد الله): المستدرك على الصحيحين، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١١هـ = ١٩٩٠م.
- الحاكم الكبير (أبو أحمد محمد بن محمد): فوائد أبي أحمد الحاكم، تحقيق أحمد ابن فارس السلوم، دار ابن حزم، بيروت ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.
- ابن حجر العسقلاني (أحمد بن علي):
  - الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٥هـ.
  - تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية في الهند ١٣٢٦هـ.
  - فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت ١٣٧٩هـ.
- ابن حُديدة الأنصاري (محمد بن علي): المصباح المضي في كُتَّاب النبي الأمي، تحقيق محمد عظيم الدين، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
- حمزة بن الحسن الأصفهاني: التنبيه على حدوث التصحيف، تحقيق محمد أسعد طلس، دمشق ١٩٦٨م.
- الحمزي (أبو بكر محمد بن أبي قاسم): المجزي في معرفة القراء السبعة وقراءاتهم، تحقيق د. أفنان بنت عزيز بن حمزة قبوري، أطروحة دكتوراه، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، مكة المكرمة ١٤٤٠هـ = ٢٠١٩م.
- أبو حيان الأندلسي (محمد بن يوسف):
  - البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت ١٤٢٠هـ.
  - الهجاء (آخر كتاب التذييل والتكميل) تحقيق د. تركي بن سهو نزال العتيبي، دار صادر، بيروت ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.

- ابن خالويه (الحسين بن أحمد):

○ البديع في القراءات السبع، وإضافة قراءة ثامنة، تحقيق د. جايد زيدان مخلف، ديوان الوقف السني، بغداد ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

○ مختصر في شواذ القراءة، تحقيق برجستراسر، المطبعة الرحمانية ١٩٣٤م.

- الخطيب البغدادي (أحمد بن علي):

○ تاريخ بغداد، تحقيق د. بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٤٢٢هـ = ٢٠٠٢م.

○ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، تحقيق د. محمود الطحان، مكتبة المعارف، الرياض.

○ الكفاية في علم الرواية، تحقيق السورقي، وإبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية، المدينة المنورة.

- الخفاجي (شهاب الدين أحمد بن محمد): حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.

- ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد): تاريخ ابن خلدون (المسمى: ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر)، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر، بيروت ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.

- خليفة بن خياط:

○ تاريخ خليفة، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، دار القلم - مؤسسة الرسالة، دمشق - بيروت ١٣٩٧هـ.

○ طبقات خليفة، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر للطباعة، بيروت ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.

- الدارمي (عبد الله بن عبد الرحمن): سنن الدارمي، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر، الرياض ١٤١٢هـ.

- الداني (أبو عمرو عثمان بن سعيد):
  - الإدغام الكبير، تحقيق د. عبد الرحمن حسن العارف، عالم الكتب، القاهرة ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.
  - البيان في عد آي القرآن، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق - بيروت - إستانبول ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م.
  - التحديد في الإتقان والتجويد، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
  - التيسير في القراءات السبع، تحقيق أوتو برتزل، مطبعة الدولة، إستانبول ١٩٣٠م.
  - المحكم في علم نقط المصاحف، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق - بيروت ١٤٣٨هـ = ٢٠١٧م.
  - المقنع في معرفة مرسوم مصاحف أهل الأمصار، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٣٢هـ = ٢٠١١م.
- أبو داود (سليمان بن الأشعث): سنن أبي داود، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت.
- ابن أبي داود (عبد الله بن سليمان): كتاب المصاحف، تحقيق د. محب الدين عبد السبحان واعظ، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.
- ابن درستويه (عبد الله بن جعفر): كتاب الكُتَّاب، تحقيق د. إبراهيم السامرائي، ود. مهدي المخزومي، الكويت ١٣٩٧هـ = ١٩٧٧م.
- ديفيد كريستال: موت اللغة، ترجمة د. فهد بن مسعد اللهيبي، جامعة تبوك ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.
- الذهبي (محمد بن أحمد بن عثمان): سير أعلام النبلاء، تحقيق مجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.

- الرازي (محمد بن عمر): مفاتيح الغيب (أو: التفسير الكبير)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢٠هـ.
- الراغب الأصفهاني (الحسين بن محمد): المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، الدار الشامية، دمشق - بيروت ١٤١٢هـ.
- رمضان عبد التواب (دكتور):
  - فصول في فقه العربية، ط ٦، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
  - في التطور اللغوي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٤٠٤هـ = ١٩٨٣م.
- الزبيدي (محمد مرتضى): تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة محققين، دار الهداية، الكويت.
- الزجاج (إبراهيم بن السري): معاني القرآن وإعرابه، تحقيق د عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب، بيروت ١٤٠٨هـ = ١٩٨٨م.
- الزجاجي (عبد الرحمن بن إسحاق): الإيضاح في علل النحو، تحقيق د. مازن المبارك، دار النفائس، بيروت ١٩٧٣م.
- الزركشي (محمد بن عبد الله): البرهان في علوم القرآن، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٧٦هـ = ١٩٥٧م.
- الزركلي (خير الدين محمود): الأعلام، ط ١٥، دار العلم للملايين، بيروت ٢٠٠٢م.
- ابن زنجلة (ابو زرعة عبد الرحمن بن محمد): حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، ط ٥، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
- ابن زنجويه (حميد بن مخلد): الأموال، تحقيق د. شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، الرياض ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.

- زهير بن حرب (أبو خيثمة النسائي): كتاب العلم، ط ٢، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- السخاوي (علي بن محمد، علم الدين):
  - جمال القراء وكمال الإقراء، تحقيق د. مروان العطية، ود. محسن خرابة، دار المأمون للتراث، دمشق - بيروت ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
  - الوسيلة إلى كشف العقيلة، تحقيق د. مولاي محمد الإدريسي الطاهري، مكتبة الرشد ناشرون، الرياض ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
- السخاوي (محمد بن عبد الرحمن، شمس الدين): فتح المغيث بشرح ألفية الحديث، تحقيق علي حسين علي، مكتبة السنة بمصر ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.
- ابن السراج (محمد بن السري):
  - كتاب الأصول في النحو، تحقيق د. عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
  - كتاب الخط، تحقيق خولة صالح حسين، دار الكتب العلمية ١٤٣٦هـ = ٢٠١٥م.
- السرخسي (محمد بن أحمد): المبسوط، دار المعرفة، بيروت ١٤١٤هـ = ١٩٩٣م.
- ابن سعد (محمد بن سعد): الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت ١٩٦٨م.
- السمعاني (عبد الكريم بن محمد): أدب الإملاء والاستملاء، تحقيق ماكس فايسفايلر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.
- السمهودي (علي بن عبد الله): وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ.
- السمين الحلبي (أحمد بن يوسف): عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ، تحقيق محمود باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٧هـ = ١٩٩٦م.

- السهيلي (عبد الرحمن بن عبد الله): الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام، تحقيق عمر عبد السلام السلامي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- سيبويه (أبو بشر عمرو بن عثمان): الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة.
- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر):
  - الإتقان في علوم القرآن، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة ١٤٢٦هـ.
  - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر، بيروت.
  - المزهر في اللغة وأنواعها، تحقيق فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ = ١٩٩٨م.
- الشافعي (محمد بن إدريس):
  - تفسير الإمام الشافعي، جمع وتحقيق د. أحمد بن مصطفى الفران، دار التدمرية، الرياض ١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م.
  - الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الحلبي، القاهرة ١٣٥٨هـ = ١٩٤٠هـ.
- أبو شامة المقدسي (عبد الرحمن بن إسماعيل): المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز، تحقيق طيار آلتي قولاج، دار صادر، بيروت ١٣٩٥هـ = ١٩٧٥م.
- ابن شَبَّةَ (عمر بن شَبَّةَ): تاريخ المدينة، تحقيق فهيم محمد شلتوت، طبع على نفقة حبيب محمد أحمد، جدة ١٣٩٩هـ.
- الشوكاني (محمد بن علي): إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، تحقيق أحمد عزو عناية، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.
- ابن أبي شيبة (عبيد الله بن محمد): الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض ١٤٠٩هـ.

- شيخي زاده (عبد الرحمن بن محمد): مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- صبحي الصالح (دكتور): مباحث في علوم القرآن، ط ١٠، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧م.
- صدِّيق حسن خان: فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية، صيدا – بيروت ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.
- الصولي (محمد بن يحيى): أدب الكتاب، تحقيق محمد بهجة الأثري، المطبعة السلفية بمصر، والمكتبة العربية ببغداد ١٣٤١هـ.
- الضباع (علي بن محمد): سمير الطالبين في رسم وضبط الكتاب المبين، مع سفير العالمين، للدكتور أشرف محمد فؤاد طلعت، مكتبة الإمام البخاري، الإسماعيلية ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.
- ابن الضياء (محمد بن أحمد): تاريخ مكة المشرفة والمسجد الحرام والمدينة الشريفة والقبر الشريف، تحقيق علاء إبراهيم، وأيمن نصر، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٤م.
- الطبراني (سليمان بن أحمد):
  - المعجم الأوسط، تحقيق طارق بن عوض الله، وعبد المحسن إبراهيم، دار الحرمين، القاهرة.
  - المعجم الصغير، تحقيق محمد شكور محمود أمرير، المكتب الإسلامي – دار عمار، بيروت – عمان ١٤٠٥هـ = ١٩٨٥م.
  - المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
- الطبري (محمد بن جرير):
  - تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

○ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.

● ابن الطحان (عبد العزيز بن علي الأندلسي):

○ الإنباء في تجويد القرآن، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مكتبة الصحابة، الشارقة ١٤٢٨هـ = ٢٠٠٧م.

○ مرشد القارئ على تحقيق معالم المقارئ، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، مكتبة الصحابة، الشارقة ٢٠٠٧م.

● ابن عبد البر (يوسف بن عبد الله):

○ الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

○ التمهيد لِمَا في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق مصطفى بن أحمد علوي، ومحمد عبد الكبير البكري، وزارة الأوقاف في المغرب ١٣٨٧هـ.

○ جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبي الأشبال الزحيري، دار ابن الجوزي، الرياض ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.

● ابن عبد ربه (أحمد بن محمد): العقد الفريد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٤هـ.

● عبد الرحمن بدوي (دكتور): دفاع عن القرآن ضد منتقديه، ترجمة كمال جاد الله، الدار العالمية للكتب والنشر.

● عبد الرزاق بن همام الصنعاني: مصنف عبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٣هـ.

● عبد العزيز الصيغ (دكتور): المصطلح الصوتي في الدراسات العربية، دار الفكر ن دمشق – بيروت ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.

- عبده الراجحي (دكتور): اللهجات العربية في القراءات القرآنية، دار المعارف بمصر ١٩٦٨م.
- عبد الوهاب بن محمد القرطبي: الموضح في التجويد، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان ١٤٢١هـ = ٢٠٠٠م.
- أبو عبيد (القاسم بن سلام):
  - الأموال، تحقيق خليل محمد هراس، دار الفكر، بيروت.
  - فضائل القرآن، تحقيق مروان العطية وآخرين، دار ابن كثير، دمشق — بيروت ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.
- ابن عدي (عبد الله بن عدي الجرجاني): الكامل في ضعفاء الرجال، مجموعة محققين، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٨هـ = ١٩٩٧م.
- ابن عساكر (علي بن الحسن): تاريخ دمشق، تحقيق عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ١٤١٥هـ = ١٩٩٥م.
- العسكري (أبو أحمد الحسين بن عبد الله): شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف، تحقيق عبد العزيز أحمد، البابي الحلبي بمصر ١٩٦٣م.
- ابن عطية (عبد الحق بن غالب): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ.
- علي عبد الواحد وافي (دكتور):
  - علم اللغة، ط ٧، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢م.
  - فقه اللغة، ط ٣، مطبعة نهضة مصر، القاهرة ٢٠٠٤م.
  - اللغة والمجتمع، عكاظ للنشر، الرياض ١٤٠٣هـ = ١٩٨٣م.
- أبو علي الفارسي (الحسن بن أحمد): الحجة للقراء السبعة، تحقيق بدر الدين قهوجي، وبشير جويجاني، دار المأون للتراث، دمشق - بيروت ١٤١٣هـ = ٢٠٠٣م.

- عمر رشيد شاكر السامرائي (دكتور): العربية المشتركة: دراسة في ضوء المنهج اللغوي التاريخي، دار غيداء للنشر، عمان ٢٠١٧م.
- عياض بن موسى (القاضي):
  - إكمال المعلم بفوائد مسلم، وهو شرح صحيح مسلم، تحقيق د. يحيى إسماعيل، دار الوفاء، مصر ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.
  - الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، تحقيق السيد أحمد صقر، دار التراث – المكتبة العتيقة، القاهرة – تونس ١٣٨٩هـ = ١٩٧٠م.
- العيني (بدر الدين محمود بن أحمد): عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- غانم قدوري الحمد:
  - أبحاث في رسم المصحف وضبطه، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م.
  - أبحاث في العربية الفصحى، دار عمار، عمان ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٥م.
  - أبحاث في علوم القرآن، دار عمار، عمان ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٦م.
  - حقائق عن رسم المصحف (في الرد على أباطيل بعض المؤلفين وأوهامهم)، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان ١٤٤١هـ = ٢٠٢٠م.
  - رسم المصحف دراسة لغوية تاريخية، بغداد ١٤٠٢هـ = ١٩٨٢م.
  - ظواهر كتابية في مصاحف مخطوطة (بالاشتراك مع د. إياد سالم صالح السامرائي)، ط ٢، دار الغوثاني للدراسات القرآنية، دمشق ١٤٣٧هـ = ٢٠١٦م.
  - علم الكتابة العربية، دار عمار، عمان ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.
  - علم المصاحف (مجموعة أبحاث)، جمعية المحافظة على القرآن الكريم، عمان ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م.

○ علوم القرآن بين المصادر والمصاحف (دراسة تطبيقية في مصاحف مخطوطة)، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض ١٤٣٩هـ = ٢٠١٨م.

○ محاضرات في علوم القرآن، دار عمار، عمان ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٣م.

○ الميسر في علم رسم المصحف وضبطه، ط ٢، معهد الإمام الشاطبي، جدة ١٤٣٧هـ =٢٠١٦م.

- الغزالي (أبو حامد محمد بن محمد): إحياء علوم الدين، دار المعرفة، بيروت.
- الفراء (يحيى بن زياد): معاني القرآن، تحقيق محمد علي النجار وآخرين، الدار المصرية للتأليف، القاهرة.
- الفسوي (يعقوب بن سفيان): المعرفة والتاريخ، ط ٢، تحقيق د. أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.
- أبو الفضل الرازي (عبد الرحمن بن أحمد): معاني الأحرف السبعة، تحقيق د. حسن ضياء عتر، دار النوادر ١٤٣٣هـ = ٢٠١٢م.
- فندريس (جوزيف): اللغة، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، ومحمد القصاص، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٥٠م.
- ابن القاصح (علي بن عثمان): تلخيص الفوائد وتقريب المتباعد في شرح عقيلة أتراب القصائد، مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٩٤٩م.
- ابن قتيبة (عبد الله بن مسلم):
- تأويل مختلف الحديث، ط ٢، المكتب الإسلامي، ومؤسسة الإشراق، بيروت ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.

○ تأويل مشكل القرآن، ط ٣، تحقيق السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، المدينة المنورة ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

○ غريب الحديث، تحقيق د. عبد الله الجبوري، مطبعة العاني، بغداد ١٣٩٧هـ.
○ المعارف، تحقيق ثروت عكاشة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٢م.

- القرطبي (أحمد بن محمد): الجامع لأحكام القرآن، (وهو تفسير القرطبي)، تحقيق أحمد البردوني، وإبراهيم اطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة ١٣٨٤هـ = ١٩٦٤م.
- القسطلاني (أحمد بن محمد): لطائف الإشارات لفنون القراءات، تحقيق مركز الدراسات القرآنية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة ١٤٣٤هـ.
- القضاعي (محمد بن سلامة): مسند الشهاب، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.
- القلقشندي (أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.
- الكاساني (أبو بكر بن مسعود): بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م.
- ابن كثير (إسماعيل بن عمر):

○ البداية والنهاية، دار الفكر، بيروت ١٤٠٧هـ = ١٩٨٦م.
○ تفسير القرآن العظيم، ط ٢، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
○ السيرة النبوية، تحقيق مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة، بيروت ١٣٩٥هـ = ١٩٧٦م.

- الكرماني (محمد بن أبي نصر): شواذ القراءات، تحقيق د. شمران العجلي، مؤسسة البلاغ، بيروت.
- الكرماني (محمد بن يوسف): الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٤٠١هـ = ١٩٨١م.

- المالقي (عبد الواحد بن محمد): الدر النثير والعذب النمير في شرح كتاب التيسير، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٤هـ = ٢٠٠٣م.
- مالك بن نبي: الظاهرة القرآنية، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق ١٤٢٠هـ = ٢٠٠٠م.
- الماوردي (علي بن محمد): الحاوي الكبير شرح مختصر المزني، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٩هـ = ١٩٩٩م.
- المباركفوري (صفي الرحمن): الرحيق المختوم (بحث في السيرة النبوية)، دار المروة، الرياض ١٤٣٣هـ = ٢٠١٣م.
- ابن مجاهد (أحمد بن العباس): كتاب السبعة في القراءات، ط ٢، تحقيق د. شوقي ضيف، دار المعارف بمصر ١٤٠٠هـ.
- محمد بن إسحاق بن يسار: سيرة ابن إسحاق (كتاب السير والمغازي)، تحقيق سهيل زكار، دار الفكر، بيروت ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.
- محمد حسن حسن جبل (دكتور): دفاع عن القرآن الكريم، البربري للطباعة الحديثة، بسيون - غربية ٢٠٠٠م.
- محمد حسين هيكل: الصديق أبو بكر، القاهرة ١٩٦٤م.
- محمد رشيد رضا: الوحي المحمدي، ط ٣، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، بيروت ١٤٠٦هـ.
- محمد أبو زهرة (الشيخ): المعجزة الكبرى، القرآن، دار الفكر العربي، القاهرة ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠م.
- محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس ١٩٨٤م.
- محمد عبد الله دراز (دكتور):
  - مدخل إلى القرآن الكريم، دار القلم، الكويت ١٤٠٤هـ = ١٩٨٤م.

○ النبأ العظيم، ط ٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض ١٤١٧هـ = ١٩٩٧م.

● محمد علي قطب: إرهاصات النبوة، الدار الثقافية للنشر، القاهرة ١٤٢٥هـ = ٢٠٠٤م.

● محمد محمد داود: اللغة كيف تحيا ومتى تموت، جامعة قناة السويس.

● محمد محمد أبو ليلة (دكتور): القرآن الكريم من المنظور الاستشراقي، دار النشر للجامعات، القاهرة ١٤٢٣هـ = ٢٠٠٢م.

● محمد مصطفى الأعظمي (دكتور):

○ كتاب النبي ﷺ، ط ٢، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٨هـ = ١٩٧٨م.

○ النص القرآني الخالد عبر العصور، مكتبة نظام يعقوبي الخاصة، المنامة، حقوق الطبع محفوظة لدار الأعظمي للنشر، الرياض ١٤٣٨هـ = ٢٠١٧م.

● محمد ناصر الدين الألباني:

○ سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، دار المعارف، الرياض ١٤١٢هـ = ١٩٩٢م.

○ ضعيف الجامع الصغير وزياداته، المكتب الإسلامي، بيروت.

● المخلص (محمد بن عبد الرحمن): المخلصيات، تحقيق نبيل سعد الدين جرار، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.

● محمود السعران (دكتور): اللغة والمجتمع، رأي ومنهج، ط ٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٣م.

● المرادي (الحسن بن قاسم):

○ شرح الواضحة في تجويد الفاتحة، تحقيق د. عبد الهادي الفضلي، دار القلم، بيروت.

○ المفيد في شرح عمدة المجيد في علم التجويد، تحقيق د. علي حسين البواب، مكتبة المنار، الزرقاء ١٤٠٧هـ = ١٩٨٧م.

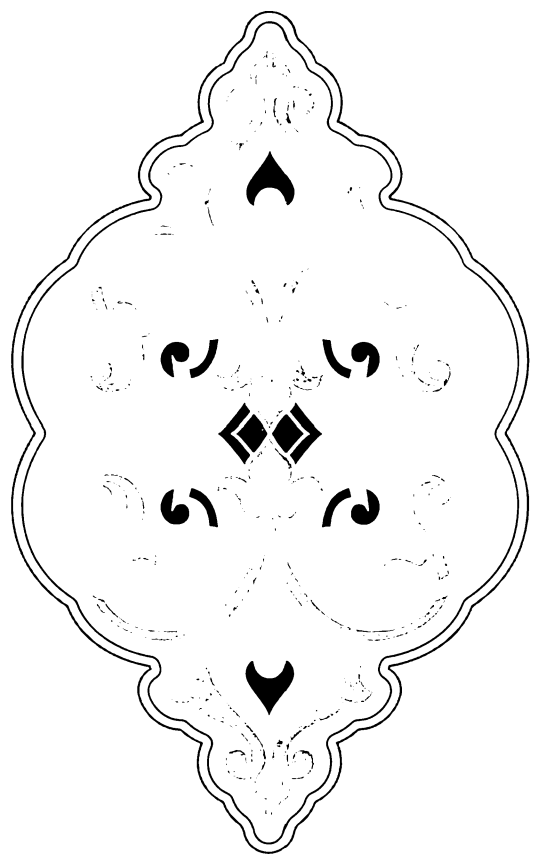
- المرعشي (محمد بن أبي بكر): جهد المقل، تحقيق د. سالم قدوري الحمد، دار عمار، عمان ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.
- المزي (يوسف بن عبد الرحمن): تهذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٠٠هـ = ١٩٨٠م.
- مسلم بن الحجاج القشيري: صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- المقريزي (أحمد بن علي): إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق محمد عبد الحميد النميسي، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٠هـ = ١٩٩٩م.
- مكي بن أبي طالب القيسي:
  - الإبانة عن معاني القراءات، تحقيق د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٦٠م.
  - الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، تحقيق د. محيي الدين رمضان، مجمع اللغة العربية، دمشق ١٣٩٤هـ = ١٩٧٤م.
  - الهداية إلى بلوغ النهية في علم معاني القرآن وتفسيره، تحقيق مجموعة باحثين، جامعة الشارقة ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٨م.
- ملا علي القاري (علي بن سلطان محمد): شرح الشفا، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤١٢هـ.
- المنتوري (محمد بن عبد الملك): شرح الدرر اللوامع في مقرأ الإمام نافع، تحقيق الصديقي سيدي فوزي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.
- ابن منظور (محمد بن مكرم): لسان العرب، ط ٣، دار صادر، بيروت ١٤١٤هـ.

- المهدوي (أبو العباس أحمد بن عمار): هجاء مصاحف الأمصار، تحقيق د. حاتم صالح الضامن، دار ابن الجوزي، الرياض ١٤٣٠هـ.
- نجيب العقيقي: المستشرقون، ط ٣، دار المعارف بمصر ١٩٦٤م.
- الندوي (أبو الحسن علي الحسني):
  - السيرة النبوية، ط ١٢، دار ابن كثير، دمشق ١٤٢٥هـ.
  - العرب والإسلام، ط ٢، المكتب الإسلامي، دمشق – بيروت ١٣٨٩هـ.
- النديم (محمد بن إسحاق): كتاب الفهرست، تحقيق أيمن فؤاد سيد، مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي، لندن ١٤٣٠هـ = ٢٠٠٩م.
- النسائي (أحمد بن شعيب): السنن الكبرى، تحقيق حسن عبد المنعم شلبي، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٤٢١هـ = ٢٠٠١م.
- نصر الهوريني (أبو الوفا): المطالع النصرية للمطابع المصرية في الأصول الخطية، تحقيق د. طه عبد المقصود، مكتبة السنة، القاهرة ١٤٢٦هـ = ٢٠٠٦م.
- أبو نعيم الأصبهاني (أحمد بن عبد الله): معرفة الصحابة، تحقيق عادل بن يوسف العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض ١٤١٩هـ = ١٩٩٨م.
- نفوسة زكريا سعيد (دكتورة): تاريخ الدعوة إلى العامية وآثارها في مصر، مطبعة دار نشر الثقافة بمصر ١٩٦٤م.
- نولدكه (تيودور):
  - تاريخ القرآن، (تعديل فريديريش شفالي) ترجمة د. جورج تامر، مؤسسة كونراد-إدناور، بيروت ٢٠٠٤م.
  - اللغات السامية، ترجمة د. رمضان عبد التواب، دار النهضة العربية ١٩٦٣م.
- النووي (يحيى بن شرف):
  - تهذيب الأسماء واللغات، دار الكتب العلمية، بيروت.

○ شرح النووي على صحيح مسلم (المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج)، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٣٩٢م.

- ابن هشام (محمد بن عبد الملك): السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري، وعبد الحفيظ شلبي، ط ٤، دار ابن كثير، دمشق ١٤٣٨هـ = ٢٠١٧م.
- الهيثمي (علي بن أبي بكر): مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، تحقيق حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة ١٤١٤هـ = ١٩٩٤م.
- ابن وثيق (إبراهيم بن محمد): الجامع لما يحتاج إليه من رسم المصحف، تحقيق غانم قدوري الحمد، دار عمار، عمان ١٤٢٩هـ = ٢٠٠٩م.
- ياقوت بن عبد الله الحموي: معجم البلدان، ط ٢، دار صادر، بيروت ١٩٩٥م.
- ابن يعيش (علي بن يعيش): شرح المفصل، تحقيق د. إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٢٢هـ = ٢٠٠١م.

** ** **



موضوعات الكتاب

الموضوع رقم الصفحة

مقدمة ٥

تمهيد: خطة بناء الكتاب ومعالم المنهج ١٠

الفصل الأول: مصدر النص القرآني، أو ظاهرة الوحي ١٩

المبحث الأول: حياة النبي محمد ﷺ قبل البعثة ٢١

المبحث الثاني: إرهاصات النبوة المباركة ٢٨

المبحث الثالث: البعثة النبوية، وبدء نزول القرآن ٣٥

المطلب الأول: لقاء النبي ﷺ الأول بجبريل ٣٥

المطلب الثاني: انقطاع الوحي مدة من الزمن ٣٨

المطلب الثالث: حفظ النبي ﷺ القرآن ٤٣

المبحث الرابع: مظاهر تلقي النبي ﷺ القرآن الكريم ٥٠

المطلب الأول: الجانب الخفي من الوحي ٥٣

المطلب الثاني: الجانب المحسوس من الوحي ٥٦

أولًا: الجانب المحسوس الذي يختص بالنبي ﷺ ٥٦

ثانيًا: ما يختص بأصحابه من آثار الوحي ٥٧

ثالثًا: ما يختص بالناقة من آثار الوحي ٥٨
المطلب الثالث: تحليل ظاهرة الوحي والموقف منها ٦١
الفصل الثاني: تدوين القرآن الكريم ٦٧
المبحث الأول: تدوين القرآن في الرقاع في زمن النبي ﷺ ٦٩
المطلب الأول: كتابة القرآن في مكة قبل الهجرة ٧٠
المطلب الثاني: كتابة القرآن في المدينة ٨٠
أولًا: أول من كتب الوحي في المدينة ٨٠
ثانيًا: أكثر من كتب الوحي في المدينة ٨٢
المطلب الثالث: التدقيق والمراجعة للنص القرآني ٨٥
أولًا: التدقيق الفوري للنص المكتوب ٨٥
ثانيًا: مراجعة الرقاع المكتوب عليها القرآن ٨٦
المبحث الثاني: جمع الرقاع في الصحف ٩٤
المبحث الثالث: نسخ الصحف في المصاحف ١٠٣
المبحث الرابع: الرسم العثماني ودلالته ١١٢
المطلب الأول: أصل الرسم العثماني وأهم خصائصه ١١٣
المطلب الثاني: تعليل ظواهر الرسم ١١٨
المطلب الثالث: دلالة الرسم على أصالة النص القرآني ١٢٣
المبحث الخامس: المصاحف المخطوطة ودلالتها ١٣١

الفصل الثالث: لغة القرآن الكريم ١٤٣
المبحث الأول: عربية القرآن وعالمية رسالته ١٤٥
المبحث الثاني: نزول القرآن بلغة قريش ١٥٣
المطلب الأول: الشواهد التاريخية ١٥٤
المطلب الثاني: الاحتجاج بظاهرة الهمز في القراءات ١٥٦
المطلب الثالث: ظاهرة الهمزة في اللغة والقراءة ١٥٨
المطلب الرابع: اللغة الأدبية المشتركة ١٦٣
المبحث الثالث: شبهات حول عربية القرآن الكريم ١٦٩
المطلب الأول: دعوى إعادة صياغة نص القرآن الكريم ١٧١
المطلب الثاني: أصالة ظاهرة الإعراب في العربية ١٨١
أولًا: خلاصة نظرية د. إبراهيم أنيس حول الإعراب ١٨٣
ثانيًا: دلالة رسم المصحف على أصالة الإعراب ١٨٨
المبحث الرابع: سر حيوية اللغة العربية ٢٠٠
المطلب الأول: حياة اللغة العربية وقوانين التطور ٢٠١
المطلب الثاني: أهمية اللغة العربية في فهم معاني القرآن..... ٢٠٤
الفصل الرابع: قراءة القرآن الكريم ٢٠٨
المبحث الأول: القراءات القرآنية: نشأة ورواية وتأليفًا ٢١١
المطلب الأول: رخصة الأحرف السبعة ونشأة القراءات ٢١٢

المطلب الثاني: علاقة رخصة الأحرف بتدوين القرآن ٢٢٠
المطلب الثالث: الاختيار وأثره في رواية القراءات ٢٢٩
المطلب الرابع: القراءات الصحيحة والقراءات الشاذة ٢٣٨
أولًا: القراءة الصحيحة والقراءة الشاذة قبل ابن مجاهد ... ٢٣٨
ثانيًا: القراءة الصحيحة والقراءة الشاذة بعد ابن مجاهد ... ٢٤٣
المطلب الخامس: تطور التأليف في القراءات ٢٤٧
المبحث الثاني: أصالة علم التجويد ٢٥٢
المطلب الأول: دلالة رسم المصحف على ظاهرة الإدغام ... ٢٥٦
المطلب الثاني: دلالة رسم المصحف على الترقيق والتفخيم.. ٢٦٧
المطلب الثالث: دلالة رسم المصحف على المد والقصر ٢٧١
الخاتمة ٢٧٧
مصادر الكتاب ٢٨٥
موضوعات الكتاب ٣٠٩

** ** **